
ساحر الكتب
رواية
شيرين هَنائي
أسفار
النهايات
الرواق للنشر والتوزيع



أسفار النهايات

رواية

شيرين هنائي

الرواق للنشر والتوزيع



إهـــداء

أنت أفضل شيء حدث في هذا الكون، وأي كون آخر..
أنت زماني، ومكاني، والجاذبية التي تربطني بالحياة.



«المكان والزمان، يشكلان مسرح الواقع. كياننا كله، كل ما نفعله، ونفكر فيه، ونختبره، يحدث في مكان ما خلال فترة محددة من الزمن.

لكن، هل الزمان والمكان أشياء مادية حقيقية، أم مجرد أفكار فلسفية؟

هل للوقت بداية؟ وهل محتم له أن يتدفق ببساطة من الماضي نحو المستقبل؟ هل يمكننا التلاعب بالمكان والزمان؟

السؤال الأهم، ما هو الواقع؟ الواقع هو ما نظن أنه الواقع، الواقع هو ما يتكشف لنا من خلال خبراتنا. لكن، هل يمكننا الوثوق بحواسنا القاصرة في تحديد ماهية الواقع؟»

برايان جرين

عالم فيزياء نظرية



(١)
ميكانيكا سماوية



«أنا فنان بدرجة كافية لأرسم بحرية في مخيلتي. الخيال أكثر أهمية من المعرفة، المعرفة محدودة بينما الخيال يُطوّق العالم...».

ألبرت آينشتاين

(١)

أغلق ستائر الفصل، وأضيء مصباح مكتب قديم الطراز، معدني الجسد، تقشرت زرقة طلائه في أكثر من موضع، إلا أنه ظل أصيلا لآخر لحظة، وظل يؤدي مهمته في إضاءة وسيلتي التوضيحية للطلبة.

ـ كما ترون، أنبوب زجاجي مفتوح من أعلى، الكرة معلقة في منتصفه تماما، تجذبها لأسفل قوة الجاذبية الأرضية، وتدفعها لأعلى قوة محسوبة من الهواء المتدفق من أسفل الجهاز.. ما هو مقدار قوة الجاذبية الأرضية؟ كتلة الكرة مضروبة في عجلة الجاذبية.. تلك القوى تقاس بوحدة تسمى «النيوتن»...

بعد خمسة وثلاثين عاما من التدريس، لم تعد تسمح لي المدرسة بعرض تلك التجارب في أثناء الحصص الرسمية. فقط سمحوا لي باستخدام حجرة الأنشطة المهجورة بعد انتهاء اليوم الدراسي، لتدريس وسائلي التوضيحية للهواء الجالس على المقاعد.

ولأنه يوم مميز، يأتيني طالب واحد هزيل نصف نائم، عينه اليمنى متقرحة، من جراء التهاب سببته العدسة الإلكترونية الموصولة بالإنترنت، والتي يثبتها الجميع هذه الأيام فوق قرنياتهم، لتتيح لهم اتصالا دائما وفوريا بالشبكة، مع



حرية حركة أيديهم. السيناريو المقترح لوجوده هنا بالذات، هو أن طبيب المدرسة أزال العدسة ونصحه بإغماض عينيه قليلا، وصرفه خارج العيادة كي يغلقها ويذهب لبيته، فقاده حظه العاثر إلى حجرة الأنشطة المجاورة. وجدني هناك أعد الوسائل الإيضاحية فتحمس وجلس..

أو ربما لم يتحمس لهذا الحد، فقط لم يجد مكانا آخر يأوي إليه.

ـ كما توضح الكرة المعلقة، يظل الجسم في حالته من الحركة في خط مستقيم أو السكون، ما لم تؤثر فيه قوة محصلة تغير من حالته...

أزيد قليلا من اندفاع الهواء، المتدفق من مولد صغير في القاعدة الخشب للوسيلة الإيضاحية، فيتغير ثبات الكرة وترتفع لأعلى. أنظر للشاب الصغير فأجده يهز رأسه فاتحا فمه في انبهار..

أو لعله عدم فهم..

أو عدم اكتراث..

ـ القانون الثاني: إذا أثرت قوة أو مجموعة قوى على جسم ما، فإنها تكسبه تسارعا يتناسب مع محصلة القوى المؤثرة... هل تلاحظ كيف ترتفع الكرة وتنخفض حسب زيادة قوة دفع الهواء لها؟

ـ لكن يا «مستر».. لست هنا كي...

هنا أود أن أقول شيئا عن نفسي، أنا أكره الألفاظ الدخيلة.. أكره كسر قواعد الفيزياء والكيمياء واللغة.. أكره نظرات أولئك الشباب الخاوية. كل يحملق في ما يراه في عدسته الإلكترونية، فلا تعرف إن كان ينظر لك، أو ينظر للقطة إباحية معلقة بين العدسة اللعينة وشبكيته.

ـ لا «تمسترني».. لست مسترا.. أنا أستاذ.. أستاذ بحر.. ولا أريد أن أسمع سؤالا ولا اعتراضا.

يمط شفتيه الكالحتين، يقوم، يجذب بنطاله لأعلى، فيستر ماركة ملابسه الداخلية.. ينظر لي محتقرا.. هذه المرة أنا متأكد أنه ينظر لي.

ـ لن تسمعني كما توقعت يا.. أستاذ بحر.

يحدجني بنظره مهينة، ثم يتجه متثاقلا واثقا نحو الباب. أزيد من تدفق الهواء فتندفع الكرة خارجة من الأنبوب، أضربها بيدي بقوة في اتجاهه، فتندفع نحو مؤخرة رأسه وترتطم بها ثم ترتد نحوي، تسقط تحت قدميّ. يمسك بقفاه ويتأوه من دون أن يلتفت لي.

ـ القانون الثالث لنيوتن.. لكل قوة فعل، لا تؤاخذني، قوة رد فعل.. مساوية لها في المقدار ومضادة لها في الاتجاه.. انتهى الدرس.. يمكنك الانصراف.

* * *

في الستين، لا تعود الخيارات مفتوحة أمامك، فإما تكون قد حققت أحلامك فتجلس في خريف عمرك تستمتع بها، وإما تكون بائسا لا تزالت تطارد سرابا بعكاز تحت إبطك.
في الستين، لا يمكنك إلا أن تسلك الدروب ذاتها، التي حفرتها قدماك جيئة وذهابا طيلة سنوات عمرك. لا يسعك إلا أن تشتري رغيفين، واحد للغداء وآخر للعشاء. تتعثر في ذات الحفرة أمام خمارة «مستباح» العجوز. يخرج لك محنيا معتذرا يمسح في مئزرة خمرا محلية مقيتة.

ـ أصلح الحفرة يا مستباح.. أصلح الحفرة اللعينة يا مستباح.

فيربت على ظهري ويهمهم. لا أذكر إن كان الموقف يتكرر يوميا، أم أنني أفترض تكراره بجملة الدائرة المفرغة التي أدور فيها.



كل يوم أرى الحفرة بقعة ماء، أتخيلها كذلك بسبب قصر النظر والاستجماتيزم، أرفع طرف بنطالي كي لا يبتل ثم... أجدني جالسا فيها كمهد كبرتُ عليه.

أصعد سلم المنزل المعتم، أحفظ عدد درجات سلمه وتناغمها مع صوت صفير شعيباتي الهوائية.

احتفالا بخروجي على المعاش، أشتري ورقة لحم من الجزار. اكتشفت حين وضعت أول قطعة لحم منها في فمي، أنها ورقة دهن. رحت أصطاد البطاطس والبصل بلقيمات الرغيف الأول، وأنا أحدق في الصندوق الذي يحوي وسائلي التوضيحية. آخر رحلة لها خارج المنزل كانت اليوم.

قالها لي مدير المدرسة منذ ساعات «لقد كان شرفا لنا أن تعمل في مدرستنا طيلة الخمسة والثلاثين عاما الماضية، وآن الأوان أن تستريح في منزلك».

مع بدء العام الدراسي الأسبوع الماضي، حاولت أن أوجد في المدرسة، فلربما احتاج أحد المدرسين الجدد مني توجيها أو معلومة، فلن يستقيم الأمر من دون خبراتي. رحت أتسكع جوار الكانتين.. أشرب شايا مع عاملات النظافة، أعرف أنهن يستمتعن بوجودي.

أحوم حول حجرة المدرسين المغلقة على من فيها، لا أحاول الدخول، فلربما يشغلهم الترحيب بي عن أداء مهامهم.

سمحوا لي باستخدام حجرة الأنشطة كما ذكرت، لكنهم رأوا بعد مرور أسبوع أن الراحة أفضل لي. بالفعل.. الراحة أفضل لي، فقد حققت كل أحلامي، كلها، وآن الأوان أن أستمتع بحياتي.

* * *

عزيزتي إشراق:

...لم يتبق من أموال الدروس الخاصة شيئا، بعد العلاج الكيميائي لرئتيّ. محظوظ أنا بأن أعيش حتى أحصل على مكافأة نهاية خدمتي، وسأكون محظوظا أكثر لو فعلتُها وسافرت لزيارة قبر سير إسحق نيوتن، قبل أن ينتهي وقتي في الحياة.

كنت أود لو صحبتك معي، فنجلس معا تحت تمثاله، نتلو من أبحاثه عن الميكانيكا السماوية، والأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية.

كنت أود لو التقطُ صورة جوار قاعدة تمثاله، وأنا أشير إلى جملة «كبشر، نسعد بوجود شخص كهذا زين وجود الجنس البشري»، المنقوشة على الرخام هناك.

لكن يا عزيزتي، لو سافرتُ، ماذا سيحدث إن جاء أحد من تلامذتي يسألني عن معلومة فيزيائية ما ولم يجدني؟ ماذا لو احتاجني ابني دُر كي أجالس ابنيه الصغيرين في أثناء غيابه؟

ماذا لو كففت عن التعثر في الحفرة أمام خمارة مستباح، فلم يفكر في ردمها أبدا؟

إشراق.. ماذا لو سافرتُ، ولم يشتق لي أحد؟ ولم يدر أحد برحيلي أو موتي؟

ماذا لو لم أسافر، وظل المدرسون يتحججون بانشغالهم ويغلقون عليهم حجرة المدرسين دوني، ويضحكون؟

ماذا لو رفضت عاملات النظافة أن يعددن لي شايا، وطالبن بثمنه، مما يدعين أنني أختزنه في حشية سريري؟ ماذا لو جلست أشربه وحدي، مختبئا من أعين الشامتين خلف دورات المياه؟

لم تؤلمني سقطتي اليوم في حفرة مستباح، بقدر ما آلمني أن أحدا لم يلحظ سقطتي. الجميع يحملقون في ما تعرضه عدساتهم الإلكترونية.. يهمسون في سماعات آذانهم الدقيقة، يتعثرون في جسدي فلا يعتذرون.

أعتقد أنك تأكدتِ الآن من صدق ما كنت أقوله.. قوانين نيوتن هي الحق الوحيد في هذا العالم. لا يستأهل أحد إلا أن يعامَل الند بالند.. الفعل برد فعل مساو له في القوة. لا تضحيات، لا حب من طرف واحد، لا شيء بلا مقابل.

الحق يا إشراق أقول، لا أعتقد أنني سأسافر. أخشى أن تؤثر في ثباتي



على مساري قوة أعظم، فلا أستطيع التعامل معها أو العودة لِما كنت عليه.
الاستمرار في الماضي هو الأمان، الارتكان إلى قوانين لن تتغير هو ما يمنحني الحياة ليوم آخر.

تحياتي واحترامي
أستاذك: بحر

* * *

لا أعرف هل هذا هو تأثير الراحة لأسبوعين متتاليين، أم أنها ـ كما يقولون ـ صحوة الموت. أشعر اليوم بخفة غريبة في صعودي الدرج، وفي سيري في الشوارع. على الرغم من أن حالة تنفسي لم تتحسن، فإن تحسنا ملحوظا يسري في عضلاتي ومفاصلي.

أشرع في ترتيب مكتبي، الذي هو منضدة السفرة في صدر الصالة. لم يتبق إلا ثلاثة كراسي من أصل ثمانية، وكرسي أطفال بلاستيك مكسور. أذكر تجمعنا هنا حول سفرة جدي العامرة. يوزع أنصبة اللحوم على الأحفاد، وكنت أنا الأصغر. ربما لذلك كان نصيبي الأقل دوما.

أفرغ صندوق الوسائل التوضيحية، أعلق دلو نيوتن بحيث يتدلى من حامل الثريا، والتي بالطبع حل محلها مصباح عادي أبيض الإضاءة، ملوث بمخلفات الحشرات.

أضع الأنبوب والكرة داخله، أضغط زر التشغيل فيندفع الهواء من أسفل، موازنا الكرة في المنتصف، معلقة في الهواء، لا تطول سماء ولا أرضا.

كدت أقوم وأكمل إفراغ الصندوق، لولا أنني لاحظت أن الكرة تسبح في النصف العلوي من الأنبوب، وقد ابتعدت قليلا عن المنتصف، حيث يجب أن تكون.

أراجع مقدار ضخ الهواء، فأجده مناسبا لجعل الكرة معلقة في المنتصف، لا أكثر ولا أقل. أقلل من اندفاع الهواء قليلا فتستقر الكرة في المنتصف.

أمسك قلما وأضع علامة على مكانها الحالي. ثم أفرغ باقي المحتويات تباعا، محاذرا ألا تتهشم علب الطبشور الطبي الملون.

يخطر لي أن أهاتف ابني دُر. أبحث عن رقمه وأضغط زر الاتصال. لا يرد. أبحث عن عدستي الإلكترونية، فأنا لا أستخدمها إطلاقا، وإن كانت أحيانا هي الوسيلة الوحيدة لإيجاد البشر هذه الأيام.

تبدو لي مثل عدسة تصحيح الإبصار الصلبة، لكنها أكثر سمكا وأكبر. أخلع نظارتي الطبية وألصق وجهي في مرآة الحمام، كي أرى عيني والعدسة اللعينة. كلما قربتها من قرنيتي، أطرف، فتسقط في الحوض.

تغرق الدموع عينيّ وأنا أحاول المرة تلو الأخرى. الأسهل أن أذهب إليه وأقابله وجها لوجه.

لكنني أخشى أن يأخذه الترحاب بي عن عمله وأولاده.

ها قد ثبتت العدسة اللعينة، الإحساس بعدم القدرة على فتح عيني وبها هذا الشيء. أرى شاشة التحميل مباشرة أمام عينيّ. أضع سماعة الأذن وأهمس:

- دُر.. اتصال...

أجول في الشقة حتى يتم الاتصال. أقف أمام دلو نيوتن ألفه حول محوره في شرود. ربما أملأه بالماء بعد قليل، وأجري التجربة مرة بعد مرة بعد مرة، حتى يهزمني النوم.

- آلو.. أبي..

- دُر.. كيف حالك؟

أرى صورته بعد أن فتح الكاميرا المستقلة، التي ترفق مع العدسة لتتيح اتصالا مرئيا. أراه، لكنه - كالعادة - لا يراني.

- بخير.. أشعر بتحسن.. كيف حال ولديك؟



ـ بخير...

ـ أراهما خلفك.. نادهما أسلم عليهما...

ـ هما مشغولان قليلا الآن. سأجعلهما يتصلان بك لاحقا. هل تريد شيئا يا أبي؟

ـ ما.. ما رأيك أن تحضر الولدين ليبيتا معي في عطلة نهاية الأسبوع؟

ـ أبي.. أعتقد...

ـ أو آتي أنا؟

ـ لقد.. تكلمنا في هذا الموضوع من قبل...

لقد تكلمنا، تشاجرنا، ضربته فضربني.. هذا عادل بما يكفي.

ـ سأسافر يا دُر..

ـ إلى قبر نيوتن؟

ـ أجل

ـ حسنا

أخلع العدسة المقيته عن عيني وأجلس. تدمع عيناي بشدة، بفعل العدسة لا أكثر. فلمَ عساي أبكي؟ لم يوقف الدمع إلا رؤيتي للكرة المعلقة تنخفض تحت المستوى الذي حددته لها، لتستقر في منتصف النصف السفلي للأنبوب.

راجعت الوصلات الكهربية ومستوى تدفق الهواء، ولم أجد سببا للخلل. سيظل ما حدث، على تفاهته، مصدر تكدير حياتي لساعات مقبلة، وربما لأيام، حتى أعرف تفسيرا.

* * *



عزيزي الأستاذ بحر:

أعتذر عن استخدام الرسائل الإلكترونية في مراسلتك، فلطالما عرفت أنك تكره استخدام الوسائط الحديثة، لكنني أعلم أيضا أنك تغفر لي اضطراري إلى ذلك.

منذ فترة، قالت لي زميلاتي إن هناك عدسات خاصة تباع، تتيح للجميع استخدام الإنترنت بلا حاسوب أو هاتف محمول.

قلن إن عليّ أن أشتري واحدة تنسيني ما فعلته بي. يقول ألبير كامو إن المسألة الفلسفية الأهم على الإطلاق هي الانتحار.

يمكنك أن تستكشف من حولك، تحب، تكره، تبكي.. لكن يظل السؤال الأوقع، هل تستحق الحياة أن تعاش؟ هل ألمي لفراق أبي وهم؟ هل أبي وهم؟ هل الحياة وهم؟

اشتريت أنت لي - على رغم كرهك للفكرة - عدسة، ربما كانت هدية أخيرة، ربما كانت اعتذارا، ربما كانت بابا خلفيا تهرب أنت منه وتتهرب من مسؤولياتك تجاهي. كان أول ما بحثتُ عنه على الإنترنت هو: السبل الأكثر إيلاما للانتحار. فلو كنت ستموت بأيه حال، فلمَ تبدو جبانا وتبحث عن مخرج سهل من هذه الحياة؟ لمَ لا تخرج منها ممزقا داميا كجنين مجهض؟ لمَ لا تنهي كل الألم مرة واحدة فتسد باب عودته للأبد؟

لن أكرر مأساتي وأحاول الخلاص من حياتي بطريقة تمكن الآخرين من انتزاعي من طريقي أحادي الاتجاه.

لقد انتزعتني يا سيدي وقد كان هذا هو ذنبك الأول والأخير تجاهي. لكنني أسامحك الآن بعد أن عدت بفضلك إلى رشدي، وإن لم أعد إلى حياتي بعد.

هل تعلم يا سيدي أن ٩٦٪ من محاولات الانتحار تفشل؟ يقولون إنك لو انتحرت ستذهب للجحيم، لكنهم يغفلون إضافة عبارة «ولو فشلت في الانتحار ستذهب للجحيم أيضا»، في نهاية موعظتهم البائسة.

قبل معرفتي بك عن قرب، وبعد فراق أبي، ظننت أن قطع شراييني



سيتكفل بالغرض، وهو الموت السريع مع ترك صورة قاسية لأمي، وأنا أرقد وسط زهرة حمراء وقد ابيض جسدي كالشمع.

لم أكن أعلم أنك على الجانب الآخر من الشارع تراني من النافذة، لم أكن أعلم أنك كنت مريضا لدرجة لم تمكنك من المجيء شخصيا لإنقاذي، وبدلا من ذلك اتصلت بالشرطة.

جاءت الشرطة واقتحمت الشقة. حملوني إلى المشفى ومنه ـ كما ينص القانون ـ إلى المصحة النفسية.

لسبب لا أعلمه، طلبت أنت زيارتي. قابلتك.. صمتُ وتحدثت أنت. بحر، معلم فيزياء، منقذي. ثم رقم هاتفك تدعوني للاتصال بك إن أردت فور انتهاء إعادة تأهيلي.

لا أدري لمَ أسترجع تلك الأيام الآن. ربما لأن لا شيء يحدث في محيط حجرة مترين في مترين، هي عالمي الإجباري منذ أعوام، فمضطرة أنا للحديث عن الماضي، وإعادة الحديث عن الماضي، ثم الاستمرار في الحديث عن الماضي.

تمنيت أن تراني أمي ميتة يوما، فتراني الآن ميتة كل يوم، عقل بلا جسد.. رد فعل لفعل زال وانمحى.

حين أبقى وحيدة في الليل، أفكر كيف أنني حين بخعت نفسي في المرة الأولى، لم يكن ذلك حزنا على فراق أبي، ولا عقوبة قاسية للمتسببة في رحيله، بل لأنني فقدت الهدف من حياتي. فقدت القوانين التي أدور في فلكها، وأنت يا سيدي أعلم بسطوة القوانين ومأمن الحياة في ظلها.

لكن خلال فترة معرفتي اللصيقة بك، وجدت فلسفتي في الحياة. أعلم أيضا أنك تكره الفلسفة، وتعتبرها فن تمييع القوانين. لكنني متأكدة أنك ستحترم فلسفتي حين تعرفها، كما احترمت فيزياءك حين عرفتها.

أتمنى أن تكتب لي ولو مرة واحدة كما تعودنا في السابق.

احترامي لك

تلميذتك إشراق

* * *



أقوم لتوي من حفرة مستباح، أستند على كيس الخبز الذي دخلته المياه المنحبسة داخل الحفرة. لقد عاد الرغيفان إلى أصلهما الأول.. إلى عجين.

أدفع باب الخمارة الخشب، المتشقق بفعل حرارة الشمس صيفا والأمطار شتاء، لأجد المكان يعج بالبشر. أصوات همهماتهم تملأ الفراغ بين جزيئات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، فتحوله إلى غاز مجهول الاسم عطن الرائحة، مظلم وثقيل.

يراني مستباح. يمسح يديه في مريولته. يمسح المناضد بمريولته. يلمع الكؤوس والأكواب بها. ثم يرفع عينيه نحوي للمرة الثانية، كأنه يتحقق من أن ما رآه في نظرته الأولى ليس وهما.

ـ بحر! أنرت المكان

ـ مستباح

أضع كيس العجين بالردة على الكاونتر أمامه. أخلع سترتي المبتلة بالطين وأضعها جوار الكيس، فينظر لهما في جزع ويحاول الاعتذار للمرة الثلاثمئة بعد المليون الثاني.

ـ أعتذر لك بشدة.. اجلس.. سوف أنظف لك السترة وأجففها في ثوان.

أجلس فيضع أمامي كوبا من مشروب غير كحولي، ويجذب السترة، يمسح ما عليها من طين بطرف مريولته، ثم يجد أن المسح لن يجدي نفعا، فيدير ظهره المحني هِرما لي، ويفتح الماء على السترة في الحوض المعدن خلفه.

حولي، أرى شابا ينظر في الفراغ أمامه، يتابع شيئا ما يعرض في عدسته، وهو يحاول أن يجد كأسه أمامه من دون أن ينظر إليها. تصطدم كفه بالكأس

فتسقط متهشمة على الأرض.. لا أحد يبالي بتهشمها.

شابة تفتح الكاميرا الخارجية المرفقة بالعدسة، تضعها على المنضدة في مواجهتها، وتبدأ في عرض خلاعي لمن يشاهدها على الجانب الآخر من الكاميرا.. لا أحد يبالي بقلة حيائها.

رجل خمسيني يحملق في فراغ عدسته بهدوء، يبدأ في الهمهمة ثم تختنق الكلمات على شفتيه، يزرق وجهه، يزيل سماعة أذنه ويفك ربطة عنقه. تجحظ عيناه ويضرب بكفيه على المنضدة، يمسك بقلبه.. يسقط..لا أحد يبالي بوفاته.

بعد إشراق، كففت عن المبالاة بأحد، كما كف الجميع عن المبالاة بي. لا أشكو، فلا أجرؤ أن أشكو قانون نيوتن الثالث.

أشرب شرابي غير الكحولي، ثم أقرر أن أتأكد من موت الخمسيني، فقط تلح عليّ إنسانيتي المقيتة في التحرك، حين يتعلق الأمر بالموت والحياة. أركع جواره فيختل توازني، أجلس متربعا وأحاول أن أديره كي أستطيع تحسس النبض في رقبته.

دفعة صغيرة لكتفه جعلته يطفو أمامي في الهواء! يدور حول محوره فأرى عينيه الجاحظتين الملتهبتين كجمرتين تحدقان في وجهي، ثم يكمل استدارته ليواجه السقف. يدور ببطء حول محوره كمحطة فضاء.

أسمع مستباح يصيح من خلفي فأستدير. الرجل يسير نحوي فيطفو في حركته ذاهلا. الماء المتساقط من سترتي يطفو في الهواء أمام عينيّ.

ـ ما الذي يحدث؟

كهلان يطفوان في الهواء بينهما جثة، لا يبدو أن الآخرين قد أدركوا أن شيئا ما ليس على ما يرام. كل منهم يجلس ساكنا يحملق في عدسته، لم يتحرك أحد من سكونه حتى يدرك انعدام الجاذبية.

فجأة من دون مقدمات، نسقط ثلاثتنا أرضا، أتمسك في سقوطي

بملابس سيدة جالسة، فتمسك كفي القابضة على قميصها من دون أن تنظر لي، وتبعدها في اشمئزاز.

ـ بحر.. ما الذي يحدث؟
ـ لا.. لا أعرف...
ـ يبدو أن أحدا لم يشعر بشيء سوانا..
ـ لن تشعر بأمر كهذا إلا إذا تحركت، فالجسم ثابت ثابت ما لم تؤثر فيه قوة خارجية تغير من وضعه.. لو كنت تستمع حين كنت أحكي لك عن قوانيني، ما كنت لتسأل سؤال كهذا!

يقوم ماسحا عرقه في مريولته، يعصر السترة وينفضها فيتناثر الرذاذ عليّ وعلى من خلفي، لكن أحدا ـ كما قلت سابقا ـ لا يبالي برذاذ ماء من سترة عجوز.

كان مستباح مذعورا، لكنه يجيد إخفاء الذعر، خاصة الذعر الذي يجبره على التساؤل. والتساؤل بدوره يجبره على البحث عن الحقيقة، فلا توجد إجابات جاهزة في هذا الكون.

ـ فلتجد لنا يا مستباح خبرا عن ذلك الذي حدث في الراديو.
ـ راديو يا بحر؟ راديو! متى توقف الزمن بك تحديدا! لو كنت أملك واحدا لألقوا القبض عليّ بتهمة حيازة آثار.
ـ أنا أمتلك راديو ولم يلق أحد القبض عليّ.
ـ ما أقوله مجاز.. مبالغة.. آه، تذكرت.. أنت لا تؤمن بتلك الأشياء. الراديو الذي تمتلكه هو قطعة ديكور. لن تستقبل به أي شيء، لأنه ببساطة لم تعد هناك محطات للإذاعة في أي مكان في العالم!
ـ أعرف هذه الحقيقة.. أعرفها!



حقيقة مرة لم أستطع ابتلاعها ولن أستطيع أبدا. آخذ منه السترة في حنق وأخرج إلى النور، تاركا إياه يحملق في الرجل الملقى على الأرض. كان كل شيء في الشارع كما تركته حين دخلت، لم يبد لي أن هناك حيرة أو ذعرا عامًا. في الماضي، كنا نسمع عن حادث في أقصى العالم، فنخاف ونتعاطف.. نختلف.. نتشاجر.. نتقاتل.. تَعلن الحرب من أجل وجهة نظر، أو من أجل وأد وجهة نظر. ربما يقوم البشر على بعضهم فينهون الجنس البشري في ساعتين، يفجرون القنابل أو يحملون السيوف. أما الآن فلا شيء.. لا شيء مطلقا.. أفعال بلا ردود أفعال، انتهاك دائم لقانون علوي. تبا للجميع!

* * *

لم أدرك مدى الكارثة، إلا حين فتحت التلفاز على المحطة الوحيدة التي يبثها، ولا يبدو أن أحدا يتابعها سواي. لقد انعدمت الجاذبية الأرضية لمدة ست عشرة ثانية، أدت إلى حوادث اصطدام لا تحصى. لا يوجد تفسير علمي حتى الآن، ولا توجد معلومات كافية.

الغريب أن الخبر لا بد من أنه قد وصل إلى ما أمام شبكيات الجميع على الإنترنت، ولم يحرك أحد ساكنا! لم يهرع لأحد للاطمئنان على ذويه. لم يذهب أحد للاصطفاف في طابور للتبرع بالدم...

لم يتصل بي دُر حتى الآن.

عانيت حتى وضعت العدسة اللعينة داخل عيني، ربما اتصل وفوّتُ أنا اتصاله من دون أن أعلم.

لا توجد رسائل صوتية جديدة.

لا توجد اتصالات مفقودة.

البريد الوارد ١.

إشراق مرة أخرى

في المرة الأولى، قطعت شرايين معصميها. نجت، فحبسوها.

في المرة الثانية، ابتلعت كتابها الدراسي عن مبادئ الفلسفة، فحبسوها في المشفى مرة أخرى وشددوا عليها الحراسة.

في المرة الثالثة، نبشت بأسنانها أجزاء غير ظاهرة من جسدها وتركتها عرضة للتلوث، أعادوها للحياة وهي على حافة الهاوية. عزلوها مقيدة ببطانة مطاطية على أسنانها.

في المرة الرابعة، تعمدت عدم إفراغ مثانتها من البول للنهاية لعدة أسابيع، فأصيبت بالتهاب شديد لم يعرض حياتها للموت بالطبع، لكن ذلك كانت أقصى ما تمتلكه حينها للخلاص من الحياة.

لم أقرأ رسالتها، إلا أنني أجلس وأكتب إليها رسالة يدوية على الطريقة القديمة، ورقة وقلم، رسالة لن أرسلها أبدا، فأنا لا أعرف لها عنوانا. تحولت إشراق إلى معنى مطلق، بلا مكان محدد أو طبيعة مادية.

أنهيت الخطاب، وجلست أحدق في الكرة المعلقة في فراغ الأنبوب. تبدو لي حرة لا يمسكها شيء، إلا أنها مقيدة بفراغ أفقي، تتقاذفها قوى الدفع والجاذبية.

هنا خطر لي أن ما حدث للكرة من اختلاف في ارتفاعها، ربما كان ناتجا عن اختلال بسيط في الجاذبية. ربما كان شعوري المتكرر أنني أخف أو أقوى في فترات متقطعة سابقة، كان بداية لما يحدث الآن.

الأرض تفقد جاذبيتها تدريجيا! الموقف مرعب ولا بد من تكرار الظاهرة لأتأكد من تلك الفرضية. لكن ما أثار رعبي الحقيقي، هو أن أحد لا يعبأ على الإطلاق!

أحاول الاتصال بدُر لكنه يغلق الاتصال مرة تلو الأخرى. ربما كان مشغولا.. ربما هناك كارثة ألّمت به أو بأولاده بسبب ما حدث.

لا أجرؤ على الذهاب إليه بعد أن لفظني أكثر من مرة. لكن قلبي يحدثني بأن هناك شيئا ما خطيرا يحدث له. شيء يقف على مفترق الطرق بين الحياة والموت.



أخلع العدسة اللعينة، تدمع عيناي بشدة، لم يذكر أحد البكاء هنا، هي فقط ردة فعل من عينيّ الحساستين. أدس أدويتي في جيبي، مع زجاجة مياه معدنية ورغيف قديم أزلت الأجزاء المصابة منه بالعفن، وخرجت قاصدا ولدي.

* * *

يختلف الليل عن النهار كثيرا هنا. ليل طويل، شديد البرد والقسوة، وقد بدأ الثلج في التهادي من السماء الرمادية فوق الطرق والأشجار.

تقترب الساعة على الثانية بعد منتصف الليل، وما زلت أجلس على السور المقابل للبناية التي يقطن فيها دُر. تناولت آخر كبسولة في جيبي بعد أن تناولت اللقمة القديمة حادة الرائحة.

لم يخرج دُر من البناية ولم يعد لها. هناك احتمال كبير أنه في شقته سالم، فلأدعه ينعم بسلام يستحقه، ولأرحل.

لكن هناك احتمالا أكبر أنه لم يعد من عمله، ولم يعد أبناؤه من مدارسهم. أن يكون ممددا على طاولة تشريح في مشرحة، أو مقطع الأوصال تحت عربة نقل بضائع مقلوبة على طريق مقفر.

أقترب من المبنى وأتلصص على شقته في الدور الأرضي. هدوء عام لا يخلو من همسات هنا أو هناك. في الشرفة الخلفية، ملابس معلقة لتجف فتجمدت. أملس على قميص دُر. بارد، متصلب.

أعود إلى النافذة وألصق وجهي في زجاجها، أحيط وجهي بكفي منعا لانعكاس الضوء، فأرى دُر يحملق في الفراغ ويتحدث، يولي وجهه تجاهي فلا يراني.

صوت خطوات يتسلل من خلفي ثم يتوقف، ألتفت ولا أرى إلا الشارع الساكن والثلج المتكوم. أدير الأمر في عقلي وأقرر أن أرحل وقد اطمأننت على ولدي.

مع ابتعادي بضع خطوات عن النافذة، بدأت أشعر بخفة غير مألوفة. أتوقف، تتوقف ندف الثلج معلقة في الهواء. إن الأمر يحدث مرة أخرى!

تتسارع دقات قلبي ويضيق تنفسي ذعرا. بالطبع لن تطير الأشياء من تلقاء نفسها، ما لم يحركها أحدهم. لا مقياس لدي الآن غير كريات الثلج الصغيرة المعلقة أمامي.

لذهولي، بدأت أولا ندف الثلج في الصعود لأعلى، تبعها جسدي النحيف، فتمسكت بإفريز نافذة. السيارات المتراصة بدأت في الطفو وإن لم تبتعد إلا سنتيمترات قليلة عن الأرض.

الأمر إذن ليس فقدان للجاذبية فقط، هناك جاذبية أعلى تؤثر في الموجودات. ماذا يحدث؟

كعادتها، عادت الجاذبية لعملها فجأة مع صوت عال لارتطام الأجسام التي طفت على الأرض، صافرات الإنذار تنطلق من السيارات، فتطن الأصوات جميعها في أذني. أدور حول نفسي، أجيل ناظري في النوافذ والشرفات، فلا أجد أي تغيير، لا امرأة تطل برأسها متعجبة، لا طفل يصرخ في انبهار، لا رجل ينهر حريمه ليدخلن من الشرفة. لا أحد يبالي.

أدور حول المباني ثم أعود أدراجي إلى منزلي، لا يزعجني إلا الدموع المنهمرة من عينيّ، غالبا بسبب التهاب سببته لي العدسة الإلكترونية، متأكد من أنه مجرد التهاب. أخلع نظارتي لأمسح عينيّ فأسمع صوت الخطوات خلفي مرة أخرى. كل شيء يبدو لقصر نظري أجساما متخفية خلف أجسام غامضة. الكتلة السوداء هناك ربما كانت رجلا متربصا، أو كلبا ميتا، أو عربة آيس كريم.

أرتدي نظارتي على عجل وأتفقد المكان حولي، أكاد أقسم إن أحدهم اختبأ خلف الشجرة هناك. لكن من عساه يكون؟ وماذا يريد مني؟

* * *



عزيزي الأستاذ بحر:

يفضل الجميع هذه الأيام أن يتحدثوا عبر الرسائل الإلكترونية. تلك الرسائل تتيح لك إخفاء مشاعرك، تتيح لك التنصل من الرد، والتنصل من مسؤولية معرفتك بمحتواها.

بشكل أعم، تتيح لك أن تتظاهر بشيء وتصدق نفسك بقوة. كم مرة رأيت فيها رسائلي ولم تفتحها عمدا؟ سأتفهم لو فتحتها ولم ترد عليها، لكن عدم فتحك لها عذر لك تختبئ خلفه من مسؤوليتك تجاهي.

يمكنني أن أتصل بك هاتفيا، أن أرسل إليك من يحملك لي، لكن لا، أفضل أن أترك لك حبلا تشنق به نفسك يا عزيزي. ستصلكِ رسائلي مهما تظاهرت بأنها غير موجودة.

دعني أحكِ لك قصة...

هل سمعت عن قصة الفتاة الصغيرة منسية؟ فتاة كانت تظن نفسها ميتة، لا تعيش إلا في المقابر، ولا تصادق إلا ابنة دفّان. حتى ظهر ذلك الوسيم وبث فيها روحا، جذبها بكتلة تفوق كتلتها الضئيلة المهملة. كان شمسا وقد انجرفت نحوه بعيدا عن مدارها، فاحترقت. ماتت؟ كيف لميت أن يموت يا سيدي؟ لا.. عاشت وضاجعت الموتى.. توهمت أنها شمس تدور في فلكها الكواكب، حتى أدركت أنها تفقد كتلتها تدريجيا، والجاذبية يا سيدي مرتبطة بالكتلة وما تسببه من انبعاج في الزمكان كما علمتني.

منسية، ككل المنسيات، ظنت أن علاقة الحب بينها وبين رجل هي توازن في قوى الجذب والطرد المركزي، لكن ويا لحسرتها، اكتشفت بالطريقة الصعبة أن النصر دوما لصاحب الكتلة الأكبر.

مجتمع من المنسيات، حتما سيفنى في مجتمع أكبر متوحش في لحظات.

القانون السماوي الأول:

«ما يجعل المرء محبا لمن حوله هو الجاذبية. الجاذبية الإنسانية تعتمد على مقدار الكتلة النفسية للشخص. ينجذب ذوو الكتلة الأقل لذوي الكتلة الأكبر».



هل تفهم شيئا؟ بالطبع لا، فأنت لن تقرأ هذا الخطاب الإلكتروني، وإن كنت حتما ستراه، لكن لا يهم. ستعرف فحواه قريبا.

تلميذتك

إشراق

* * *

أملأ الدلو المعلق في السقف بحبل، وأديره حول محوره عدة مرات ثم أتركه.. يدور الحبل حول نفسه في الاتجاه المعاكس، ثم الدلو، ثم يدرك الماء متأخرا جدا أن هناك شيئا ما يحدث، فيدور في دوامه مقعرة، ذلك حتى يبدأ الحبل في الدوران في الاتجاه المعاكس، فيتبعه الدلو ثم يأتي دوران الماء متأخرا جدا كعادته، لينسكب قليلا خارج الدلو.

لا أدري سببا لشغفي بتجربة دلو نيوتن، ولا أعرف ما التأثير الذي تحدثه التجربة فيّ، لكنني أشعر بطمأنينة وأمان وأنا أكررها المرة تلو الأخرى. أكاد أسمع نيوتن يهمس لي «لا تخف، ستظل الأجسام خاضعة لقوانين أعلى لن تتغير أبدا، لا تقلق».

لكن كيف لا أقلق يا سيدي نيوتن، والجاذبية قد تمردت على قوانينك؟ كيف؟

قرعات خفيفة متواصلة على الباب جذبتني من شرودي. أرتدي الروب الصوف وأفتح شراعة الباب. فتاة تقل عن العشرين ربيعا تطل من الناحية الأخرى. شاحبة، تضع ضمادة على عنقها. عينها اليمنى حمراء كالدم. تبدو مصابة بذلك الالتهاب الشائع لدى الشباب، من فرط استخدام العدسات الإلكترونية.

ـ صباح الخير يا سيدي

ـ صباح الخير

ـ أستاذ بحر؟

ـ نعم.. كيف لي أن أساعدك؟

تبتسم كأنها ترى نجم سينما، تمسك بكفيها أسياخ الحديد التي تفصل بيني وبينها، كأنها تتشبث بأملها الأخير.

ـ أرجوك.. دعني أدخل
ـ ماذا تريدين؟ يمكنك أن تتحدثي من مكانك لو أردتِ.
ـ سأنتظرك في خمارة مستباح، لن أرحل حتى تأتي.

تتركني وتنزل الدرج في خفة وسرعة. يمكنني أن أتجاهلها وأتظاهر بأنها لم تأت. لكن ماذا لو.. لو أنها طالبة في المدرسة وتحتاج مني إجابة على مسألة فيزيائية ما؟
كان الإغراء أقوى مني. أتلحف سترتي التي جفت داخل الشقة، فتفوح منها رائحة عطن كئيبة. أنزل قاصدا الخمارة.

كانت هناك، جالسة، غريبة على جو المكان ووقاحة رواده. ذكرتني بإشراق، بفلسفتها، بعندها، بقوتها وضعفها المضفورين في شبابها.
أجلس قبالتها، أحاول أن أتبين أي شيء قد تخفيه ملامحها. دخان التبغ والأرجيلة لم ينجح أن يحجب عني اختلاج ركن فمها المستمر.
ـ كيف يمكنني أن أساعدك يا...
ـ اسمي روح. يمكنني أن أسأل السؤال بصيغة أخرى، كيف يمكنني أنا أن أساعدك؟
ـ لا أحتاج مساعدة، ولم أطلبها. يبدو أنك تقصدين شخصا آخر.
ـ لا.. أقصدك أنت.. معي عنوانك وصورة لك جوار حجر رخامي منقوش عليه «كبشر، نسعد بوجود شخص كهذا زين وجود الجنس البشري».

ـ تلك الكلمات منقوشة على قاعدة تمثال نيوتن، وأنا لم أذهب هناك من قبل.

ـ لا أعرف نيوتن.. لكنني أعرفك.

تخرج الصورة من حقيبتها وتناولها لي. صورة متقنة مصنوعة ببرنامج تعديل الصور. ليست المشكلة أن الصورة معها، المشكلة في محتوى الصورة التي لم أبح لأحد به من قبل.. تقريبا.

ـ كيف تتصورين أنك ستساعدينني؟

ـ وُلدت لأم وأب مكتفيين بما عندهما من أبناء. طيلة الوقت أنا عبء زائد على مواردهما وسنهما. منذ عام، اكتشفت علاقة أبي بامرأة أخرى، وعلاقة أمي برجل آخر. بشكل ما وجد كل منهما موارد تغطي نزواتهما.

أنا في وادٍ وإخوتي في واد، ووالدانا كل منهما في كوكب منفصل عن الجميع. لم يشعر أحد من إخوتي بالذنب كما شعرت به طيلة حياتي، بالتالي لم يُصدم أحد في ما فعله أبوانا ولم يتأثر أحد كما صُدمت أنا وتأثرت.

فقط شعرت أنني حُرمت حين مُنح الجميع، أدركت أن للإنسان موارد، يمنحها فقط لمن أحب، ولم أكن ممن أحبهم أحد.

هكذا، وجد أبي وقتا لعشيقة، ووجدت أمي صحة لرجل دخيل، فقط لأنهما أرادا ذلك، أعطيا لمن أحبا.

كنت أنا جسما ساكنا مستمرا في سكون أبدي بالنسبة إليهما، وكانا هما جسمين متحركين حركة دائمة، يظنان أن لن يقدر على إيقافهما أحد.

فكان أن وقفت يوما وسط شجار بينهما، نظرا لي غير مدركين من أين أتيت وكيف دخلت عليهما، كيف كسرت سكوني، كيف تجرأت...

ـ آنسة روح.. معذرة.. لا أعتقد أن في ما تقولينه شيئا يهمني، أو يجيب على تساؤلاتي التي بدورك لا تعرفينها.



تبتسم لي كأنني طفل يتعجل نهاية قصة ما قبل النوم، تنظر لمن حولنا وتهز رأسها. تحك عينها المحمرة ثم تستطرد:

- نظرت لكل منهما في عينيه فتجمدا مكانهما. طعنت رقبتي بقلم جاف في شريان حيوي ولم أجفل. كان همي أن يصيب كل منهما نفس القدر من دمي. وقد أصابهما. تحرك الجسم الساكن فلم يستطع أحد أن يوقفه عن حركته.

- لا أعرف ماذا أقول لك.. وضع بائس فعلا، لكنك لو مت، فستكونين أنت الخاسرة الوحيدة.

- من يعتبر التخلص من حياة كهذه خسارة؟ الخسارة الحقيقة هي الحياة التي أحياها الآن. لقد تم إنقاذي وحبسي وإعادة تأهيلي. التأم الجرح تماما لكنني ما زلت أضع عليه ضمادة. هي تغنيني عن إجابة أي سؤال من أبويّ. أصبح النظر في وجهي بالنسبة إليهما عذابا. وصلت رسالتي، والآن أشعر بالسلام.

- حسنا.. هنيئا لك.

يشتعل غضبي، فما لي أنا بتلك المشكلات؟ ما دخلي أو صلتي بكل هذا؟

أقوم فأتعثر في مقعدي العالي. أسقط على كوعي فأنفجر ألما. معتاد أنا على السقوط وحدي، لكني اليوم وجدت روح تهرع خلفي وتساعدني على القيام. تنظر إلى الجالسين الغائبين في وعيهم الخاص وتتعجب.

- لقد كنت مثلهم، لكنني شفيت.. قم يا سيدي. هل أوصلك لمنزلك؟

- أنا بخير.

أشير بناظري نحو عينها الحمراء وأهمس:

- يبدو لي شفاء إجباريا.. التهاب مؤلم هه؟
- أنت أعلم مني بحقيقة أن الجسم الثابت سيظل ثابتا ما لم تؤثر فيه قوة محصلة تغير من ثباته.. ربما كان الالتهاب هو تغيير قسري لثباتي.
- قانون نيوتن.
- لا أعرف نيوتن.. لكنني أعرفك.

بدأت تلك الفتاة تعجبني، وإن كانت تتحدث عن الفيزياء كفلسفة، وهو شيء يثير عدائيتي بشكل ما.
- ومن أين تعرفينني يا روح؟
- من قوانينك الثلاث الخاصة بالجاذبية يا سيدي.
- نيوتن هو من وضع قوانين الجاذبية، أنا فقط تلميذ غير مباشر له.
- لا يهم من وضع تلك القوانين، لكنها موجودة وتطبق علينا يوميا، من دون أن ندرك وجودها. فقط نتساءل عما حدث إذا فقد أحد تلك القوانين مصداقيته، أو خرج عما هو مألوف حياله.

تلفتُّ حولي واقتربت منها، فابتعدت قليلا نافرة من رائحة العطن المنبعثة من سترتي.

- هل.. هل تقصدين موضوع خلل الجاذبية؟
- بالطبع.. هناك خلل رهيب في الجاذبية، لكننا قد لا ندركه ما لم يتفاقم ويصبح جليا للعيان.

أعتقد أن الحماس بدا عليّ أخيرا، أرى ذلك في ابتسامتها واعتدالها في جلستها لوضع يشي بطول الحديث المقبل.



ـ هل شعرتِ بالمرتين حينما فقدت الأرض جاذبيتها؟ كانت هناك مرات سابقة عدة قلّت فيها الجاذبية بشكل غير ملحوظ، وقد رصدتها أنا بالصدفة.

ـ لا أعرف عن ماذا تتحدث يا سيدي. هناك فقدان تدريجي في الجاذبية منذ عقود، لكن أحدا لا يراه إلا حينما يمسه الموضوع بشكل شخصي.

ـ أتعنين أنني الوحيد الذي شعر بفقدان الجاذبية؟ لقد شعر مستباح صاحب الخمارة بذلك أيضا.

ـ كيف؟ فقدان الجاذبية أمر شخصي. لكن لا أعتقد أن هناك ما يمنع من أن يخبره شخصان في نفس الوقت. أعتقد أن والديّ، في لحظة من لحظات حياتهما معا، شعرا بفقد جاذبية كل منهما للآخر في نفس الوقت. أعتقد أنهما فقط لم يعرفا وصفا دقيقا لما مرا به، أما أنا فأعرف أنه فقدان صريح للجاذبية.

هذه المرة أنجح في أن أهبط من على كرسيّ في سلام، حانقا محتقن الوجه من فتاة تتلاعب بي ولا أدري لأي سبب. أمد كفي المرتعشة أمامي وأشرع في العد على أصابعي، وأنا أكاد أفقد وعيي.

ـ لحظة واحدة.. نيوتن هو من وضع قوانين الجاذبية ولست أنا. قوانين الجاذبية تسري على الأجسام المادية.. ما تهذين به هو خليط من برنامج مشكلات المراهقين مع فلسفة غير متزنة، فقدان الجاذبية الذي أتحدث عنه هو فقدان حقيقي.. الموجودات تطير، تطفو.. بل إن هناك جاذبية ما تجذب الأشياء لأعلى.. وكل ما أقوله يا فتاة بعيد تماما عما تقولينه أنت.

ـ لا أعرف لمَ العصبية.

ـ وأنا لا أعرف لمَ البرود! هيا.. قومي.. ارحلي من هنا.. سئمت مقالبكم الطفولية. في الماضي كان التلاميذ يلصقون ذيلا من الورق على طرف سترتي من الخلف، اليوم خدعتكم تشمل صورا ملفقة وحديث عن.. عن.. لا أعرف عم تتحدثين بالضبط، ولا أريد سماع المزيد.

أدفع باب الخمارة، يلحقني مستباح وقد فاحت من فمه رائحة الخمر. أرده إلى الداخل وأخرج، أتعثر في الحفرة فأقوم سريعا. أشعر بكف روح على كتفي فأهزها عسى أن تنفض أصابعها عني. أسمعها تقول بصوت عال وأنا أبتعد، فأتظاهر بعدم الاهتمام..

ـ تذكر، كل شيء يبدأ في البيت.. تلك إجابة سؤالك.

أنا أعرف أن ما يحدث للجاذبية يحدث بالفعل، وهي جريمة بكل المقاييس، لكن لأي غرض تزيف تلك الفتاة الحقائق، وحتى متى يظل الغافلون غافلين عما يحدث حولهم؟

* * *

عزيزتي إشراق:

لن أضعف، ولن أهتز.. على رغم تأكدي من أن هناك من يتعقبني دوما، ومن أن الهمسات تتعالى عني وعن عصبيتي، لكنني أبدا لن أغير موقفي.

أسير في الشوارع فأجد الحكومة تثبت قضبانا على الحوائط، لتعين الناس وقت انعدام الجاذبية. تم تسقيف أغلب الشوارع العامة بينما اكتفى ساكنو الشوارع الجانبية بالتشبث بالأشجار وعمدان الإضاءة وحبال الغسيل، وقت الانعدام.

وزعت على الميادين مؤشرات إلكترونية تنذر الناس بقرب فقدان الجاذبية. ذات المؤشرات تظهر على الجانب العلوي الأيسر من كل صفحات الإنترنت.

تظل مشكلة الكلاب والقطط الضالة التي تهوى فوق رؤوسنا حين عودة الجاذبية. شركات من الشرق بدأت في تصنيع أثاث يثبت في السقف، لأنه كما يقولون، فترة فقدان الجاذبية أو انقلاب مصدرها في زيادة مستمرة.

ما يثير ذعري يا إشراق، أن الناس حقا لا تبالي.. تتأقلم وتجد حلولا ولا تسأل إطلاقا عن السبب! يبدون مشغولين بأشياء أكثر أهمية من خرق قانون علوي مقدس كهذا.



هناك شيء غير منطقي في ما يحدث. هل اهتم أحد بشأن فقدان الغلاف الجوي إذا استمر انعدام الجاذبية لفترات أطول؟ ماذا لو انهارت الأرض وفقدت تماسكها فانفجرت في الفضاء؟ هل سيسعى أحد لجمع شتاتها؟

أخاف من التفكير في ما سيحدث.

* * *

أحبس نفسي في بيتي، أجري تجربة دلو نيوتن مرة تلو الأخرى، ولا أنفك أنظر إلى الكرة المعلقة في الأنبوب بين السماء والأرض.

لم أجد مفرا من تثبيت أثاث منزلي إلى الأرضية الخشب القديمة، مستخدما غراء قويا. كنت أفعل هذا صباحا، ولفت انتباهي أن باب الشقة مفتوح، بل وأسمع صوت خطوات تتجه خارجة إلى السلم.

أهرع نحو مصدر الصوت، فأرى شابا يجري خارجا من باب العمارة. أنزل خلفه بأقصى سرعة تتحملها صحتي. أرى مستباح واقفا أمام خمارته يرمق السماء، أناديه فينظر لي فزعا كأنما أيقظته من حلم.

ـ مستباح، أمسك هذا الشاب!

ـ ماذا فعل لك؟

ينظر الشاب خلفه ليتأكد أن لا أحد يلاحقه بجدية. يرفع بنطاله ليستر ماركة ملابسه الداخلية، ثم يلقي بنفسه داخل أوتوبيس مزدحم. يتمسك في الواقفين على الباب ويسدد نظرة طويلة نحوي، كأنما يتعمد أن أرى وجهه. هو.. ذلك الفتى الذي حضر آخر تجاربي العملية في المدرسة.

ـ ماذا فعل لك الشاب يا بحر؟

ـ لقد.. تسلل إلى بيتي وفر هاربا.. أعرفه.. طالب في المدرسة التي أعمل... أ.. كنت أعمل بها، يدعى شِراع.



لا يزال مستباح يحملق في وجهي، كأنه ينتظر المزيد من التفسير. طيلة الستين عاما التي عرفت فيها مستباح، كان أكثر من عرفتهم كسلا عن التفكير والاستنتاج.

يمد مستباح كفه إلى كتفي، ويهم أن يقودني إلى داخل الخمارة. لم أر الرجل في ضوء الشمس منذ أعوام. شاب شعر رأسه وتحول لمعان بياضه إلى طيف من اللون البنفسجي الفريد. كفة مجعدة جافة، لا تكف عن الارتجاف على مفصل كتفي. ينحسر كم معطفه عن رسغه، فأرى خطا ورديا يتقاطع وشرايينه. خط لا ينتج إلا عن جرح مندمل.

أمسك بكفه وأتحسس الجرح بإصبعي، فيسحبها مستباح منزعجا، مشيحا وجهه عني. يتقدمني إلى الخمارة، ويدخل تاركا يدي ممتدة أمامي تقبض على الفراغ. يعود بعد ثوان ليفتح الباب من دون أن ينظر لي. دعوة صامته قبلتها بفم مطبق.

يحضر لي عصير الليمون بالنعناع كعادته، ثم يصب لنفسه كأسا عملاقة بلا ثلج أو ماء.

ـ تذكر جدنا يا بحر؟

ـ لا أذكر إلا باب حجرته المغلق في وجوهنا الصغيرة.. لا أذكر إلا قطع اللحم المدهنة الباقية في طبق التقديم، وتردده أن يعطيها لنا أو يلقيها لقطط الشارع.

ـ لقد كنت أنت المفضل لديه يا بحر.. في الوقت الذي كان يعلق لي لافته بدرجاتي الدراسية حول رقبتي، لا أنزل الشارع إلا بها كوصمة عار، كنت أنت تذاكر وتفلح.

ـ أنت الحالم يا مستباح، وأنا الكابوسي! كلانا يعيش في الوهم.

أمد يدي أجذب برفق كفيه، فينصاع كأنما يريدني أن أنبش جراحه وأنثر فيها الملح.



ـ متى حاولت الانتحار يا مستباح؟ ولمَ لم تخبرني؟

ـ لطالما كانت علاقتنا من النوع الذي تحبه، شمسان تدوران إحداهما حول الأخرى، إلى أن تلاقيهما كارثة.

ـ أردت فقط الحفاظ على خصوصيات وحريات كل منا. لم أرد أن تؤثر اختيارات كل منا في حياة الآخر.

ـ بل كنت تخشى أن تؤثر اختياراتي في حياتك. أن يؤثر حلمي في واقعيتك.. وقوانينك.

لا أملك الجرأة لأطالبه بتفسيرات لمحاولة انتحاره. هو الذي لم أتبادل معه حوارا كاملا مفهوما منذ طفولتنا. دائما ما يجذبني هو نحو المجاز وأجاهد أنا للتمسك بوضوح واقعي.

ـ فعلتها منذ أشهر يا بحر.. قبل أن أشهد معك أول فقدان حقيقي للجاذبية. تناولت المهدئات مع زجاجة من الخمر، وكأن ذلك لم يكن كافيا، فحززت شراييني بسكين وجلست أرقب انسياب الروح مني في دفقات قانية، حتى غبت عن الوعي. عشرون ساعة مرت حتى فتحت عيني ووجدتني ما زلت هنا في نفس العالم اللعين!

ثالث شخص أقابله قد حاول الانتحار وفشل. لمَ يأبى الموت زيارتنا؟ هل فقدنا جاذبيتنا له؟ أم ببساطة لم تعد فينا روح؟

ـ بعد إجراءات إفاقتي وإسعافي، وجدوا أن انتحاري جاء نتيجة لهلاوس الخمر والمهدئات، لا عن رغبة أصيلة مني، فأطلقوا سراحي وعدت إلى الخمارة يومها. أمارس عملي كأن شيئا لم يكن، وكأن مستباح لم يختف من العالم ليوم كامل.



يسود صمت لبضع دقائق، يسحب على أثرها مستباح كفيه من كفيّ فلا أمانع. يخرج خطابا في ظرف أبيض صغير - مصنوع من مادة لم أتبينها - من تحت الكاونتر، ويعطيه لي.

- جاءك اليوم خطاب بعلم الوصول، لم تكن أنت بالمنزل فسألني عنك ساعي بريد لم أره من قبل، بدا لي غريبا بشعره المصبوغ بالبنفسجي. أدهشني وجود سعاة بريد في أيام انقرضت فيها المراسلة. وقّعت بدلا منك. أشفقت على الساعي من العودة مرة أخرى، فلم يكن في حوزته غير خطابك.

لا يحمل المظروف أي أختام أو عناوين، فقط الراسل يدعى يناير. اسم عجيب. أعتزم أن أفتحه حين وصولي للمنزل، أما الآن فما يهمني هو مواساة مستباح، من دون أن أشعره بالشفقة.

- لن تفتح الخطاب يا بحر، أليس كذلك؟ تكره أنت علم الوصول، ومسؤولية القراءة والرد وقبول أن حياتك لم تعد كسابقها بعد فتح الخطابات. الخطابات تحمل في طياتها أسئلة تطالب برد، وإجابات تطالب بالاقتناع، وشوقا لا تملك رده.. أو رفضه.

- كفى حديثا ملتفا.. أنا لا أهرب من مسؤولياتي.

أفتح الخطاب في تحد، وأنا أنظر إلى عينيه المحمرّتين من تأثير السكر الدائم، فيتمزق طرفه. كان الخطاب مكتوبا على ورق يدوي الصنع بخط نضيد مغرٍ، ومعه رسم يدوي لشيء لم أعط له انتباها.

«السيد بحر:

استقبلت رسالتك الهابطة إليّ من السماء على قطعة خشب وجدتها، صنعت من قطعة الخشب دفة سفينتي، لكنني لم أنزل السفينة إلى البحر بعد. أحملق في ما كتبته لي وفي كيفيه وصوله، فلا أجد تفسيرا.



الجميع حولي يلومونني على كل شيء، فأنا البادئ لكل الشرور والمخلف لكل الوعود. اعتدت نوعا على تلك الحياة، لكنها المرة الأولى التي أستقبل فيها خطابا كخطابك وشكوى كشكواك..

أما عن سؤالك فأقتبس من رسالتك:

...هل نفقد كتلتنا فتفقد جاذبيتنا؟ لمَ لا ينفلت الغلاف الجوي من حولنا فنختنق كل على جزيرته الخاصة؟ لمَ يأبانا الموت؟...

تتحدث أنت عن فقدان الجاذبية كحقيقة فيزيائية، فلا ترى إمكانيات المجاز اللامحدودة فيها. تكتب خطابا تلومني فيه ولا تلوم نفسك. أنت لا تدور إلا في ذات الدوائر التي حفرتها قدماك جيئة وذهابا طيلة الستّين عاما الماضية.»

أكوّر الخطاب في كفي وأنا لم أنته منه بعد، وقد احتقنت شرايين رقبتي. واحد آخر يتهمني بشيء لم أفعله! من استأجر هؤلاء الناس كي ينفذوا تلك الدعابة ثقيلة الدم؟

ـ ماذا حدث يا بحر؟ مِمَن هذا الخطاب؟

ـ لا أحد.. خطأ في العنوان.. أو الاسم.. أو في كليهما.

ـ لا يوجد سواك «بحر» في هذا العالم، كما أنه لا مستباح غيري! الخطأ في الاسم غير وارد.

ـ إذن هي دعابة.

كون الاسم لا يتكرر مرتين، كما لا تتكرر البصمة مرتين في العالم، يدحض نظرية أن هؤلاء القوم يقصدون شخصا آخر له ذات اسمي. لن أستطيع التملص من مسؤوليتي تجاه معرفتهم بي. الحقيقة أن هؤلاء الناس يعرفون ما يدور في نفسي أكثر مني.. يعرفون إجابات عن أسئلة لم أطرحها بعد.

شخص ما يقف خلفي، يحجب عني نور الشمس الشاحب القادم

من الواجهة الزجاجية للخمارة. ألتفت لأجده الشخص الذي سقط يوم فقدان الجاذبية الأول وظننته ميتا. عينه اليمنى ملتهبة لكن صحته ممتازة.

ـ أستاذ بحر.. أشكرك على إنقاذي.

ـ العفو.. بالفعل أنا لم أفعل شيئا. لقد حاولت إنقاذك لكن انتهى بي الأمر تاركا إياك ملقى على الأرض، وقد نسيت كل شيء عنك. اشكر مستباح.

ـ بالعكس يا سيدي.. لقد أنقذت حياتي بعد أن كدت أفقدها.

أخرج الرجل من جيبه صورة فوتوغرافية لي جوار قبر نيوتن، قربها مني وهمس في أذني:

ـ كما طلبت مني.. ها أنا أنفذ شرطك، وأشكرك على حياتي الجديدة.

ـ من أين حصلت على هذه الصورة؟

ـ أنت أرسلتها لي فطبعتها بناء على توصيتك.. وها أنا قد جئت أجيب على سؤالك...

ـ لكنني لم أسألك عن شيء!

وقفت لا أدري ما التصرف المثالي. أحاول جمع أطراف المعادلة بأسرع ما يمكنني. شخص بعين ملتهبة وصورة لي مع قبر نيتون الذي لم أزره في حياتي، يزعم أن لي عنده إجابة على سؤال لم أسأله!

ـ معذرة.. هل.. هل حاولت الانتحار من فترة قريبة؟

ـ بالطبع يا سيد بحر.. وتم إنقاذي، لكنني لم أجد طريقي إلا بعد أن تعرفت على قوانينك السماوية.

أتماسك لأشتري منه. أمنع كفيّ من الارتجاف. أمنع نفسي من لكم



مستباح الذي استند على الكاونتر بكوعيه، وشرع يرشف مشروبه ويشاهد حوارنا، مستمتعا بشكل مرضيّ كأنه يشمت بي!

ـ إج.. إجلس يا.. لم تقل لي ما اسمك...

ـ ناجي.. اسمي ناجي.

ـ حسنا.. هلا حكيت لي حكايتك من البداية.. فـ.. فكما تعلم.. أنت مدين لي بحياتك.

ـ بالطبع يا سيدي. لدي ابن شاب، ربيته وحدي من دون أمّ له، بعد أن تخلت عنا من أجل رجل آخر. لن تعرف يا سيدي ما حرمت نفسي منه من أجله. لم أدخل النساء حياتي كي لا يفسدن التوازن بيني وبين ابني. كل ما كان يحتاجه هذا التوازن كي يختل، هو ريشة. كان متمردا في حين قتلت أنا كل تمرد لي منذ طفولتي. كان حالما في حين استمددت أنا قوتي على تربيته من ثباتي على أرض الواقع. كان كل ما لم أكنه يوما! لقد سلكت دربي حتى نهايته يا سيد بحر، وأعرف الوهدات والحفر التي ربما يتعثر فيها ابني. أعرف ما يجب عليه أن يفعله والأخطاء التي عليه تفاديها. ما جدوى أن يتعثر في ذات مواضع خطواتي؟ كل ما حاولت أن أفعله، هو أن أرشده إلى طريق سهل قريب.

بدا لي الرجل كمتهم في قفص المحاكمة، لا يحكي لي قدر ما يبرر أخطاءه. وهم أن حيوات الأبناء مجرد امتداد لحيوات الآباء.. تناسخ مشروع.. أب يعش حياته في جسد الابن.. إحلال بلا توقف.. ولا أحد يسأل: متى يعيش كل منا حياته الخاصة وينتهي حين يموت؟

لم يعترف لي بهذه الحقيقة صراحة، لكنني أعلم منه بها بشكل ما.

ـ يوم أن قرر أن يشق طريقة بعيدا عني، يتزوج مبكرا ويسافر، يكتشف العالم ويقع في حب امرأة تكرر معه مأساتي، وقفت أمام الباب، مزقت ثيابه، صفعته، صفعني وبصق على وجهي. تخطى جسدي المسجى تحت قدميه وخرج بلا رجعة.



ـ هذا عدل كاف لي أردت رأيي.. قانون نيوتن الـ...

ـ لا أعرف نيوتن يا سيدي.. لكنني أعرف قوانينك.. القانون السماوي الثالث: «لتقليل الضرر الواقع من جاذبية الآخرين علينا، يجب ألا نحب، ولا نُحب.. علينا أن نتباعد قدر المستطاع، ليكتشف كل منا مقدار كتلته الحقيقية وتأثيره وتأثره». قد كنت مخطئا في حبي لابني من الأساس. هناك فرق بين الدور الذي وجب أن أؤديه لتربيته، وبين الحب.

أكاد أصفق إعجابا بذلك القانون السماوي الثالث، لولا أنه ليس من تأليفي فعليا ولم أسمع عنه من قبل. نظرت إلى مستباح بطرف عيني لأجده قد انشغل في تقديم المشروبات لزبائنه، ومسح الطاولات بمئزره. لا أستطيع أن أرفع عينيّ عن جرح يده الوردي، كأن مستباح قد استحال كله جرحا متصالبا مع شرايين.

ـ وكيف عرفتني يا سيد ناجي؟

ـ بعد رحيله.. شعرت كأن ما تبقى لي من عمر قد سرق مني للأبد.. لن أصحح في عمر ابني أخطائي.. بل.. بل إنه.. ربما.. ربما يفشل.. ويصبح تعسا.. مثلي.. وربما على عكسي.. ينجح ولا أشهد نجاحه.

يرتجف، وعيناه تزوغان في جنون. يسترجع لحظات ما قبل أن يغمض عينيه، متعشما أن يفتحهما في العالم الآخر. لقد انتظر أعواما في محاولات فاشلة لاسترجاع ما فقده. في محاولات أكثر فشلا لبناء جسور جديدة، فما كان منه إلا أن بنى مضمارا يرمح فيه بلا بداية لطريق أو نهاية، دائرة مفرغة آمنة أبدية.

ـ هناك لحظات معينة يا سيدي حين تصرخ «كفى». لا يوجد سبب محدد إلا تراكمات لم ترها إلا وقد صارت قوالب إسمنت تحيط بقدميك،



تكبلهما.. وقد كانت هذه هي اللحظة التي خلت فيها حياتي من أي سبب للعيش، فقررت أن أكسر الحلقة.

ربط ناجي حبلا في حامل ثريا قديم يتدلى من سقف بيته. وقف على كرسي بلاستيك ملون شهد طفولة ابنه. لف الحبل حول رقبته وركل الكرسي. اختناق دام ثانيتين أو ثلاثا ثم سقط على الأرض، وفوقه ردم من سقف لم يتحمل وزنه.

ـ شعرت بالثواني كأنها عمر ممتد لن ينتهي، وحين شهقت طالبا الهواء كان الكرسي مهشما تحتي، وعلى امتداد بصري كانت عدستي الإلكترونية.

كل من حولنا غارق في عالمه الافتراضي. نحن الوحيدان اللذان يمارسان فعلا آدميا منقرضا، وهو الحديث وجها لوجه مع شخص آخر.
حضر ناجي جلسات مخصصة للناجين من الانتحار على شبكة الإنترنت، وجد وصلة لموقع اسمه «بحر الحياة» مخصص لمساعدة من هم مثله.

ـ وجدت فيه كتابا مجاني التحميل، يساعد على النظر للحياة من منظور مختلف. يتحدى مؤلفه أن تعود حياتك كما كانت قبل أن تقرأه. كان ذلك هو اليوم الذي أصابتني فيه أول نوبه قلبيه.. اليوم الذي قابلتك فيه يا سيدي. في أثناء تحميل الكتاب شعرت بهلع غريب.. صداع يكاد يمزق رأسي، ثم أظلمت الدنيا.

حين أفاق، كانت عينه جمرة موقدة. منعه الطبيب من استخدام العدسة مرة أخرى، فنقل المعلومات المخزنة عليها إلى الحاسوب.

ـ كان أكثر ما يهمني هو قراءة الكتاب الذي حملته.. كتابك يا سيدي!

* * *



عزيزتي إشراق:

أذكر لك وقوفي صباحا أمام بوابة مدرستي.. المدرسة التي كنت أعمل بها أعني. يجلس حارس المدرسة خلف القضبان يرمقني كأنني أتكلم بلغة أعجمية. فقط يرفع عينيه نحوي بين الفينة والفينة، ليتأكد من كوني ما زلت واقفا، ثم يتشاغل بالعبث في هاتف محمول قديم متصل بالإنترنت.

ربما ظن أنني سأقف هنالك حتى تفنى الأرض ومن عليها، فدخل ونادى لي زميلا قديما يصغرني بعقدين.

سألني «ماذا تريد يا مستر بحر» فأخبرته أن لطفا «لا تمسترني».. وأنني أريد مقابلة أحد العاملين في شؤون الطلبة للسؤال عن عنوان طالب هنا.

سألني عن سبب سؤالي عن ذلك الطالب، فأجبته بأنه اقتحم بيتي أمس، وأريد عنوانا له كي أتحدث مع والديه.

نظراته يا إشراق كانت بمثابة صفعة على وجهي. الامتعاض وعدم التصديق يقطران من كل كلمة، كل التفاته، كل إشاحة بوجهه عني.

تركت تمسكي بقضبان البوابة ورحلت. جلست تحت شجرة على ناصية الشارع، وأخرجت إفطاري من جيبي، وزجاجة مياهي الصغيرة. سأنتظر شراع حين يخرج وأسير خلفه فأرى أين يسكن.

كدت أسقط في النوم أكثر من مرة، فأنا لم أذق قطرة منه ليلة أمس. تصوري يا إشراق أن أعود من الحانة لأجد أن شراع في تسلله إلى منزلي، قد رسم على أكبر حائط في صالة بيتي، دائرة عظيمة مليئة بالنقوش المتداخلة. «دائرة ماندالا» إن كنت تفهمين ما أعنيه، وأعتقد أن تلك الدوائر من اختصاص فلسفتك يا عزيزتي. أنت من أريتها لي في دفترك للرسم، وقلتِ إنها رسم ماورائي رمزي للكون...

* * *



أستاذي العزيز بحر:

...بينما الكون الذي تعرفه أنت يا سيدي مكون من المكان والزمان والجاذبية، فالماندالا هي الكون الحقيقي الذي نعيش فيه. هي العلاقة بين الفضاء الخارجي والفضاء الداخلي. هي ببساطة فيزياؤك كما تراها فلسفتي!

اعتدت كل صباح، قبل معرفتي بك، أن أرسم في دفتري الزهري ماندالا مختلفة كل يوم. دائرة مزخرفة صغيرة أدون من خلالها كل نقش حفرته الدقائق الفائتة في نفسي. تدريجيا اكتشفت أن دوائري الصغيرة هي ببساطة، أنا! اكتمال شخصيتي وانسجامها.

حين جلست جوارك على شاطئ البحر يومها، كنت تتظاهر بعدم الاكتراث لكلماتي، تتظاهر بأنك لا تختلس النظرات إلى رسمي ودوائري. كنت تخاف منها يا سيدي! فكيف يمكن لإشراق الصغيرة أن ترسم ما لا وجود ماديا له.

سالتني «وهل للشخصية شكل؟» أجبتك «بالتأكيد» سألتني «وكيف تبدو لك شخصيتي؟» قلت لك «ما أرسمه هو أنت.. وأنا.. وأي شخص تعرفه».

- وهل شخصيتي دوائر متداخلة ببوابات أربع؟

- كلنا ندور في ذات الدوائر يا سيدي.

لو كنت تؤمن بالحب يا أستاذي، لكنت أخبرتك أنني عشقتك. تجاذب الأضداد هو مفهوم أقرب للغتك.

صنعت مركبا ورقا صغيرا من دفتري، تطل من ثناياه منحنيات مندالتي الملونة، أودعته البحر فالتقمه الموج. جلسنا لدقائق نشاهد مركبي ترحل عكس التيار، إلى حيث لن نراها مرة أخرى، ثم افترقنا.

اليوم لا أقدر على الرسم ولا العشق. اليوم لا تمتلك إشراق ماندالا، لكنها راضية بالقوانين السماوية العليا.

* * *



أستيقظ في مجلسي تحت الشجرة، على تعثر الطلبة في جسدي. أقف فزعا وأدور حول نفسي. هل رحل شراع ولم أره؟

ألمحه في نهاية الشارع يبتعد، يمشي وحيدا خارج السرب، فأمدد خلفه الخطوات كي لا أفقده في الزحام.

محني الظهر، مهموم، يتوكأ على المساند المعدن المثبتة في جدران البيوت. أحذو حذوه، أتلمس مواضع يديه الدافئة على برودة المعدن. دقائق مرت وجدت نفسي فيها ما زلت خلفه، لكنني اقترب من شارعي. أرى خمارة مستباح تلوح لي، يعبر شراع من أمامها، يلقي نظرة داخلها ثم يدلف إلى العمارة الحديثة أمام منزلي. العمارة التي تسكن فيها إشراق!

لم تواتني الشجاعة أن أدخل خلفه، فأتوقف متجمدا في مكاني لدقائق. هل أنتظر حتى ينزل ثم أتبعه مرة أخرى؟ بفرض أنني عرفت مكان إقامته وقابلت والديه، أأقول لهما إن ابنكما تسلل إلى منزلي ورسم ماندالا عملاقة ورحل!

أعود إلى بيتي، أجلس أمام نافذتي وأراقب مدخل عمارة إشراق. أحاول أن لا تعود عيناي إلى نافذتها، إلى حيث سقطت مضرجة في دمائها. إشراق، أفتقدك.. أفتقد البنوة التي حرمني دُر منها، أفتقد فيكِ فلسفات مستباح المحرمة عليه، أفتقد إيمانك الذي فقدته في مكان ما ولم أعد أبحث عنه. أفتقد فيك معلمي نيوتن، أفتقد فيك البدايات الجديدة وصدق الوعود. أفتقد أول العام الجديد، حين ولدت على يديّ وحين قطعت العهود على نفسي ألا أكرر ما اقترفته في أعوام عمري الستين.

ملأت دلو نيوتن وعلقته، أدرته فتأخرت المياه كعادتها في اللحاق بدوران الحبل والدلو. عدت إلى نافذتي، فرأيت الفتاة روح تدخل ذات المبنى الذي دخله شراع منذ قليل ولم ينزل بعد!

هل عادت إشراق للسكن هنا؟ لحظة.. لا أذكر فعلا هل عرفت إشراق أولا ثم بسببي انتحرت، أم هي انتحرت وبسبب ذلك عرفتني؟ ومتى رحلت عن بيتها في الحالتين؟



لم افترضت أنها رحلت من الأساس؟ فالمنتحرون دوما يعودون إلى بيوتهم في وقت ما، السؤال هنا: هل أقدر على عبور الشارع والذهاب إليها؟

أتحسس رسم الماندالا على الحائط، يلوث أناملي الطبشور الملون الذي رسمت به. أرتدي سترتي وأنزل. هزة أرضية عنيفة أسقطتني جالسا على السلالم، تنهمر فوق رأسي ذخات من الرمال الناعمة من السقف.

أجلس على أولى سلمات المدخل أنتظر حتى تنتهي الهزة. طالت حتى بدأ الشارع في الإنشقاق أمامي وبدأ كل شيء متحرك في الطفو. دقات قلبي تتزايد، فهذا بالضبط ما كنت أخشاه، ففقدان الجاذبية سوف يؤدي يوما ما إلى تفتت الأرض وضياعها في الفضاء. شق طولي بعرض نصف المتر قسم الشارع طوليا، سقطت بداخله قطط صغيرة جرفتها حركتها مع انعدام الجاذبية، فسقطت في الهوة حين عودتها.

تنتهي الهزة مع انتهاء الطفو الجماعي. فوضى محدودة في الشارع نتيجة الإنذار المبكر الذي يراه على الجميع على عدساتهم. فقط أنا الوحيد الذي يتفاجأ في كل مرة.

أقف أمام الشق، أنظر فيه فلا أجد نهاية لظلامه. أتردد في عبوره، وفي عقلي ألف ذعر طفولي من يد مرعبة ستمتد من أسفل، وتجذبني إلى حيث سقطت القطط الصغيرة بلا رجعة.

* * *

أمام باب إشراق أقف. ضوضاء وهمهمات من الداخل لا أميزها. أطرق الباب مرة تلو الأخرى وأتمنى ألا يفتح أحد.

لدهشتي، أجد شراع يفتح الباب ويقف أمامي، بل ولا يبدي تعجبا من رؤيتي هنا، كأن البيت بيته، وكأن زيارتي أمر معتاد. ابتسامته السمجة تعلو شفتيه، وجسده النحيل يسد الفرجة الصغيرة التي فتحها من الباب.

- شراع؟ ماذا تفعل هنا؟
- لا تمتلك حق مطالبتك بإجابة على هذا السؤال يا سيدي.
- هذه شقة إشراق.. ما الذي يحدث هنا؟ هل تعرفها؟
- الكثيرون يعرفونها.. أنت نفسك تعرفها.
- نادِ لي أمها.
- لا يوجد أحد سواي.

يخرج لي ويترك الباب خلفه مواربا، يضع يداه حول خصره وينظر لي في ثبات.
- لمَ اقتحمت بيتي ورسمت تلك الماندالا على حائطي.
- أردت رسمها فرسمتها.. ربما أردتني أنت أن أرسمها.
- ربما أرادت إشراق أن ترسمها.. دعني أقابلها.

أدفعه بكل قوتي لأزيحه عن الباب، فيتمالك نفسه سريعا ويمسك بياقتي. تنقلب سحنته حتى يصير أقرب لكلب جريح ويتطاير لعابه على وجهي.
- أنت لن تقابل إشراق، ليس لك الحق في مقابلتها.. أنت لا تستحقها.. أنت السبب في كل ما يحدث لها وللعالم.

يجرني من ملابسي ويلصق وجهي في زجاج نافذة السلم. أرى الشق الأسود من أعلى كثعبان يسعى ممتد من المشرق إلى المغرب.

- هل ترى هذا؟ أنت السبب فيه.. مراهقتك الفكرية هي ما تسبب في كل شيء لكل شخص على وجه الأرض! أنت وقوانينك!

يتركني أنهار أرضا. أختنق في أنفاسي وأنا أراه يدخل من باب الشقة.

تطل روح، تنظر لي ولشراع في أسى. تهمس وهي تشير نحو بيتي، فأفهم ما تريد قوله من حركه شفاهها. «ألم أقل لك إن كل شيء بدأ في البيت؟»

أنفض التراب عن ملابسي وكرامتي وأنزل، أحاول أن أرى من خلال الباب المنفرج الذي نسوه أو تركوه مواربا عمدا، مصدر الضوضاء. أرى من يشبه ابني دُر في الداخل، يلمحني، يثبت عينيه في عينيّ ويبتسم. ينغلق الباب.

* * *

لمَ أرتجف؟ الجو بارد حقا. يناير ببرده وثلوجه كما لم أعرفه من قبل. بمناسبة يناير، معي خطاب منه شخصيا! خطاب لم أكمله، تماما كما لم أكمل شيء في حياتي من قبل.

أرتجف. من البرد أرتجف. من الخوف يا إشراق أرتجف. لمَ يجتمع كل هؤلاء في بيتك؟ ولأي شيء يخططون؟ لمَ يتنصل ابني من الرد على مكالماتي بينما هو هنا، في ذات شارعي، يفصلني عنه عبور شارع، وعبور شق عرضه نصف المتر فقط؟

لمَ نفقد الجاذبية حقا؟ لا أدري. يوما ما سوف يتوقف دلو نيوتن عن الدوران ولسوف تطفو المياه منه على هيئة كرة لطيفة حرة. يوما ما لن تكون هناك أفعال ولا ردود أفعال.

أمد يدي نحو عدستي الإلكترونية فلا أجدها. أقوم وما زالت الرجفة تأبى الرحيل عني، أبحث عنها، لا بد من أن أتصل بدُر، لا بد من تفسير.

أجد علبة صغيرة تحوي عدسة إلكترونية. ليست عدستي بالطبع وليست عدسة جديدة. سائل تنظيفها قارب على الانتهاء، وشحنها كذلك.

أقف أمام الحوض وتدمع عيناي. أحاول أن أركّب العدسة الغريبة بعد أن نظفتها مرة أخرى.

أوامر التشغيل تتهادى أمامي.. أهلا نيوتن!

اسم المستخدم المستعار نيوتن، اسم مالك العدسة.. بحر!



أعرف هذه العدسة جيدا، اشتريتها يوم اشتريت عدستي. كانت هديتي يوم قررت الافتراق عن إشراق.

علاقتنا بدأت بمحاولات للالتفاف حول الحب. الحب هو ما كان كلانا يهرب منه فانتهى بنا الأمر كل في حضن الآخر. أنا لا أعترف بوجود حب، وإن وجد فأنا أكره آثاره الجانبية. أكره الالتزام والتماس الرضا. أكره التضحيات والخداع والطعن في الظهر. أكره ذلك الحب الذي لا يخضع لقوانين تقيسه وتتنبأ بحدوثه.

ما يسمونه الحب هو أصل الشرور في الدنيا. لا يوجد حب، بل يوجد تجاذب، علاقة بسيطة تقاس بالمسافات والكتل ويمكن التحكم فيها بمعادلات واضحة.

آخر عنوان إلكتروني تم الدخول عليه هو مدونة «بحر الحياة». تبدو لي كما حكوا لي عنها، مدونة لمساعدة الناجين من الانتحار.

مكتوب كمقدمة «إن كنت بغير إرادتك، أفقت لتجد نفسك حيا، فأتمنى أن تساعدك تلك الكلمات على أن تعرف أنك لست وحدك. رحلتك تبدأ من الآن! للأسف، لا يوجد هنا خارطة للطريق الذي ستذهب فيه، لكننا ندين لك ببداية وهدف وحل».

تركت لإشراق عدستها لتراسلني إن احتاجت، فقط كي تبقي المسافة بيننا آمنة، فلا يسقط نجمي العجوز في براثن جاذبية شمسها. ربما أرسلت لي وربما لم تفعل. كتبت لها كثيرا ولم أرسل أيا من تلك الرسائل. لن أعيدها إلى حياتي مرة أخرى بفلسفتها وضوضاء حياتها.

كانت مثلي، تركها أبوها كرد فعل لخيانة أمها، ادعى الموت، وحين اكتشفت إشراق الحقيقة، كانت تلك المرة الأولى التي تنتحر فيها.

تركني أبي مدعيا الموت، تركني تحت رعاية جدي، فلم ير فيّ جدي



سوى ابن زانية. هنا، على تلك الطاولة، كنت أُنبذ على كرسيّ بلاستيك، يعطني طعامي في طبق مخصص لي ككلب نجس.

بينما يحدث ذلك، كان أبي يزني بحسناوات، انتقاما من أمي التي لا تدري من أمرها شيئا، إلا كونها كلبة رجل ما.

أرسلت لي إشراق ١٢ رسالة إلكترونية لم أقرأها جميعا. كلمتني عن قوانينها السماوية الثلاثة، على غرار قوانين نيوتن.

القانون السماوي الأول:

«ما يجعل المرء محبا لمن حوله هو الجاذبية. الجاذبية الإنسانية تعتمد على مقدار الكتلة النفسية للشخص. ينجذب ذوو الكتلة الأقل لذوي الكتلة الأكبر».

القانون السماوي الثاني:

«للجاذبية تأثير مدمر، فهي تفقد المرء هويته فيصبح غير واع لمقدار كتلته. الحب هو جاذبية خادعة يخضع فيها صاحب الكتلة الأقل، لجاذبية صاحب الكتلة الأكبر، وهي امتهان لاستقلال البشر».

القانون السماوي الثالث:

«لتقليل الضرر الواقع من جاذبية الآخرين علينا، يجب ألا نحب، ولا نُحَب.. علينا أن نتباعد قدر المستطلع ليكتشف كل منا مقدار كتلته الحقيقية وتأثيره وتأثره، فلا يسمح بالسقوط في فخ الخداع مرة أخرى».

لطالما كنت بحرا خاضعا لحركات المد والجذر، أتمدد وأنحسر بلا حساب، أهدم في طريقي وأحفر، أحيي وأقتل.

اليوم أقف ذاهلا أمام تلك القوانين السماوية. أستسلم للفلسفة التي طالما منعت عنها، للحلم، لكسر القيود. تلك القوانين هي العلاج الأنجح لمدواة كل كسر في القلوب. لا تحب ولا تدع أحدا يحبك. حافظ على مدارك



وحافظ على مدارات الآخرين. لا تخضع، لا تفقد قوانينك فينهار العالم وينفرط تماسكه.

كانت إشراق جميلة، قابلتني بعد خروجها من المشفى، كانت ترتدي أساور سميكة تخفي بها جروحها، فخلعتها عنها. نتمشى يوميا على الشاطئ بعد انتهاء اليوم الدراسي. الأستاذ والتلميذة، الأستاذة والتلميذ.

في يناير، وعدتها أن أشفيها، أن أحميها من الحب للأبد. حدثتها عن قوانين نيوتن فكانت تستمع ويختزن عقلها الفتي كل كلمة أقولها.

في أثناء هروبنا من الحب وقعنا فيه، فكان في يناير عهدا بالفراق، عهدا أن أظل موجودا على مسافة آمنة لن تؤذيها.

في يناير، عاودت إشراق الانتحار مرة واثنتين وثلاثا وأربعا، حتى انتهى بها المطاف بشلل رباعي.

لو نظرت الآن من نافذتي لوجدتها ممدة في سريرها، لوجدت أما بنهر لا يجف من الدموع على وجنتيها، لكنني لن أنظر.

في المدونة، قصة حياتي مفصلة. اللافتة التي كان يعلقها جدي على صدري بدرجاتي في المدرسة كفضيحة لا أستطيع التنصل منها. طقوس حرق رواياتي ومجلاتي وأفلامي هنا، في منزلي، تحت رسم الماندالا بالتحديد، والذي بالطبع لم يكن موجودا وقتها.

محاولاتي للانتحار مراهقا وشابا وكهلا بلا جدوى.

زواجي وخيانة زوجتي وانكفائي على تربية دُر، فقط ليصبح نسخة لعينة مني. حاول الشاب اختيار حياة مختلفة، منعته، صفعته فصفعني.. هذا عدل كاف.

الكرسي البلاستيك الصغير الذي كنت آكل عليه ككلب، والذي كنت أذاكر لدُر في شبابه وهو جالس عليه القرفصاء، والذي حاولت الانتحار من فوقه فخارت قواه تحت وزني وفشلت. دائما ما أفشل.



كتبت إشراق كل تلك المعلومات عني، حتى صورة قبر نيوتن صنعتها لتجسد حلمي. لمَ تفعلين هذا يا إشراق؟ ما الهدف؟

وصْلة في نهاية الصفحة الأولى من المدونة لكتاب من تأليفي يدعى «ابدأ الحياة بقوانينك». أضغط لتحميله فلا أرى غير الظلام. لحظات ثم بدأ ألم لا يوصف، يبدأ من عيني وينتهي في أرجاء مخي. أتخبط في الحمام من الألم، أسقط أرضا وتحتقن شرايين رقبتي، أحاول انتزاع العدسة من عيني بأي ثمن حتى وإن كان فقئها.

أخيرا انتزعتها وألقيتها أرضا، أغسل عيني مرار حتى هدأ الألم نسبيا. أنظر في المرآة فوق الحوض لأجد عيني حمراء ملتهبة كأعين العشرات ممن أراهم يوميا.. كأعين روح وشراع ومستباح وناجي.

صوت طرقات على الباب، تتكرر الطرقات بلا توقف على رغم محاولاتي كتم أنيني، كي لا يسمعه الطارق.

ـ سيد بحر.. افتح.. بوليس!

* * *

في سيارة الشرطة ظلام دامس، لا أكاد أرى كفي أمام وجهي. في أثناء تفتيش شقتي، بيادة ضخمة وطئت نظارتي التي سقطت مني على أرضية الحمام، فتهشمت. كل الموجودات حولي هي ظلال.

مذنب أنا من قبل محاكمتي، أنا من كسرت قوانينك يا سيدي نيوتن، أنا من دمرت جاذبيتك.

صداع لعين يتزايد مع حركة السيارة، مقيد أنا في الصندوق الخلفي مع عساكر بائسين، تفوح منهم رائحة عرق الأقدام في البيادات.

في لحظات فقدان وعيي، أحلم أو أتذكر أشياء لا أستطيع الربط بينها. في لحظات وعيي أدرك شيئا واحدا، إشراق حاولت الانتقام مني بقوانيني، ونجحت.

إشراق في سريرها، تتواصل مع الجميع من دون أن تحتاج إلى الحركة.



إشراق الخائنة الصغيرة تستغل حب شراع زميل الدراسة المراهق لها؛ يستطيع أن يصنع لها موقعا إلكترونيا و... هل يستطيع شراع صنع فيروس إلكتروني يصيب العين البشرية بالتهاب؟

ثم ماذا؟ تستقطب الذين فشلوا في الانتحار، وتقنعهم بقوانينها التي يظنونها قوانيني، ترسلهم لي ليجيبوا على تساؤلات هي وحدها تعرفها عني؟

ثم ماذا؟ لمَ تم القبض علي؟ بأي جريمة؟

ـ بجريمة انتهاك قوانيني الثلاثة للجاذبية يا بحر.

أضيق عينيّ لأرى جيدا مصدر الصوت الرخيم. رجل يعتمر شعرا مستعارا طويلا أبيض اللون، يرتدي بذلة عتيقة وربطة عنق حريرا.. السير إسحق نيوتن شخصيا، مقيد بأصفاد إلى الكرسي المقابل لي!

تنقلب السيارة فأصرخ، تكمل سيرها على سقف الشارع، انقلب والسير إسحق نيوتن، فتمنعنا قيودنا من الطفو خارج العربة.

ـ أنا يا سيدي؟ كيف أنتهكها وقد كانت ديني وشريعتي طيلة حياتي؟

ـ أنت من أخللت بالجاذبية يا بحر.. بسببك ستتفتت الأرض جزرا في الفضاء ولن يهتم أحد لتجميعها. لن ينفلت الغلاف الجوي يا بحر، لن تختنقوا.. ستحيون أمواتا يا بحر للأبد.

في لحظات فقدان وعيي، أراني أدور في ماندالا عملاقة، كل البدايات نهايات وكل النهايات بدايات.. أبي، جدي، أنا، دُر.. مخارج أو مداخل أربعة لا يهم.. كل المداخل مخارج وكل المخارج مداخل.

مستباح وإشراق وشراع وناجي.. ثم أنا أولهم وآخرهم.

يناير ومرساله بنفسجي الشعر وسفينته.. والبحر.



في لحظات وعيي، تعود الجاذبية والأضواء، يقودني الحارس في رفق إلى داخل المخفر. يجلسني ويوثق قيدي إلى الكرسي المثبت إلى الأرض، ثم يدخل حجرة جانبية.

لحظات ثم يخرج ويقتادني إلى ذات الحجرة التي خرج منها. مكتب من الصاج وكرسيان خلفهما يجلس ضابط لا أرى رتبته جيدا. في السقف طاقم آخر من ذات الأثاث الرخيص، مثبت بمسامير غليظة.

ـ اجلس يا أستاذ بحر.

أجلس. على المكتب كيس بلاستيك به العدسة الإلكترونية التي دسها لي شراع، مجموعة أوراق مطبوعة لا أستطيع رؤية ما فيها. قدم لي أحدهم كوبا مغلقا من الشاي فشكرته. ما زلت أرتجف وما زال عقلي مشتتا.

ـ اسمك وسنك ومحل إقامتك ووظيفتك...

ذكرتها له بصعوبة، فكل ما في عقلي مختلط ومعجون ومتجلط. الذكريات لزجة ونتنة، لو أتيح لي لأخرجت مخي ونقعته في ماء ساخن وملح.

ـ ما قولك في ما يتهمك به مجموعة من الآباء، بأنك المحرض لأبنائهم المراهقين على اعتناق أفكار شاذة وهدامة، عن طريق موقعك الإلكتروني، وإصابتهم بفيروس إلكتروني غامض يتسبب في التهاب مزمن في العين؟

ـ ليس لي مواقع إلكترونية.. وكيف.. كيف يتسبب فيروس إلكتروني في مرض عضوي؟

ـ الموقع المسمى «بحر الحياة» تم إنشاؤه من خلال العدسة الإلكترونية المملوكة لك والتي وجدناها في شقتك.. ماذا تعرف عنه؟

ـ أنا رجل من الطراز القديم يا سيدي، لا أعرف شيئا عن الإنترنت.



تم تحويلي للعرض على النيابة، يقتادني العسكري إلى الحجز ويلقي بي في ظلماته. أتكور حول نفسي وأغطي أذنيّ بياقة معطفي. المحجوزون جميعا بالنسبة لي أطياف شنيعة الرائحة. تأوهات ونهنهات بكاء، ضحكات وتهديدات وسعال قاس. همسات وهمهمات أسمع فيها «بحر».. «هذا هو»...

أترقب في ذعر اللحظة التي يوجه لي أحدهم فيها كلاما، أو يلكزني أو يطالب بحقه في الثلاثين سنتيمترا التي أتكور فيها.

لم يحدث شيء من هذا.. أنتظر وأنتظر.. أخرج خطاب يناير من جيبي وأقربه من عينيّ، لا أرى شيئا. أفتح الوريقة المرفقة عليه فأرى فيها رسما غير واضح المعالم، على ورقة مطبقة ومثنية في أكثر من موضع.

أنام. أستيقظ لأجدني ملتصقا بالسقف، ضوء النهار يتسرب من النافذة التي كانت ليلا تعلونا، فأصبحت في مستوى ركبنا. يفتح عسكري الباب الحديد وينادي من ورقة في يده تتضمن اسمي مع أسماء آخرين. نتحرك نحو الباب متحاشين أن نطأ المصباح الكهربي التالف المنبثق من الأرضية التي كانت أمس سقفا.

يساعدني أحد المحجوزين على عبور الحائط الذي يدنو من الباب، فيما كان أمس يعلوه. نسير على جانبي لمبات الفلورسنت. الجميع يقفز دخولا وخروجا من الحجرات عبر الحائط أسفل الأبواب.

على باب قسم الشرطة، ننزل بسلم من الحبال حتى نصل إلى الدور الأرضي الذي كان الدور الرابع أمس، نركب سيارة الشرطة التي تتهادى بنا على أرضية معدن أسفلها السماء الزرقاء الصافية.

أعرض على النيابة ويجدد حبسي للتحقيقات، حتى أفقد إحساسي بالزمن، ما بين الطفو والجاذبية المعكوسة والهزات الأرضية المتتالية. أيام لم تعد فيها جاذبية طبيعية إطلاقا.

يأتي موعد مثولي أمام وكيل النيابة مرة أخرى في يوم طفو، أطفو مستندا على الحوائط حتى أصل إليه. جالسا على المكتب في السقف تطفو الأوراق

أمامه في هدوء، يطلب مني الجلوس على أي من الكرسيين أمامه، فأختار أن أجلس على كرسي من المثبتين في الأرضية. هذا عالمي الحقيقي ولن أتخلى عنه.. لن أتأقلم مع وضع شائه كهذا.

أطلب من العسكري أن يوثق رباطي إلى الكرسي، ينظر متسائلا إلى وكيل النيابة الذي يهز رأسه في حكمة موافقا. دائما ما يوافق على طلبي.

أنظر إلى أعلى، حيث الشاب المعلق، وأستمع إلى أسئلته في ثبات أدهشني شخصيا.

ـ سيد بحر، تم استدعاء وسؤال من اتهمتهم ومن طلبت شهادتهم. منهم من لم نستدل على مكانه، السيد مستباح لم نجده في خمارته أو في بيته.

ـ حسنا.. ماذا قالوا؟

ـ بسؤالنا المدعو شراع، قال إنك كنت مدرس الفيزياء في مدرسته، وقبل إجبارك على تقديم أوراق معاش مبكر بسبب المشكلات التي كنت تفتعلها مع الطلبة والمدرسين، طلبت منه أن يصمم لك موقعا إلكترونيا بمواصفات ومعلومات كتبتها له، وقد فعل بمقابل مادي ممتاز بالنسبة لطالب مثله. قال أيضا إنك طلبت منه بعدها أن يصمم لك فيروس يتم تحميله بواسطة كتاب ما، يحوي ما قال إنه فلسفة غريبة لم يقتنع بها، لكنه صمم لك الفيروس بمساعدة محترف في الخارج وأصيب به عن طريق الخطأ. وقد دفعت لكليهما مبلغا كبيرا هو كل ما جمعته من أموال الدروس الخاصة كما أخبرته.

ـ لم يحدث هذا مطلقا. أنا خرجت على المعاش في موعدي ولطالما كنت محل حب وتقدير من الطلبة والمدرسين والعاملين. وأنا لم أجمع شيئا من أموال الدروس الخاصة، كنت أنفقها كلها على علاجي من سرطان الرئة.

ـ يقول شراع، إنك تبرأت منه بعد ذلك ورفضت أن يتم بينكما أي اتصال، وبعد فترة قصيرة قابلك في المدرسة تجري تجارب فيزيائية ما لطلبة وهميين. أشفق عليك وحاول أن يقنعك أن تخرج من المدرسة بهدوء قبل



أن يكتشف أحد تسللك، لكنك ضربته بكرة صغيرة وطردته، وكانت تلك آخر مرة يراك فيها.

ـ لا يوجد إثبات على كلامه. هل يملك دليلا على أنني من طلبت منه ذلك أو أعطيته مالا لأي سبب؟ كلامي مقابل كلامه. بل أنا أتهمه باقتحام بيتي والرسم على حائطي وترك عدسة ليست ملكي هناك كي يدينني بـ.. يدينني بما يريد.

ـ ما الدافع الذي يجعل شراع يفعل ذلك؟

ـ تلك هي العلاقة بين الطالب وأستاذه هذه الأيام.. كأننا نسقيهم السم لا العلم.. قل لي، واعذرني يا بني، ألم تعلق ذيلا ورقيا لمعلمك يوما أو قذفته في قفاه بكرة ورق؟ ما كان دافعك لذلك؟ هه؟ العالم يتطور!

عادت الجاذبية المقلوبة، فغاص الشاب في كرسيه واستقرت أوراقه أمامه، بينما أجاهد أنا كي أبقى في مكاني، الدم يندفع إلى رأسي، لكنني أبدا لن أغير ثباتي.

ـ لدينا هنا شهادة من الطالبة إشراق، التي طلبت أنت استدعاءها، لكنها لم تتمكن من القدوم لمقر النيابة لحالتها الصحية. ذهبنا إليها وبسؤالها عنك قالت إن هناك علاقة عاطفية كانت بينكما منذ عام تقريبا، وقد تم التقارب بينكما بعد محاولتها الأولى للانتحار بسبب مشكلات عائلية. خلال فترة علاقتكما كنت تقنعها بقوانين تسميها القوانين السماوية الثلاثة، والتي باتباعها إياها لن يستطع أحد أن يتلاعب بمشاعرها مرة أخرى. بعدها أصبحت أنت غريب الأطوار وهجرتها بشكل مهين وبلا سبب، ما دفعها إلى اليأس ومحاولتها للانتحار مرات متتالية، حتى أصيبت في آخرها بشلل رباعي. أما عن علاقتها بشراع فقالت إن شراع يحبها منذ وقت طويل، ويقوم بزيارات متكررة لها للاطمئنان عليها مع زميلاتها وزملائها.



إشراق، الخائنة الصغيرة! وضحت رؤيتي الآن ووضح انتقامها، لِمَ لا يرى الجميع ما أراه واضحا وضوح الشمس!

ـ هذا هو الدافع الذي كنت تسألني عنه يا سيدي. لا أنكر علاقتي بها، لكنني تراجعت عن تلك العلاقة لأنها لم يكتب لها قط أن تستمر. أنا بالفعل نادم وآسف على انجرافي فيَ تلك الأمور. لقت رتبت لي مع شراع كل ذلك، أنا الذي اشتريت لها عدستها وكانت باسمي بالطبع، واشتريت لي عدسة كي يتم الانفصال بيننا تدريجيا. عزمت على أن نتبادل بعض المراسلات حتى تنساني، لكنها استغلت هديتي.. يمكنك أن تقرأ الرسائل على حساب العدسة.. كلها منها وفيها تذكر قوانينها السماوية.. قوانينها لا قوانيني!

ـ تقول إنك تمتلك عدسة أخرى، أين هي؟

ـ لقد.. سرقها شراع كما هو واضح ووضع تلك مكانها.

ـ كيف دخل شراع بيتك وأنت داخله؟

ـ ربما.. ربما نسيت الباب مواربا.. هو من دخل واستبدل العدسات ورسم دائرة الماندالا.

ـ الدائرة دقيقة يا سيدي ويحتاج رسمها إلى وقت طويل. مرسومة بطبشور طبي كالذي كان يستخدم في المدارس.. ربما رسمتها أنت ونسيت؟

ـ الطلبة يسرقون الطبشور دوما! هذه طبيعة ثانية لديهم.. أنت نفسك كنت تفعلها حتما!

ـ حسنا، لا يمكن إثبات أنها من أرسلت الرسائل لا أنت.. تسكنان في منزلين متقابلين وتذهبان لذات المدرسة. كل الرسائل تم إرسالها من المدرسة وما حولها أو منزلك وما حوله. لن يمكننا تحديد المكان بدقة أكبر من ذلك.

ـ ولِمَ عساي أرسل رسائل لنفسي بصفتي إشراق؟

ـ بسؤالنا السيد ناجي والآنسة روح، أفادونا بأنهم زاروا مدونتك بعد



محاولات انتحارهم الفاشلة، وحملوا كتابك الذي أصابهم بالتهاب شديد في العين، أجبرهم على التخلي عن استخدام عدساتهم، ما جعلهم متفرغين ليروا الحقيقة التي طالما أغفلوها، رأوا الناس يتباعدون، يفقدون جاذبيتهم لبعضهم وانجذابهم للحياة، ووجدوا أن تطبيق قوانينك السماوية هو الحل الوحيد في مجتمع كهذا. يدعي المدعو ناجي أن الكتاب فيه طلب من القارئ أن يذهب إليك ويحكي لك حكايته التي أدت إلى انتحاره، ويجيب سؤالك «من أين بدأ كل هذا» بأن يحمل لك أمارة هي صورتك جوار قبر نيوتن. وقد فعل المذكور ذلك وكذلك فعلت روح، لكنك لسبب ما لم تكن متحمسا لمقابلتهم.

يصمت قليلا، ثم يكمل كلماته وهو ينظر لي من عليائه في ثبات..

- أنت يا سيد بحر بشهادات عدة، المتسبب في بلبلة أفكار مئات من الشباب الذين بدورهم ينشرون فكرك بشكل غير عقلاني. هل تدرك خطورة الموقف؟

إجابتي واضحة، كل هذا جزء من إثبات المؤامرة عليّ، لا يوجد إثبات على كلامهم ولا يوجد إثبات على كلامي. معلق أنا ككرة تتقاذفها قوى الجذب والطرد. متأخر أنا دوما كتأخر دوران الماء في دلو نيوتن.

أطلب منه الانصراف إلى سجني، لكنه يخبرني أن هناك شيئا واحدا أخيرا فارقا.. شهادة دُر ابني.

* * *

إلى من تصله رسالتي، إلى يناير، إلى أي شخص:

يطلب الطبيب مني أن أكتب، فأكتب. أكتب عن الفحص الجسدي الذي أخضعوني له في المشفى، عاريا تماما تحت كشاف ضخم، يتفحصون



كل جزء في جسدي. يصور الطبيب جرحا قديما في شريان رقبتي، من جراء طعني لنفسي مراهقا بقلم جاف.

يصور جرحا ورديا على معصمي يتصالب على شراييني، يصور آثار نبشات بأسناني في ذراعاي، تحولت بمرور أكثر من أربعين عاما لدوائر بيضاء غائرة صغيرة. يصور جرحا طوليا في ساقي نتيجة انغراس حطام كرسي بلاستيك صغير ملون، لم يتحمل ثقل وزني عليه.

يدون آثارا لن تنمحي في أحشائي من جراء تعطي الخمر والمهدئات، وأكل أوراق الكتب.

يتركني وحيدا فأجلس منكمشا، أبحث عن غطاء فلا أجد. أبكي. بصوت عال أبكي..

يقول دُر، ابني الحبيب، إنني مختل، ذهاني، عصابي.. لا أذكر. يقول إنني كنت أعلق على رقبته لافتة بدرجاته المتدنية وأجبره على السير بها في الشارع. وحين يعود منكسرا، يجدني مخمورا، أحتضنه وأبكي نادما، وأخبره أن أباه قد رحل وأنني عمه الطيب، مستباح!

يزعم دُر، ابني الذي كسرت عمري تحت قدميه، أنني كنت أجبره على الجلوس على كرسي أطفال حتى سن العشرين. أحيانا يعود من دراسته ليجدني جالسا عليه، معلقا لافتة بدرجاتي واللعاب يسيل من جانب فمي!

يرى دُر، ابني الوحيد، أنني كنت شخصا آخر خارج المنزل، وفور عودتي إلى براثن بيتي، أتحول كائنا يعوي ويبكي ويخمش، بل إنني صفعته ومزقت ثيابه وعضضته في وجهه، حين أخبرني أنه راحل عني للأبد ولن يعود.

يذكر دُر، ابني العاق، أنني كنت أتعقبه وأراقبه وأبيت أحيانا خارج منزله، وأنه لم يعد يشعر بالأمان على ولديه في وجودي وتسكعي حول حياته، أنا المدرس السابق صاحب الخمارة! إنني كنت أنام في الشارع أمام بيته وأمام مدرستي، وأن كل من حولي يعرفون أنني مختل، لكنهم،

ويالدهشتي من كلامك يا دُر، لا يهتمون!

لِمَ لم تسلمني لمستشفى للأمراض العقلية يا دُر؟ لِمَ تركتني مصدر خطر على من حولي يا دُر ما دمت بتلك البشاعة التي تزعمها؟

هل كنت تزور إشراق، ضحيتي، وتساعد أمها بالمال كما زعمت؟ أم أنك تزورها عاقا متآمرا عليّ بذنب لم أقترفه؟

نعم، حاولت الانتحار عشرات المرات طيلة حياتي. في كل مرة أحاول فيها أن أقدم سعادة الجميع على سعادتي، ينتهي بي المطاف تحت الأقدام. في كل مرة أحاول فيها أن أكبت عقد طفولتي وأتظاهر أنني طيب ورائع، لأرى نظرة استحسان من هذا أو عطف من ذاك، فلا أجد. في كل يناير أعاهد نفسي على أن أصبح بحرا يسع الجميع، وفي كل ديسمبر يحكم علي بالإعدام.

لكنني لست مجنونا.. نحن نفقد جاذبيتنا ولا نبالي، ننجذب إلى المجهول ولا نتوقف لحظة للتساؤل، إلى أين نذهب؟

يصحبونني إلى زنزانة ما، أتكوم على سقفها وأتمسك بقضبان نافذتها.

أكتب إليك يا يناير لائما، لِمَ تعشمني في كل عام وفي كل عام تخلو بي؟

مرسل مع خطابك، يا يناير، رسمة للماندالا.. تخبرني أن عن طريقها تصل رسائلي ورسائلك. تخبرني أنك حتما ملاقيّ، فقط إن وجدت مفتاحا لخريطة الأكوان.

تقول يا يناير إن هناك عوالم، فيها الزمان أشجار تنمو، والجاذبية حبال، والمكان أثير بلا وجود مادي! فماذا يمنع أن يتحول المجاز حقيقة؟ ويقولون إنني المجنون!

أكتب إليك يا يناير على ظهر خطابك نفسه، فيتطاير الحبر إلى أعلى، يتسرب عبر قضبان النافذة ويختفي. أتبعه بنظري لأرى الأرض جزرا في الفضاء، جزيرة عليها سجني، وأخرى تعبر أمامي عليها بيتي وخمارتي ومدرستي.



لو كنا سنلتقي يوما، وليس لي أن أسأل كيف يلتقي صاحب مشكلة الجاذبية بصاحب لاسم الزمان. لي سؤال عندك...

هل نفقد كتلتنا فتفقد جاذبيتنا؟ لمَ لا ينفلت الغلاف الجوي من حولنا فنختنق كل على جزيرته الخاصة؟ لمَ يأبانا الموت؟

* * *

تمت

في يناير من عام ما



(٢)
رسائل إلى يناير



يحكى أنه في منازل الطين، قامت زوبعة من تراب أيقظت الأقوام الأحد عشر من نومهم. نظروا نحو المنازل المهجورة في مزيج من الخوف والشماتة، فلا تستحق تلك القرية البائسة إلا الدمار. إلا أن خوفهم كان من أن تأتي الزوبعة على ما تبقى من بيوت الطين وتنتقل لتطفئ النيران وتحيل المياه الصافية وحلا وتلوث الهواء فيختنقون.

صوت بكاء يصارع عويل الريح، نظر القوم بعضهم إلى بعض، قرار غير منطوق بأن يتظاهروا بأنهم لم يسمعوا شيئا. إلا أن الشيخ المسمى فبراير تقدم بضع خطوات ثم دار وواجههم. نظرته الرمادية الثاقبة فضحت مؤامرتهم، فنكسوا الرؤوس وائتمّوا به متجهين نحو مصدر البكاء.

غطى القوم رؤوسهم وأنوفهم وأفواههم واقتحموا بمشاعلهم ظلمة التراب. ساروا حسب صوت البكاء، صاح بهم فبراير بصوته الجهوري:

- إلى اليمين.. حاذر يا مارس من الوهدة أمامك.. أراك يا نوفمبر تولي الأدبار، عد وكن رجلا!

أمام أقدم البيوت الطين المهجورة توقفوا. كذلك هدأ صوت البكاء وتلاشت عتمة التراب. أزاح فبراير العجوز الباب المجدول من الخوص وطلب مشعلا آخر يضيء له طريقه.

على الضوء البرتقالي المتراقص، رأوا فبراير يشهق ويتراجع فاردا ذراعيه يمنه ويسره، يمنع تقدم القوم أكثر. في صدر القاعة الصغيرة، مباشرة جوار

التنور، كانت عجوز طاعنة، ممددة وقد فارقتها الحياة، بين ساقيها المنفرجتين طفل ذكر، عار ملتف بالمخاط والدماء.

اقترب فبراير وجثا على ركبتيه متوكئا على عصاه. حدق في الطفل على ضوء المشاعل وهمهمات الواقفين. أزاح ثوب المرأة ليرى رأس طفل آخر مزرق يجاهد في الخروج من رحمها.

ولما كان الواقفون جميعهم ذكورا، تطوع فبراير ليزيل حواجز الحياء ويحاول أن يجذب الوليد الآخر المحشور. جثة المرأة العجوز تتفسخ في معافرته لإخراج الطفل، يتساءل الواقفون كيف تعفنت المرأة وقد نزل من رحمها للتو طفلان!

بعد دقائق، جلس فبراير يوسد ساقيه للوليدين، الذكر والأنثى، بينما يرتجف الواقفون وهم يشاهدون جسد المرأة العجوز يتعفن ويتغضن ويبلى، ويتحول ترابا لا يفرق عن أي تراب آخر!

الطفل الذكر، يطبق كفه على قطعة رق صغيرة، جذبها الشاب مارس في فضول من بين الأصابع الوردية الصغيرة وقرأ:

ـ مكتوب.. «ونسمي ابننا الذكر ي.. ي.. ين...

ـ قل يا مارس، ماذا نسميه لن نجلس طيلة الليل هنا!

ـ انظر بنفسك يا سيدي فبراير.. لا أستطيع التلفظ بها.

زم فبراير العجوز عينيه وقرب الرق منهما، عبس، ارتجف، ثم تمالك نفسه واقفا دون أن يتخلى عن الصغيرين..

ـ نسمي ابننا يناير.. و...

قاطعه القوم في ذعر، كيف يسمون طفلا بهذا الاسم المشؤوم.. من يسمي طفلا بريئا يناير؟ من يحكم على وليد باللعنة الأبدية؟

ـ صمتا! كلمة أخرى وسيعصف بكم غضبي! هكذا.. سنسمي هذا، يناير.. وهذه.. إنتروبي.
ـ أي اسم هذا؟ إنتروبي؟ ماذا تعني؟
ـ لا أعرف.. لا يهم، سنفعل ما هو مكتوب في الورقة. والآن.. من يكفلهما؟

ولى كل من في البيت مدبرين، لا يهمهم أن يحرقهم فبراير أو يدفنهم أحياء، فلن يكفل أحد طفلا يدعى يناير ولا طفلة باسم بلا معنى. طفلان حولا أمهما إلى هشيم يذروه الريح!
احتكموا إلى القاضي، ديسمبر، الواقف في آخر صفوفهم يرمقهم في هدوء، فقال نكفلهما جميعا، أو لا يكفلهما أحد، ولد يناير وأخته من التراب، فهما باقيان إلى ما شاء لهما خالقهما أن يبقيا. أطعموهما واسقوهما في مكانهما، ولنر إلامَ يؤول الأمر.

إلا أنه، كما يحكي، بعد فترة طويلة ممتدة من الزمن، سيجتمع القوم بين يدي ديسمبر، يتخاصمون، أيهم قتل يناير وأيهم أحق بدمه من سواه.
ما بين بداية يناير ونهايته، سيجلس ديسمبر، الشاب ذي الشارب الرفيع والشعر المدهن المشدود إلى مؤخرة رأسه بشريط أحمر لامع، يسمع من المتهمين الخمسة آلاف وستمئة وأربعة وخمسين شهاداتهم عمن قتل يناير، ولأي سبب.
مثل فبراير الشيخ أمام يدي القاضي، يدلي بحكايته مع يناير ورسائله وأخته. طلب فبراير الجلوس فقد لا تحمله ساقاه في أثناء اعترافه المرير.

ـ ما قولك في مقتل يناير؟
ـ أنا قتلت يناير يا سيدي.. ولدي سببي.

* * *



شهادة فبراير

تفرق القوم من حولي، بينما أنا على ثباتي، واقف أحمل يناير بيميني وإنتروبي بشمالي. عاريين دافئين داميين، كقلب نابض انتزع من جسده.

من صدر يناير، كان قلبه الصغير يصدر تكات «تك تك تك»، صوت غريب يختلف تماما عن صوت قلبه أخته المعتاد «بوم بوم بوم»!

كنت أنت، يا سيدي ديسمبر، ما زلت على وقفتك في فم المنزل المنفرج عن صرخة صامتة، تستند مائلا بكتفك على الحلق الخشب. لا أرى وجهك فالضوء دوما يا سيدي ما يأتي من خلفك، لكنني أعرف جيدا ذلك التعبير على وجهك وأجيد قراءته. كأنك تقول «أنت هالك يا فبراير، تركك قومك تهلك بشهامتك».

نفضت التراب عن كتفيك ورجلت كما رحلوا، وجلست أنا لا أعرف من أين البداية.

لبن الماعز تكفل بإطعام الطفلين طويلا، كان يناير يشبع من بضع قطرات، بينما إنتروبي لا تشبع أبدا، تشرب وتنهل ثم تقيء ما شربته وتطالب بالمزيد.

أذكر كذلك أولى خطوات يناير، توجه مباشرة نحوي وألقى بنفسه بين ذراعيّ، بينما كانت أولى خطوات إنتروبي نحو ثدي العنزة البيضاء، تشرب وتشرب حتى يمسي الحليب دما.



لو طلبت مني كلمة تصف يناير لقلت: العطوف، ولو أردت صفة لإنتروبي لقلت: الشرهة.

هكذا، أمضيت وقتي بين أطلال القرية البائدة، وبين الزحف إلى قرى الهواء حيث بيتي وبيوت قومي. لم أكن أعلم وقتها أن العمر سيمتد بي، لذا كنت متعجلا في فطام الطفلين، وتعليمهما ما يمكنهما من العيش بمفردهما. فأنا أخشى عليهما من المكر، والغيرة، وأخشى عليهما من الحب.. ومن الأمل.

في صباح أذكره جيدا، فقد كان رائقا نقيا على غير عادة قرى التراب، اصطحبت الطفلين، أمسك كف كل منهما في كف. أتحاشى أسئلة لم يطرحاها عن قرى التراب والقرية البائدة.

ـ كما ترى يا يناير، العالم من حولك يشبه قرصا مستديرا.. قرى التراب التي نحن فيها تقع في الربع الشمالي، قرى الهواء في الغرب وقرى الماء في الشرق، أما الجنوب فقرى النار.

يسألني يناير عن سبب إبادة قريته، رغم أن باقي قرى التراب في حال أفضل، فأجيبه لأنتهي من هذه الصفحة للأبد:

ـ هي كذلك منذ ولدت أنا، يقال إنها أبيدت لأنها كانت تعطي الناس الأمل، ويقال إنها أبيدت لأنها تخلت عن الأمل.. لا أحد يعرف فلا تسأل مرة أخرى.

كنا على حدود قرى الهواء، حيث أسكن. إلا أنني لم أكن لأغامر باصطحابهما معي إلى هناك، فقط كانت مهمتي اليوم هي تعريفهم بحدودهما. تنبهت إلى أن إنتروبي تركت يدي ووقفت على الحدود، يموج شعرها الأحمر خلفها وهي تنظر في فضول نحو أطفال يلعبون هناك. توقف الأطفال عن اللعب



مبهورين بجمال خلقتها، فهي الأجمل في العالم بلا منازع.

جريت قدر استطاعتي، تتطاير لحيتي لتعميني فأتعثر وأقوم حتى أصل إليها وأجذب وجهها نحوي.

ـ أبدا، أبدا يا إنتروبي لا تتعدي الحدود.. فهمتِ؟

تنظر لي ولا ترد، لا أعرف فيمَ تفكر ولا علامَ تنوي. انحنت في هدوء وأمسكت كتلة من الطين الجاف فركتها بين يديها في الهواء، فتناثرت على شعري ولحيتي وثيابي. وكتصرف متوقع من يناير، جرى نحوي وشرع يلتقط الفتات ويحاول أن يجمعها مرة أخرى على شكل كتلة طينية. رغما عني ضحكت، أمسكت كفيه الصغيرتين بين كفيّ وهمست، ودائما ما أهمس عندما أحدث يناير خوفا من أن ينكسر:

ـ ما تفعله يسمى عبثا.. لا تحاول جمع ما انتشر ولا رأب ما انصدع.. لسبب ما، تتوجه الحياة نحو الانفلات والتشتت والتبعثر.. هكذا يروق للأشياء أن تتصرف فلا تتحدَها.

كان يناير هشا، زجاجي الملامح شفاف الجلد كتمثال ثلج. قليل الكلام، يتابع تبعثر أوراق الأشجار الجافة وانفراطها من أصولها، فيحزن. لا يزال غضا محتاجا إلى الصقل.

في يوم تعليم الصيد، أنصت يناير بينما راحت إنتروبي تدور حولنا في مرح، تعرف أن يناير لن يتركها تجوع، تعلم أنه سيتعلم كل شيء من أجلها، وأن عليها ألا تحمل هم شيء.

على أعتاب الغابة جلست ويناير أعلمه سلخ الأرانب البرية، حتى سمعنا أصواتا متتالية لسهام تقذف، ثم نحيبا عاليا لحيوان ما.

وجدنا، كما توقعنا، إنتروبي وقد قذفت السهام جميعها في عشوائية فأصابت



الأشجار وتكسرت على الصخور، ورشق آخرها في عين ثعلب صغير. كنت أود أن أقول لك سيدي ديسمبر إن السهم أصاب عين الحيوان بالصدفة، لكن ابتسامة إنتروبي قالت أشياء أخرى أفزع كلما تذكرتها.

ما كان من يناير إلا أن جذب سكينا وذهب يريح الثعلب من معاناته. من بين الأشجار رأيت أحد أبناء قوم الماء ينظرون في فزع ليناير الملطخ بالدماء. يرونني فيجرون مبتعدين وهم يرددون بأعلى الصوت:

- يناير قتل الثعلب الصغير كما قتل أمه.. يناير يأكل الثعالب الصغيرة!

يناير الرحيم، العطوف، الهش، لا يعبأ بكلامهم.. يذهب ليغتسل كي لا تفزع توأمه من الدماء على كفيه. أراقبه بأسى فأجده يتوقف عن الاغتسال، يحدق في المياه ويقلبها بيديه. يجري نحوي ويطالبني بتعليمه القراءة.

- لا بد لك من أن تتعلم أولا أساسيات العيش يا ولدي.
- سأتعلم كليهما.. أرجوك.

بالطبع لم أكن أعلم وقتها أن يناير تلقى أولى رسائله العجيبة على سطح الماء في ذلك اليوم. منذ علمته القراءة لم يكف عن جمع أوراق الأشجار ورصها ومحاولة قراءتها، ولم تكف إنتروبي عن تشتيته وبعثرة أوراقه وحروفه.

في يوم، وجد يناير قطعة من جلد حيوان قديمة متشققة، ظل يحدق فيها طيلة الوقت، ولمدة أيام انقطع عن الزاد وتحلقت عيناه الزجاجيتان بالسواد، وهو بعد يحملق في قطعة الجلد. لم أرد أن ألحّ عليه في السؤال، فهو وليد الطبيعة ولا بد من أن يتعلم بنفسه كل شيء عنها، فأنا لن أبقى له للأبد. لكنني خفت عليه من أن يفنى من الجوع يا سيدي ديسمبر، فارتحلت بنفسي إلى قرى الماء أطلب سمكا مما يبرعون في صيده، ثم شويته



ووقفت أمام الدار المتهدمة. أنتظر أن تحمل الريح خبر الطعام الشهي إلى أنف يناير. استفاق من رحلته في عالمه الغيبي ونظر لي وللسمك ثم قام، يمزق ابتسامة على شفتيه، ويأخذ مني حملي ويجذب يدي كي أجلس جواره.أسأله مترفقا:

ـ ماذا يا بني؟ ما أهمك؟
ـ لا أريد أن أثقل عليك يا سيدي.. سأنادي إنتروبي لتأكل..
ـ لا تشغل بالك بها، فقد سبقتك إليّ وأخذت نصيبها وها هي تأكل تحت الأيكة هناك.. تراها؟

سرح طويلا في إنتروبي والأيكة، وأشواك الأسماك التي نثرتها أخته تحتها. أخذت أحدق في قطعة الجلد بين أصابعه فلا أجد فيها ما يغريَ بالتفكير أو التحديق. أمسكت طرفها فأجفل وأطبق يده عليها. تلاقت عينانا فبدى أن مقاومته قد ضعفت وأوشك على البوح.. ويا ليته يا سيدي ديسمبر ما باح.

ـ سيدي فيراير، من أين أتيت أنا وأختي؟
ـ لقد حكيت لك بكل أمانة ما أعرفه عن ذلك اليوم يا بني.. كان لا بد من أن تعرف قسوة البدايات، فلن يعرفك أحد إياها هنا.
ـ من هي أمي؟
ـ لا أحد يعرفها يا بني.
ـ هل.. هل كانت تحبني؟
ـ لو عاشت كانت ستهيم بك.. وبأختك بالطبع. كل الأمهات يحببن أبنائهن.. لمَ الأسئلة يا صغيري؟

فرد قطعة الجلد أمامي وأشار بأصبعه إلى خطوط لم تبد لي ذات معني.. خطوط متشابكة ونقاط لكنها لا تشبه تشققات الجلد العادية.

ـ هل ترى هذه الكلمات؟
ـ لا أرى كلمات لكنني أرى خطوطا ونقاطا.
ـ هذه كلمات.. بلغة غير لغتنا، لكنني بشكل ما أفهمها.. أقرأها وأستطيع أن أكتب بها..
ـ من علمها لك؟
ـ لا أحد.. وجدتها في عقلي فجأة، ووجدت لغات كثيرة غيرها بأشكال مختلفة، أراها في الماء، في ذرات الغبار العالقة في الهواء تحت ضوء الشمس، في الأمطار، في السحب.. لذا طلبت منك أن تعلمني لغتنا لأنني ظننتها تشبه تلك الكلمات التي أراها.

تملكني الذعر، والأَبدى أن تتملكني الشفقة على طفل فقد عقله مبكرا. لكن ما آراني إياه يناير على قطعة الجلد، كانت خطوطا ذات نسق متكرر تبدو بالفعل كلغة ما. لكن من كتبها؟

ـ المكتوب هنا.. رسالة من امرأة لابنها الذي لم تلده بعد! تصور أنها تحبه قبل أن تراه؟
ـ حسنا.. وماذا تقول فيها؟
ـ تقول إنها انتظرت أن تحمل فيه وقتا طويلا، وأنها لا تحب أباه لأنه تزوج امرأة أخرى!
ـ تزوج امرأة أخرى؟ لا أعرف أقواما يتزوجون أكثر من امرأة..
ـ من أبي يا سيدي فبراير؟ وهل كان سيحبنا لو رآنا أنا وأختي؟
ـ إجابة سؤالك الأخير: نعم بالتأكيد.. أما الأول: لا أحد يعرف... حدثني عن خطاب المرأة.. كيف وصل لك ما دامت كتبته لابنها الذي لم تلده بعد؟

قام يناير ونبش التراب تحت فراشه وأخرج أربعة قطع من الجلود



القديمة لحيوانات مختلفة. أراني نقوشا عليها تشبه القطعة التي كان يحدق فيها.

ـ هذه رسائل من نفس المرأة، بعضها تكتبه لنفسها ولا تحدث فيه ابنها.
ـ وماذا كتبت فيها؟
ـ هذه، الأولى.. تشكو من أن زمنا طويلا مر عليها قبل أن تحمل طفلها الأول. أما تلك فتشكو فيها غربتها ووحدتها بعد أن هربت بابنها من زوجها.. ذاك الرق مكتوب فيه أن هناك «شبحا» لطفل ما يترصد ابنها.. ما معنى شبح؟
ـ تلك أساطير يا بني.. يقال إن الشبح هو روح لإنسان فني ولم يعد حيا.. ماذا تقول المرأة أيضا؟
ـ تقول إنها جنت.. ترى الناس مربوطين بخيوط كأن أحدا يحركهم بتلك الخيوط، وأنها تخشى على ابنها نفس المصير.. وفي هذه القطعة الأخيرة، تقول إن ابنها قد مات و.. وأنها تكره تلاعب الزمن بها، ذاك الذي أعطاها بعد أن حرمها ثم حرمها من بعد عطاء. أسماء من تتحدث عنهم غريبة للغاية كذلك، وأسماء الأماكن.. بل لهم وحدات يعدون بها الوقت تسمى شهورا..

كانت عيناه تلمعان في براءة، وهو يعلن اكتشافه الذي أرسل الصواعق في عمودي الفقري، وشاب له شعري فوق شيبه.

ـ تلك.. تلك الشهور لها أسماء مثل أسمائنا! يناير.. أول شهر في ما يسمونه عاما.. وهناك فبراير وديسمبر.. عندهم أسماؤنا الاثنا عشر شهورا!

وليشهد الخالق أنني أقول الصدق يا سيدي ديسمبر ولا شيء غيره. لم أجد وقتها ردا غير الصمت، ثم مشاركته الانقطاع عن الزاد والتحديق في قطع الجلد الخمس.

كنت أشعر أن بميلاد يناير، بوابة ما ستنفتح علينا، هول سيسقط فوق



رؤوسنا أو نعمة من السماء ستتجلى. لكن حيواتنا لن تعود كسابقتها من قبله أبدا.

نصحت يناير أن يكتم خبر رسائله عن أي مخلوق، خاصة إنتروبي. فتلك الفتاة دائما ما تجذب الأنظار إليها، ودائما ما يتبعها الفضوليون بحثا عن الحقيقة وراءها ووراء أخيها.

شغل فكر يناير كثيرا سؤال واحد «هل كانت أمي لتحبني لو عاشت لتراني؟» كنت أرى في عينيه بحثا عن أم في قلب أخته، التي صارت تكبر وينحني ما كان مسطحا في جسدها من قبل. من جسد كهذا تنبت بذور الرجال لتنمو أطفالا ورجالا ونساء.

وكان يناير يكبر، وتزداد عيناه اتساعا وتعلقا بالسماء، بينما تضيق عينا أخته مكرا وتعلقا بالأرض. لم أكن أخشى عليه فتنة النساء، فلن تجرؤ إحداهن على الخوض في قرية التراب البائدة، لكنني كنت أخشى الفتنة على شباب القرى المجاورة، وأخشى عليهم ما تتناقلة الأقاويل حول حورية التراب حمراء الشعر، إنتروبي.

بالنسبة لي يا سيدي، كانا بعد طفلين على أعتاب المراهقة، يزداد حملهما علي، ويزداد إهمالي لمرافقة يناير في مقابل مراقبة إنتروبي اللعوب طيلة الوقت.

حينها، عرفت من تناثر الحديث في الأقوام، أن الكثيرين قد شاهدوا يناير خارج منطقة قرى التراب، تحديدا، على شواطئ البحر حيث تنتهي حدود العالم. يرونه يحمل أخشابا من الغابات ويلقيها في اليم، فتطفوا! ثم تحملها الأمواج تحت قدميه مرة أخرى.

تبعته خلسه فرأيته ينتظر رحيلي إلى قرى الهواء، ويتسلل في رحلاته إلى أطراف القرى الأخرى. يستكشف، يجمع رسائل مكتوبة له على أوراق الأشجار، أو ربما يجلس أمام نيران مستعرة يستمع إلى حسيسها وينقش على أحجار يحملها ويدفنها تحت سريره.

استغرقتني متابعة يناير أياما، يرحل مع مغيب الشمس وقت نوم إنتروبي، ويعود مع شروقها وشروق أخته.



في اليوم الذي قررت فيه أن أواجهه بما أعرف عن رحلاته، وأنبهه لخطورة الخروج عن ما رُسم له من حدود، تبعته في رحله عودته من قرى الماء.. دخل إلى غابات قرى التراب وتحاشى المرور على المناطق المأهولة فتبسمت لحذره. حتى رآه.. كان ثورا ضخما محمر الفراء لامعها، يقف وسط الأشجار ينظر ليناير حتى تأكد من أنه يراه أيضا، ثم فر هاربا إلى قلب الغابة. جرى يناير خلفه كأنه رأى في عينيه رسالة ما. تبعته متكئا على عصاي، أحاول ألا أتعثر أو ألفت نظره لي. في وسط رقعة خالية من الأشجار في وسط الغابة، كانت هناك، وليدة تبكي وتركل الهواء.

أراها، فأرى يناير الوليد يوم سمعت نداءه وسط العواصف، وأتساءل أي قدر جمعه هنا والآن مع مايو البائسة الملعونة؟

كما تعلم يا سيدي، فمحرم علينا الحديث معها أو مرافقتها، شفقة بالمصير العجيب الذي كتب عليها للأبد. وتساءلت في نفسي وقتها، هل أحذره وأوفر عليه وعليها الانكسار والأمل الموؤود من قبل ولادته، أم أنتظر وأرى؛ ربما يقدر، ربما يكسر الحلقة.. ربما يعطي الأمل فيباد كما أبيدت قريته.

ظل قصير أراه على الطرف المقابل وسط الأشجار. أحدهم يتلصص أيضا على يناير ولكن من؟

درت في تؤدة حول يناير الجاثي، يرى لأول مرة مولودة في هذه السن. يتشممها الثور ويتشممه.. يخور ويحفر الأرض تحت قدميه، وعلى فرائه يتلقى أولى أشعة شمس اليوم.

اقتربت من المتلصص حتى رأيته ورآني، فاتسعت عيناه ذعرا وتغير لون شعره الخشن المنفوش فوق وجهه على شكل نصف دائرة من البنفسجي للأخضر الباهت. وضعت إصبعي أمام شفتيّ محذرا إياه من أن يصدر صوتا. اقتربت حتى أمسكته من قذاله وسحبته بعيدا.

كان أبريل، هو الطفل الفضولي الذي تبع يناير من قرى النار حيث يذهب أحيانا. ولما كنت أعلم أن أبريل لا يكذب إطلاقا، فقد صدقت



الصدفة التي جعلته يتبع يناير، ربما يحكيها لك بنفسه يا سيدي ديسمبر حين يأتي دوره.

لم أكن أعرف وقتها أن مراقبة يناير ستكون شغلي الشاغل لأيام عديدة، فما رأيته قد سحبني تماما من عالمي، حتى إنني كنت أصطاد وآكل في مكاني دون أن أعود إلى بيتي. فقط اكتفيت بأن أرسل أبريل ليُطمئن أهلي وكفى.

كان ثلاثتنا، أنا وأبريل ويناير، نتخفى في الأشجار، لا يعرف يناير بوجودي أنا وأبريل ولا يعرف أبريل بوجودي، نرقب الحدث العجيب المقدر على مايو. مايو، تبدأ رضيعة وليده مع الشروق ويزداد عمرها تدريجيا حتى قبيل الغروب تصير شيخة، وتموت فتفنى ومن ترابها تنبت وليدة رضيعة مرة أخرى. ما بين الولادة والموت، نراها تجلس، ساكنة، تحملق في السماء منتظرة الموت والفناء. يستطيل شعرها فيتشابك مع الأشجار والجذور حتى تظنها من بعيد نبته عجيبة.

كنت أعرف قصة مايو، لكنني لم أرها من قبل. لم يسأل أحد عن سبب لعنتها وما إذا كانت لعنة، فكل منا كما تعرف يا سيدي يولد بزمنه الخاص، فمنا من يشيخ ويثبت على شيخوخته مثلي.. ومنهم من يظل شابا للأبد مثلك، ومنهم من يولد كبيرا ويصغر، ومنهم من يكبر في العمر أسرع أو أبطأ من غيره، وهناك من تنقضي حياته ويبعث في مكانه كل يوم، مثل مايو التي لم نر لها مثيلا.

كانت علاقة يناير بمايو يا سيدي ديسمبر أيضا بلا مثيل. ففي يوم قراره الاقتراب منها، أحضر لها حليبا وأطعمها، هدهدها حتى نامت، علمها كلمات تنطق بها، علمها اسمه وأسماء الأشياء، وكانت تدعوه أبي ويدعوها ابنتي، صادقها وتمشى معها يدا في يد حين وصل عمرها عمره، يدعوها مايو وتدعوه يناير وحين تجاوزته عمرا، كانت تريح رأسه على فخذها، تداعب شعره وتسمع منه حكايات رسائله، يدعوها أمي وتدعوه ابني. ثم تموت في حضنه، يبكي وينتظر أن تبعث من ترابها ابنة له من جديد.

راقبته وبكيت حتى جرت الدموع أنهارا في لحيتي، رأيت الأمل في



عينيها، أن تحيا ولو ليوم واحد.. أن تجد من تفتح عينيها على ابتسامة مضيئة في وجهه، ومن تغمض عينيها على دموع فراقها في مقلتيه.

رأيت الأمل في عينيه، أن يجد ابنة لن ينالها، فلن ترضى به أيهن زوجا، ووجد الصديقة التي أبت أخته أن تعطيه إياها، ووجد الأم، التي تسمع همسه وآلامه، وتموت في أنس ذراعيه.

أعتقد يا سيدي ديسمبر، وللمرة الأولى أصرح بهذا، أن قرية التراب البائدة زالت لإعطائها الأمل للناس. وأنت تعلم يا سيدي أن الأمل هو الألم. أن تطارد سرابا يبعد عنك خطوة كلما اقتربت منه خطوة.

وكما توقعت، مع الوقت استبدل بالأمل في عينيها ألما، سؤال بلا جواب، صرخة أسمعها وإن همست بها إليه في احتضارها.

ـ لمَ فعلت ذلك بي يا يناير؟ كنت قد فقدت الأمل منذ زمن، أحيا منتظرة الموت كل يوم، لم جعلتني ابنتك وصديقتك وأمك ما دام كل ذلك سيفنى في كل لحظة أحياها معك؟

ـ لمَ فعلت ذلك في نفسي يا أمي؟ أحتاجك ابنة فتصيرين صديقة، أحدثك وأمزح معك وأجري خلفك فتصبحين أمي في لحظات، أندس في دفء صدرك فتزفرين روحك وتتخلى ذراعاك عن جسدي.. لمَ فعلت ذلك في كلينا؟

يكتب يناير كلمة على الأرض فتقرأها مايو في وهن، تكتب له شيئا. يبكي يناير بينما تموت مايو، أبكي، يعلو صوت نشيجي فيلتفت يناير إليّ.. أسير إليه مثقلا بذنب المعرفة، أركع بين يديه وأطلب المغفرة.

ـ الأمل هو أول الخطايا يا بني. سامحني لاقترافي الأمل في حقك.. سامحني لأنني لم أتركك تمت.. لقد طعنتك بأمل أن تظل سالما وسعيدا، أن تجد أما وأختا وابنه ككل الخلق.. سامحني!

بكينا معا حتى انقلبنا على ظهرينا منهكين، تعكز كلانا على كتف الآخر



وعدنا لدار يناير في الشروق، لنجد فراش إنتروبي خاويا! نادينا وبحثنا تحت كل حجر.

كدت أصرخ «كفى، ألا يكفي يناير ما يحدث له كي يتحمل ذنب نسيانه أخته أيضا؟». كدت أتمنى أن تزول إنتروبي فلا يزيد حمل يناير أكثر. كدت أتمنى أن نفنى جميعا فلا نعود عبئا على أمله المكسور.

تقوقع يناير في وضعه الجنيني رافضا أي طعام أو شراب.. كنت أحايله أحيانا وأضربه أحينا كي يأكل. تراكمت حوله الرسائل، لو رأيت ما رأيته لفزعت يا سيدي ديسمبر. كانت الرسائل منقوشة على الحوائط الطينية وتراب الأرض وتجعيدات وثنايا جلده، وكنت عاجزا عن قراءة أيها.

ساقتني قدماي في يأسي إلى الغابة مرة أخرى، فوجدت مايو، شابة مطعونة في صدرها بقطعة خشب، ويبدو أنها قتلت منذ أيام. صرخت رغما عني فطارت العصافير فزعا. لم قد يقتل أحد مايو البائسة؟

الباقي تعرفه أنت يا سيدي ديسمبر، فقد استدعيناك في المساء وجلست في ضوء المشاعل تتفحصها.

دعوتني يا سيدي ديسمبر أن اقترب فاقتربت. قربت مشعلك من كتابة على الأرض جوارها، كتابة علمها لها يناير قطعا، فأنا الوحيد الذي رأيت نقوشا مثل تلك. تظاهرت وقتها بأنني لا أعرف ما تلك النقوش، نظرت لوجهك المتخفي في الظلام علني أقنعك بجهلي. ملتَ وأنت بعد تنظر للكتابات على الأرض وهمست:

ـ يناير يا صديقي من قتل مايو، أليس كذلك؟
ـ ما الذي تقوله؟
ـ فلتتفرقوا أيها الناس، ولتعدوا قبرا للمرأة.

همهم الحاضرون متسائلين عن القاتل، فنهرتهم يا سيدي بصوت لم أدر أنك قادر على إطلاقه. تفرقوا وجرى كل في اتجاه، وتركوني وحدي معك بيننا الجسد المسجى لمايو.

- يناير من قتلها يا سيدي فبراير، هذه هي كتاباته..لا تتظاهر بأنك لا تعرفها، فقد كفلت يناير وقد حذرتك.

- من أين تعرف أن تلك كتابات يناير؟ إنها مجرد أشكال ربما صنعتها مايو نفسها..

- بفرض أن مايو رسمت هذه المجموعة من النقوش، من رسم تلك المجموعة؟ اختلاف اتجاه الخطوط واضح.

وبالنبرة صوتك الهادئة يا سيدي، شيء مخدر فيها يدعوني للاعتراف، للبوح والبكاء.. تماسكت بصعوبة شديدة وأنا أعرف أنك تعلم الحقيقة كاملة من شخص ما، لكن من هو؟ أبريل؟ أم أن هناك متلصصين آخرين على حياة يناير؟

قطع حوارنا صوت الخطوات السريعة تقترب نحونا، انفرجت الأشجار عن يناير المندفع تغطي وجهه الدموع. انكفأ على جسد مايو ينهنه، يتمالك نفسه مبتسما ويملس على شعرها، وما يلبث أن ينهار مرة أخرى ويصرخ.

لم أعرف يا سيدي لم قررت الصمت عن استنتاجك بشأن يناير. فقط ابتعدت مختفيا في الظلام.

أمسكتُ بكتفي يناير ورفعت وجهه نحوي. أسأل سؤالا يعز عليّ النطق بحروفه:

- لمَ قتلتها يا بني؟ أعني.. أنا متفهم للسبب، ربما كان قتلها أفضل.. لكن...

- أنا قتلتلها بالفعل يا سيدي فبراير، أعطيتها بعد حرمان ثم حرمتها من بعد عطاء، تماما كما حدث مع المرأة في الرسائل.. أنا من فعلت ذلك بكلتيهما..

يتحدث هو عن قتل مجازي، وقد انفلت تعقله وشرع يلوم نفسه على أمر لم يقترفه لامرأة لم يقابلها في حياته.



رأيت أبريل يتلصص من خلف شجيرات هناك، اقتربت منه تاركا يناير يخرج كل انفعالاته ليهدأ. كان أبريل فزعا، مخضر الشعر، تتسع عيناه في وجهه البني اللامع. ربت على ظهره ليطمئن قليلا، كان هو من أبلغ يناير عن موت مايو، وهو من رأى قاتل مايو الحقيقي.

ما يهم هو أنني تأكدت من أمر واحد، يناير هو اللعنة المنصبة علينا من السماء، والابتلاء الذي سنحشر به في العذاب الأبدي.

كان جالسا جوار مايو، عيناه مثبتتان إلى السماء وهو يكرر بلا انقطاع «يمكنني إصلاح ذلك.. يمكنني إصلاح ذلك». لن يهدأ يناير ولن يمل وسوف يكرر ما أهلكت به قريته.. عليك اللعنة يا يناير ما زلت تملك أملا!

كان القوم يتهامسون بعد دفن مايو، ينظرون نحوي ويتحاشون تفسير ما يسرون بينهم. لقد سرت الشائعة أن يناير قتل مايو، قتل امرأة لم ير أغلبهم وجهها من قبل ولم تخطر على بال القلة ممَن رأوها. لقد قتل يناير الميتة الحية ولا بد من الثأر.

كنت أعلم يا سيدي ديسمبر أنهم سيسعون للثأر، فقط كي يلمسوا يناير ويقطعوا عنه ثيابه، كي يمسوا جسده ويحدقوا في عينيه، كي تحدق النساء في ما حرم عليهن. يرجمونه ويدفنون حطامه في موضع ما تحت أقدامهم. سيطأونه متعمدين في طقس ديني مهووس. سينظرون في عينيّ ويقولون «ألم نقل لك؟ لقت آويت النجس القاتل».

قمت أولهم ومشيت مسرعا نحو قرية التراب البائدة، هناك وجدتها، إنتروبي، تحتضن قدمي يناير وتبكي بينما نظرة عدم تصديق تحتل مقلتيه.

ـ سامحني يا يناير.. كانت غيرتي أقوى مني، لكنني، صدقني، لم أقتلها.. لم أمسها حتى.. كان لا بد لأحدنا من أن يكسر الحلقة يا يناير.

جررتها من شعرها، فدائما ما تبدأ إنتروبي الشر.



ـ ماذا فعلتِ؟ أنتِ قتلتها وحمل أخوك وزرها.

ـ لم أفعل يا سيدي فبراير.. اسمعني.

ـ لم تفعل يا سيدي فبراير.. إنتروبي لم تقتل مايو، إنتروبي أشارت لها فقط إلى باب الخروج فخرجت. مايو قتلت نفسها.

حدثتني إنتروبي عن الموت، عن الفناء، عن الفعل الذي لا يمكن عكسه أبدا. كانت شغوفة بالاندثار، تراه هو المنفذ الوحيد خارج دائرة الحياة. لم يقتل أحدنا نفسه من قبل، فكره غريبة من أين لإنتروبي بها؟

ـ لقد كنت أتلصص على يناير يا سيدي فبراير.. كنت أنبش تحت سريره وأقرأ ما يخبئه.. نعم.. أنا أيضا أستطيع قراءة تلك الأشياء لكن وحده يناير من يستطيع أن يجدها. يناير يعلم ما أعلمه لكنه لا يفعل شيئا.. أنا وجدت حلا لعذاب مايو في رسالة ليناير، ونقلته للمرأة البائسة بينما كان يتلذذ يناير بالألم.. أنت مريض يا يناير.

صفعتها.. رغم صدق كلامها وقسوة منطقها صفعتها. رغم تقصيري معها وانشغالنا عنها. للحظات تخيلتها تشاهد يناير يهدهد مايو طفلة، يمشي معها تحت الأشجار شابة، ويحتضن موتها شيخة، تخيلتها تراني وقد شغفني يناير حبا فتركت ما ورائي ومضيت أتبعه، أسمعه، أحميه، بينما لم نسأل أنفسنا كيف تعيش ولا ماذا تفعل.

أمسكت إنتروبي قطعا من الأخشاب محملة بالنقوش، وراحت تقرأ لي من عليها قصص أشخاص حاولوا قتل أنفسهم بطرق بشعة. لم أتخيل قط أن هناك من يقدر على شنق نفسه أو قطع عروقه، أو التردي من فوق الجبال طوعا.

تصورت لو أن الأقوام قد عرفوا حقيقة كهذه، هل سيصبر أحد على شدة؟ أم ستمتلئ الطرق بأجساد من فارقوا الحياة بإرادتهم؟

لم أصدق أبريل حين أخبرني أن إنتروبي كانت ترافق مايو أحيانا، بعد ابتعاد يناير عنها، وأن مايو قد خلعت فرعا مدببا من شجرة وغرسته في صدرها بنفسها! لكن أبريل لا يكذب إطلاقا، وقد تأكدت الآن.. يا لثقل المعرفة يا سيدي ديسمبر، فقد أحنت ظهري على انحنائه، وأضافت أعمارا إلى عمري.

يناير لعنة، بدون يناير لن تصل الرسائل إلى إنتروبي، بدون يناير سنظل كما نحن، ندور في مضمار مغلق آمن.

من بعيد، أسمع ثغاء القوم تحمله الظلمات.. إنهم يقتربون. أرى فؤوسهم ومناجلهم تلتمع في ضوء المشاعل، الموت ليناير.. أسمعها وإن لم ينطقوها.

نظرت لي إنتروبي في ذعر، ثم لأخيها الجالس مطرقا إلى الأرض منفصلا عن العالم. نظرت تجاه الأصوات المتصاعدة، ثم فرت في الاتجاه المعاكس.

تلاقت أعيننا، أنا ويناير، ثم انحنى هو يمسك بحجر مدبب الطرف. تهتز كفه المطبقة عليه وهو يحاول أن يرشقه في عنقه فلا يقدر. يلهث في إنهاك بينما أرى وجه أول من يصل من الأقوام، والشرر يتطاير من عينيه، اقتلوا يناير..

كيف عرف الناس أن من قتل مايو هو يناير؟ لا أزال أتساءل يا سيدي ديسمبر وبي عشم أن تجيب.. أنت وحدك من يملك الإجابة.

ناولني يناير الحجر وأغلق عينيه، بطرف إصبعه كتب ما كان يكتبه دوما جوار مايو، وهمس.

ـ هناك دوما أمل!

* * *

اعترف فبراير بأنه من قتل يناير طعنا بالحجر، فقد كانت تهمة يناير الأمل، وباعترافه وبخط يده. همهم القوم غير مقتنعين وراح كل منهم يصيح «كاذب، أنا من قتل يناير» حتى عمت الفوضى الأرجاء. صاح



فيهم ديسمبر بصوته الجهوري الذي لم يتخيل أحد أنه قادر على إصداره، فسكتوا.

- إذن، أنت من قتلت يناير؟

- نعم يا سيدي ديسمبر.. فقد علمت أن وجوده شر، وعلمه شر، وجهله شر، فقلت فلأنل أنا هذا الشرف دون الباقين. قتلته ودفنت جثته قبل أن يصل أحد.

- وبذلك يكون ما علمه يناير وباحت به أخته لمايو هو ما قتل الأخيرة، أي إن يناير هو من قتل مايو؟

- لو أن هناك ما قتل مايو فهو الأمل، لقد ماتت قبل موتها الأخير بالأمل يا سيدي ديسمبر.

أذن ديسمبر لفبراير بالجلوس بعيدا، وأمر مارس أن يتقدم للشهادة. أزاح مارس خصلات شعره المخلوقة من الذهب عن جبينه، وأنزل منجله عن كتفه وبصوت لا يهتز قال:

- أنا قتلت يناير يا سيدي ديسمبر، ولي سببي.

* * *



شهادة مارس

كلنا نعلم يا سيدي أن قرية التراب البائدة زالت لأنها قسمتنا ففرقتنا، بعد زوالها عدنا يدا واحدة ولن نقبل بالفرقة مرة أخرى.

لذا، حين كنت طفلا مع رفاقي من قرى الماء، كنا نلعب حول حدودنا مع قرية التراب البائدة بعد ميلاد يناير وأخته. نحطم قانونا مقدسا فقد كي نرى لمحة منه.. أو منها..

لو طلبت مني أن أصف إنتروبي بكلمة واحدة لقلت لك: مغوية، لو طلبت مني أن أصف لك يناير بكلمة لقلت: أناني.

بعد انتهائي من العمل في حرث الأرض وبذر البذور وبيع الشتلات لأقوام الماء والنار والتراب، كنت أتسلل خلسة من أهلي وأراها، وحيدة، جميلة، تحاول لفت انتباه العجوز الخرف فبراير، لكنه كان مدلها بأخيها الضعيف، يعلمه ويحدثه، يغفر له زلاته بينما ينهرها على شقاوة طفولتها. كانت تنظر لنا من بعيد مستجدية اللعب، يمنعني أقراني من دعوتها، فكنت أنصاع خوفا من أن يشي بي أحدهم لأبي.

أذكر جيدا أنه كان موسم زراعة البرسيم، وكنت محملا بحمل من بذوره الصغيرة حريرية الملمس، وكانت هي في الغابة تكسر أواني من الفخار، وترقب تناثر شظاياها في افتتان لم أفهمه حينها. يبدو أنني كنت



أقترب منها كالمنوم، فوطئت قطعة فخار مكسور انغرست في باطن قدمي فسقطت أرضا أكتم أنيني. رأتني فأجفلَت، تعلقت عيناها بالبذور المنثورة حولي، فراحت تركلها بقدمها الحافية لتتناثر أكثر وأكثر في كل صوب.

دون أن تلتفت لي، مدت ذراعها حتى الكوع في كومة البذور المنسكبة جواري، أغمضت عينيها وحركت كفها تستمتع بالملمس الناعم للبذور، كأنها اكتشفت فردوسها المفقود. رحت أنا أستكشف فردوسي الخاص ولمست أخيرا خصلة متدلية متوهجة من شعرها.

نظرت لي، سحبت يدي، ضحكت، حملت بكفها حفنة بذور وجرت، نثرتها كلها في طريقها ووقفت في نهايته تنظر لي وتبتسم.

كانت ابتسامتها بمثابة سهم فلت من قوسه وأصاب قلبي. كنا نتلاقي للحظات كل يوم، نظرات، ابتسامات، تجري فلا أجرؤ على الجري خلفها حتى لا أقابل أخاها المهووس يناير. كان يجمع في جنون كل ما تبعثره، ويلحم كل ما تكسره ويرأب كل ما انصدع من لمساتها.

لكنني أشهد يا سيدي ديسمبر أنها أحبت أخاها، وقد جرحها كثيرا انشغاله عنها في جنونه المقيت، حتى استسلمت وقررت أن تجد لها حياة بعيدا عن أخيها ومعلمه المخبول.

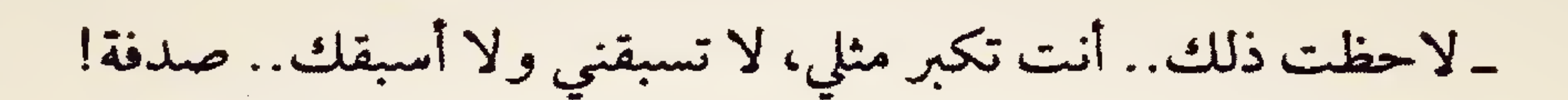
في ليلة كنت نائما، فصحوت على حجارة تقذف على جسدي المتدثر بغطاء خفيف. نظرت ووجدتها هي، إنتروبي، جاءت لبيتي بنفسها تطلب رفقتي.

خرجت متسللا، أمسكت معصمها وعدونا حتى دارتنا الأيكة في أحضانها. كنت ألهث فيتصاعد البخار من فمي، تراقب اختفاءه في الهواء، تمد يدها إلى شعري وتتساءل:

ـ هل هذا شعرك؟ شعرك.. ليس شعرا.. معدن.

ـ هذا شعري.. ذهب.. يزيد حلقتين كلما كبرت في السن.. على رأسي الآن أربع وثلاثون حلقة..





- لاحظت ذلك.. أنت تكبر مثلي، لا تسبقني ولا أسبقك.. صدفة!

تضحك، فأضحك.. بالفعل نكبر بنفس المعدل، وكذلك يفعل يناير. بينما بعض رفقاء طفولتي لا يزال طفلا وبعضهم صار كهلا. لا يستطيع أحد التنبؤ بشيء بشأن الأعمار، لكنني شعرت أن هناك قدرا أكبر يجمع ثلاثتنا لكنني لم أفكر فيه كثيرا، ما أهمني هو أن أنهل من إنتروبي قدر المستطاع.

- مارس.. أنا وحيدة.. لا أعرف في الدنيا سوى يناير وفبراير، وأنت.. وقد تخلى الأول والثاني عني، فهل تفعل أنت أيضا؟
- بالطبع لا! سأرافقك متى شئتِ وسأفعل لك أي شيء يسعدك.

كنت صادقا يا سيدي ديسمبر، وقد فعلت ما استطعت كي أسعدها دون أن ينكشف أمرنا. كان أبي، مارس الحزين كما يسمونه، هو من حضر يوم وجدوها وأخاها مولودين من أم عجوز، هو أول من قرأ الرق الذي كان يناير يقبض عليه وأول من فر وعاد إلى بيته يومها يرتجف ويحكي لأمي ما رآه من هول.
أنا لم أر شيئا من هذا ولا أهتم لما حذرنا منه ولا ما حذرنا منه الآباء. إنتروبي اختارتني أنا بالذات، ولن يقف أحد ضد رغبتي إذا ما قررت يوما أن أواجه الجميع بحبي لها. أنا، مارس المفضل، كل الأقوام تحبني، كلهم يأكلون من زرع عائلتي، كلهم يحتفلون بيوم خاص لأسلافي ممن أخرجوا الخير من باطن الأرض.
من أجل إنتروبي، كنت أحضر البذور لتنثرها في طريقها كل موسم، ليظل طريقها أخضر يانعا في كل وقت. كانت الأرانب تأكل منه والأيائل والثيران البرية. حتى الثور الأحمر الوحيد كان يقتات على زروعه.
كنت أجري خلفها مداعبا وقد اقترب الفجر، أتلمس خصلات



شعرها التي تتبعها كموجات حمراء من حمم تنسيني أنني لم أنم منذ عرفت حورية التراب حمراء الشعر وسقطت في شباكها. حتى رأت الثور الأحمر يعدو في طريق ضيق بين الأشجار. مدت يدها تطلب يدي، وعدونا خلفه نلتمس مغامرة جديدة علها تنسى انشغال أخيها عنها، علها تنهك فتنام فتنسى أمر ما تقرأه من رسائل أخيها المخفية تحت فراشه.

توقف الثور في فرجة بين الأشجار، ورأينا يناير مع الملعونة أبدا، مايو. لم أكن قد رأيتها من قبل وإن كنت كالجميع نعرفها سماعا. أسندت ذقني على كتف إنتروبي البلورية، بينما تمسكت هي بفرعين كأنها تغالب السقوط. أكاد أسمع دقات قلبها تتسارع بدلا من أن تتباطأ بعد توقفها عن العدو. نظرت لعينيها فرأيت انعكاس أخيها يناير، يهدهد الوليدة النابتة من بطن الأرض، يمسح عنها الطين والأوراق الجافة. يقطر على شفتيها حليب الماعز فتلعقه، وتكف عن البكاء.

ـ إنتروبي.. فبراير العجوز هناك على الجانب الآخر، ربما يرانا. فلنرحل.

ـ ارحل أنت..

شاردة، لا تطرف، تتجمع دمعة صغيرة على طرف جفنها السفلي، تأبى الانزلاق. في طريق عودتنا، كانت إنتروبي تمشي صامتة، تمسح عيناها كل فينة كأنها تزيح شعرها، بينما أرى التماع الدمع على ظهر كفها في ضوء الشمس الخجلى.

ـ ماذا حدث يا زهرتي؟

ـ لا شيء.. أريد أن أنام.

ـ يمكنني أن آخذك إلى الجبال في قرى النار وأجمع لك الحجر البـ...

ـ لا أريد أحجارا.. كفاني.

تركتني وعدَت نحو بيتها، لم يطاوعني قلبي أن أتركها فعُدتُ، وجدتها



جالسة تقرأ من كتابات يناير وقد تركت دموعها تسري جداول على وجنتيها. اندفعتُ نحوها أخبئها بين ذراعيّ، فألقت ما بيدها وغاصت في صدري. ولتعلم يا سيدي ديسمبر أنني لم أمس امرأة قط سوى إنتروبي، ولم أمس أكثر من يدها وأطراف شعرها قبل ذلك اليوم.

كانت كالجمرة المتقدة، أرسلت حممها تتدفق في عروقي، اكتشف للمرة الأولى ما يمكن لجسدي أن يفعله لو فقط أطلقت له العنان.

تبعثرت الموجودات حولنا، تفجرت الأوعية الفخارية وتعلقت شظاياها في الهواء، تطالبني بالمزيد فأزيدها، تعصف الريح بأوراق الأشجار الصغيرة فتنخلع من منابتها وتظللنا كأننا في فردوس سحري. ذرات الغبار تحت جسدينا تنطلق إلى الأعلى، تدور وترقص حولنا.

أغلقت عينيّ، فما أراه لا يمكن أن يكون حقيقيا. أسمع صوت غليان الماء في الأواني، ارتجاج الطين في الحوائط، زفراتها على رقبتي تذكرني بأنني ما زلت هنا، أروي زهرتي الفريدة العطشى.

كانت إنتروبي زهرتي أنا ولن أتخلى عنها، جمعت ثيابي وهرعت من فوري إلى أبي أطلب منه أن أتزوجها.

مارس الحزين، كما نعرفه جميعا، لم يتبق له من أبناء غيري، وكنت أنا المتوج ومحط أنظار العذراوات. تبعث لي كل عائلة بجميلاتها يأخذن الشتلات مني. تأخذ كل منهن عشمها معها وهي راحلة، فقد عرفن أن مارس لن يقع في حب فتاة مثلها كثير.

وكان مارس الحزين يتعشم أن أدخل الفرح إلى نفسه أخيرا، بزوجة من أشراف بني الماء أو الهواء أو حتى التراب، حتى لطمه طلبي أن أتزوج إنتروبي.

قام من جلسته فصلصلت الحلقات المتين الذهبية فوق رأسه، ولقيامه هيبة تعرفها يا سيدي ديسمبر، ثم رفع يده وهوى على وجهي.

لم يتكلم، لم ينطق حتى، شبك أصابعه في شعري وجرني إلى الحظيرة، برك فوق ظهري ودفن وجهي في الروث ثم رفعه وهمس في أذني:



ـ هكذا.. هكذا تلوثت بابنه الملاعين.. ابق هنا حيث اخترت أن تكون، فإما أن تعود لرشدك، وإما أن أدفنك وسط الروث، ولن يضير مارس الحزين المزيد من الحزن.

بضربة من ذراع الفأس كسر ساقي، ثم أغلق الباب وانصرف. ليال مضت وأنا أسمع صوت حلقاته الذهبية ذهابا وإيابا خارج الحظيرة. أحيانا كنت أسمع صوت أنفاسه ونهنهات بكائه، لكنني أبدا لن ألين.

ما بين إغماءات وإفاقات، تشابه الوقت عليّ ولم أعد أعرف كم لبثت وسط الروث والقش. لكنني سمعت لغطا وصياحا وأصواتا غير معتادة في الخارج. تحاملت على ساقي ونظرت من النافذة العالية. كان يناير هناك، ممسكا بعصا طويلة في يد، وفي الأخرى حجر منقوش لا أميز ما فيه. وكان الناس ينصاعون لأوامره ويحملون قوالب الطين اللبن؛ يقسمون الأرض بسور قصير.

زحفت نحو باب الحظيرة أقرعه، ففتح لي أبي الباب، كأنما كان في انتظار قرعاتي. نظرت له وللسواد تحت عينيه:

ـ إنهم يقسموننا من جديد.

لضخامته، كان حملي بيد واحدة سهلا عليه. خرجنا للضوء المبهر فزممت عينيّ. كانت ساقي متورمه وكدمة مائلة للاصفرار في وسطها. يبدو أن ساقي لم تتضرر كثيرا كما تصورت. صحت وقد ملأني غضب الدنيا لمرأى يناير أمامي:

ـ أنت.. ماذا تفعل؟

تنبه لصوتي، فابتسم في لزوجة وتقدم مني، خلفه أبريل يحمل أسفارا



من جلود مدبوغة. وجّه القطعة الحجرية نحوي وراح يشرح:

- أهلا يا سيدي مارس الحزين.. أنا يناير يا سيدي مارس الخير لو لم تكن تعرفني. وهذه.. هذه خريطة للزمن الجديد.

ومد يده نحو أبريل فأعطاه الأخير لفافة عليها رسم معقد للغاية.

- وهذه، ساعة.. فقط نحتاج حوتا وقد أرسلت لجلبه.

لمَ قد يحتاج هذا المسيخ إلى حوت لصنع... لصنع ماذا؟ ساعة؟ ما هي الساعة؟

لدهشتي، رأيت القوم يحملون حوتا فخاريا مجوفا، لا بد أن قوم التراب قد صنعوه. الحوت فيه دلاء وماء وأنابيب لمرور الهواء. فوق ظهر الحوت، لوح خشبي مثبت عليه قرص مقسم إلى اثني عشر قسما. على رأس كل قسم اسم من أسماء قبائلنا الإحدى عشرة، أولها باسم يناير.

جلست وأبي ننظر إلى هذه الأعجوبة الجديدة، تتوالى علينا الشموس والأقمار والناس يعملون في حماس عجيب. هذا الدجال قد صنع «الساعة» على هيئة حوت وهو رمز قبيلتي. لا بد لذلك من معنى خبيث ما. ملأ قوم الماء الحوت بماء من عندهم. وسرت في أنابيبه الرياح من ناحية قوم الهواء، فصار يصدر نفيرا كلما تحرك المؤشر في القرص من اسم إلى اسم. بالطبع الطين الذي صنعوا منه الحوت من أراضي قوم التراب، والنيران التي احترق فيها الفخار نبعت من براكين قوم النار. بدت لي تلك «الساعة» كحيلة يكسب بها ود الجميع، تبدوا كرمز يوحدنا، ويسترضي قبيلة مارس خصيصا، لكنني لم أزل أرى المعنى الباطن كلما نظرت إلى القرص وتقسيماته.. إنها التفرقة مرة أخرى.

كنت أنتظر أن ينام أبي أو ينشغل حتى أعود وأبحث عن زهرتي، التي لا بد أنها تعتبرني نذلا قليل التربية، إلا أن أبي لم تطرف له عين منذ بدأ



الناس في التجمع حول «الساعة»، وصارت حديثهم وشغلهم الشاغل.

في يوم بدء «الزمن الجديد» كما يطلق عليه المسيخ يناير، اجتمعت الأقوام في منتصف عالمنا، تحت الساعة العملاقة، ينظرون إلى يناير بمسوحه وعصاه، وتلميذه الصغير أبريل بشعره الأرجواني وأسفاره بين يديه. أما المخبول العجوز فبراير، فكان ينظر لربيبه في فخر كأنه هو من خلق يناير فأبدع.

مد يناير يده إلى فبراير، يساعده على ارتقاء التلة الصغيرة التي ثبتوا فوقها الساعة. صاح فبراير بصوته الجهير «يا قوم» فسكتنا إلا من صوت بكاء رضيع هنا أو سعال مريض هناك. لكن.. أين إنتروبي؟

ـ يا قوم.. إنني لأكبركم سنا، وإن كان كل منكم ذا مقام محمود لدي. أطلب منكم أن تستمعوا، وتعوا، فما كان من حديثي خيرا لكم فآمنوا به، وما كان شرا فاغفروه لي.

هذا، ربيبي يناير، عنده من العلم ما ليس لأحد منا. وعنده من الألم والشجون ما مر علينا مجتمعين. لاحظ يناير أننا وإن بدونا متحدين، منقسمون. لنا ذات التاريخ واللغة والأرض، لكن لا يزال كل منا يأبى إلا أن يتزوج أقوام الماء بمثلهم، وأقوام الهواء بمثلهم. يحتكر البعض النار، والبعض الطين. يملك بعضنا الحياة ويتملك الموت البعض الآخر، بل إن بعضنا يحيا ويموت ثم يحيا في دائرة مفرغة من اليأس.

تقدم أبي، مارس الحزين، الجمع ليقف وسط كبار القبائل، فوجدت أنها فرصتي كي أبحث عن إنتروبي. صرت أتوكأ على فرع وأسير ببطء خارج الحشد دون أن يلاحظني أحد.

ـ لقد صنع يناير هذه الساعة، وقد علم من رسائل سماوية يتلقاها، أن الزمن أيام وأسابيع وشهور وسنوات. اليوم هو ليل واحد ونهار واحد.



لكل قبيلة منا في نهاره ساعة وليله ساعة. نبدأها في الساعة رقم واحد وأطلب الإذن منكم أن تكون ساعة يناير كشكر له.

بدأت في التسلل إلى الغابة حين طلبت نوفمبر أن تكون الساعة الثانية ساعة فبراير، فهو الأكبر سنا والأحكم.

ـ شكرا لك يا سيدتي نوفمبر. أما الساعة الثالثة فهي ساعة مارس. فقد كانوا هم الأوائل دوما.

كانوا؟ كانوا الأوائل؟ كنت أنا الأول فصرت في يوم وليلة الثالث! لذا اشتروا صمتنا بالحوت الفخاري! تبا...

أكمل فبراير ضلالاته هاتفا:

ـ وكي نتذكر دوما فضلهم على الناس، فاختار يناير أن تكون الساعة على هيئة الحوت، رمزهم، وتتحرك بوزن الماء إكراما لقوم الماء جميعا. أما الساعة الرابعة هي ساعة الصدق.. أبريل.

توالى تقسيم الساعة اللعينة وأنا بعد أبتعد، قسموا الأراضي كل قبيلة لها قسم وساعة وشهر. لا أريد أن أسمع شيئا ولا أريد حتى أن أرى أحدا. همست باسمها علها مختبئة هنا أو هناك:

ـ إنتروبي.. زهرتي..

ـ أنا الصغيرة.. يونيو!

تجمدت في مكاني، همسات تحملها الريح القادمة من أرض الهواء. رددت في صوت خفيض «إنتروبي».. فعادت الهمسات الطفولية تردد «أنا الصغيرة يونيو».



تبعت الصوت وأنا أعدو، أهمس باسم زهرتي فيعود الهمس بصوت كالمروج.

تحت الأيكة وجدتها، مربوطة إلى الثور الأحمر، طفلة صغيرة زرقاء العينين، تحمل على رأسها تاجا من أزهار من الذهب، تقطع بقبضتها الصغيرة من شعر الثور وتنثره في الهواء فيحمله الريح بعيدا.

رأتني فاتسعت عيناها ذعرا، ثم ضيقتهما كأنها تعاني كي تتأكد مما تراه.

ـ أنت.. أمي؟

ـ لا يا صغيرة.. أنا رجل.

ـ اقترب كي أراك.

كلامها وصوتها أكبر كثيرا من هيئة جسدها الطفولي. اقتربت وهي لا تزال تضيق عينيها، مدت يدها وتلمست وجهي.

ـ آه.. لست هي.. في البداية ظننتك تمثالا من ذهب. فك قيودي.

ـ من قيدك هنا أيتها الصغيرة؟

ـ من بعيد كان يبدو كشبح يرتدي أسمالا، من قريب.. من قريب له وجه من الأمام وآخر من الخلف بين شعر رأسه. لكنه خالي وهو طيب.

لا يوجد أحد بهذه الصفات هنا، على أية حال يبدو لي أنها لا ترى جيدا، كما أن عقلها به شيء ليس على ما يرام. لا أدري لمَ فككتها وأنا بعد لا أعرف لمَ قيدها خالها. اسمها يونيو، ربما هي من إحدى قبائل قوم الهواء.

ـ من خالك يا صغيرة؟ لعله يونيو العادل؟

ـ لا.. خالي ذو الوجهين.

جرت نحو قطعة من طين، وراحت تحفر فيها بشغف وتقرب وجهها



منها كي تراها جيدا، فتلوث أنفها الدقيق بالطين. بارعة في النحت كأهل قرى التراب، شعرها من ذهب كقبيلة مارس. اسمها من أسماء قوم الهواء. جميلة كالحوريات. عمر عقلها لا يتناسب مع عمر جسدها مثل.. لا.. لا يمكن. تلك أساطير.

ـ هذا هو خالي ذو الوجهين.. تعال انظر.

ـ أعرف هذه الملامح.. هل تعرفين اسم خالك؟

ـ لا.. نسيته.. أنا أنسى كثيرا.

ـ هل.. هل يرافق خالك أشخاصا آخرين؟

ـ من بعيد يبدو أحدهم كبوق أبيض ضخم جهير الصوت، والآخر كشجرة قزمة سوداء الجذع. من قريب يبدو الأول كلحية عملاقة بيضاء تعلوها عينان، أما الآخر فلا يزال يبدو لي كشجرة تتحول أوراقها من الأخضر للأحمر للأزرق بلا توقف.

بالتأكيد تقصد فبراير وأبريل. يناير! خالها يناير.. ولا أخت له سوى إنتروبي! تلمست التاج الصغير على رأسها، وكان ينبت مباشرة من تحت جلدها، مثل تلك الحلقات على رأسي ورأس قبيلتي. تتفتح زهرة ذهبية صغيرة في مفرقيها بين أصابعي، بينما تنبت أخرى خلف أذنها. ابنتي يونيو تكبر أسرع مني، ابنتي يونيو أخذت خصائص عمر جدتها يناير الأخيرة!

ضممتها إلى صدري وعدوت، لن يأخذها أحد مني، ستظل معي أيا كان مصيرها، حتى وإن كتب عليها مصير يناير الأخيرة. هذه هي ابنتي، فأين أمها؟

عدت نحو دياري وكان لا يزال فبراير يوزع الزمن الجديد، لكل قبيلة ساعة بالليل وساعة بالنهار، لكل قوم ثلاثون يوما، أي ثلاثين نهارا وثلاثين ليلا. البعض له يوم زائد، أما فبراير فقد قنع بيوم تاسع وعشرين كل ثمانية وأربعين شهرا، أما غير ذلك فله أقصر الشهور. اثنا عشر شهرا تسمى عاما.. ومئة عام تسمى قرنا! ما كل هذا التعقيد؟ لمَ يرضون به؟

ـ سيكون عيد لكل قبيلة في شهرهم. لن يحتكر أحد صناعة ولن يتزوج أحد بقيود. من يولد في شهر يسمى على اسم الشهر لا على اسم قبيلته. فلنتمازج ونتحد ونعمر.

كانت تلك الجملة من يناير، صفق الناس وهللوا وقد التقطوا طعما دسه لهم الخبيث ذو الوجهين.

انطلقت الساعة تعمل في منتصف الليلة، بينما أنا جالس خلف الحظيرة مع ابنتي، أفكر كيف أخبر أبي بما حدث، وكيف أقدم له حفيدته، حفيدة يناير الأخيرة، دون أن يتوقف قلبه هلعا.

ـ أنت أبي؟ مارس؟

ـ نعم.. أنا أبوكِ.. أين أمك؟

ـ لا أذكر.. من بعيد كانت تبدو كشمعة بيضاء متوجة باللهب، من قريب كانت تبدو كـ.. كأمي! خالي يعرف أين هي، لكن لا بد أن تسأل كلا الوجهين، فربما يعرف أحدهما ما لا يعرفه الآخر!

لا أعرف لمَ ترى يونيو يناير بوجهين. ربما لطول شعره الباهت الذي يبدو بالفعل كوجه آخر عابس في مؤخرة رأسه! أم أنها تريد معنى مجازيا من وراء ذلك؟

ـ خالي له وجهان يا أبي، وجه ينظر للماضي ووجه ينظر للمستقبل.

ـ ما معنى ذلك؟ من قال لك ذلك الكلام؟ ما الماضي وما المستقبل؟

ـ أمي قالت لي.. قالت إن خالي هو الماضي والمستقبل، وإنما هي الروح والفوضى التي تؤكد مرور الوقت من الماضي للمستقبل. هي الفقد والولادة.. هي الانفجار الأول الذي خلقه الزمن، ومنه خلقت هي الزمن.

حاولت أن أسكتها، لكنها ظلت تتكلم وتحكي عن رسائل يناير التي



تقرأها إنتروبي، والتي تعرف محتواها يونيو بلا قراءة. تتحدث فيتعقد كلامها أكثر، تنمو الأزهار في سرعة على رأسها كلما تكلمت، تتحدث عن أرقام و.. «معادلات» حتى غدا كلامها طلاسم بالنسبة لي.

ـ اخرسي!

سكتت وهي تضيق عينيها وتنظر لملامح وجهي الغاضب. تمسك بحلقاتي الذهبية وتقترب مني فتقبل أنفي وتتكور نائمة!

انطلق البوق يعلن قدوم ساعة مارس، الثالثة بالليل. وضعت طفلتي العجيبة داخل الحظيرة ودخلت إلى أبي فهالني ما رأيت. تحولت كامل حلقات رأسه وذقنه إلى الفضة، ونحف وجهه واستطال وغاصت عيناه إلى مؤخرة جمجته. نظر لي في وهن وهمس:

ـ هذا ما فعلته ساعة يناير بنا.. يناير هو الهول تماما كأمه. وكنت تريد أن تتزوج بأخته! تعال.. اقترب.

اقتربت فسقط من كرسيه على ركبتيه أمامي، كان يشهق فأحاول أن أتبين ما يقول، ولا ينفك الدمع يغسل وجهي.

ـ قتلني يناير، قتلني الزمن، لك معه ثأر ما حييت...

مات أبي، هو الذي توقف عن الشيخوخة منذ ولادتي، ساعة يناير حركت زمنه فمات!

خرجت إلى الساحة فلم أجد أحدا متيقظا في القرى، فقط يوليو بائع الصابون المستعمل، جالس تحت الساعة يرمق يديه في دهشة.

- يوليو.. هلم أبي قد مات!

- اغرب عني يا مارس بأخبارك التعسة، فأنا اليوم سعيد! انظر.. زمن يناير جعلني شابا من جديد، وقد كنت أشيخ أسرع من الجميع!

كانت التجاعيد تختفي من وجهه، وتنفك حدبة ظهره، يداه ممدودتان أمامه ملساوين كأيدي العذراى.

عدت إلى البيت ولففت أبي في عباءته الخضراء. سمعت بكاء رضيعة فجريت لأجد يونيو، وقد عاد عمرها يتماشى مع الزمن الجديد، رضيعة لا تتكلم ولا تفهم على رأسها زغب ذهبي لامع.

حملتها وعدت إلى أبي، لا بد من أن أدفنه، ثم أجد طريقا لحياتي من بعده ومن بعد الزمن الجديد.

لم أجد جسد أبي! العباءة خالية ملفوفة حول نفسها، درت حول نفسي أبحث عنه، وبعد يونيو لا تكف عن البكاء، لكنني بالطبع لا أبحث عن جذر بطاطس، أبي كان رجلا ضخما لا تخطئه العين.

لم أجد على الأرض الترابية خارج القاعة آثار أقدام غير أقدامي وأقدام أبي. انطلق البوق يعلن الساعة الرابعة، ساعة الصدق، أبريل. سمعت معها صراخا ونواحا. لففت يونيو في عباءة جدها وخرجت أنظر، فوجدت أغسطس اللبقة تشق ثيابها على ابنها الذي كان طفلا منذ زمن بعيد، والآن هو عجوز متغضن فارقته الحياة.

رأيت الناس تخرج من بيوتها ما بين ضاحك مستبشر ومسود كئيب، كنت أتعرف بصعوبة على القوم، فقد كبر من كان صغيرا وصغر من كان كبيرا، إلا قلة ظلوا كما هم مثلي. هرعت أطلب المساعدة فلم أجد من ينجدني. السعادة في العيون تبث الشماتة في ما آلت إلى عائلتي، اليوم أصبحت مثلهم، الجميع سواء لم أعد السيد ولا الأول.

أما الحزن فيمن انقلب عليهم الزمن، فقد ألهاهم عني، لكلٍ مصيبة، فلا تنقصهم شكواي. فليذهب مارس وابنه وحفيدته إلى الجحيم!

عدت إلى البيت أجمع ما غلا سعره وخف وزنه، فوجدت شبابا من قوم نوفمبر يغتصبون المنزل ويحملون البذور من المخازن على ظهور البغال. رأوني فزمجر أحدهم ولوح في وجهي بمشعل. تراجعت خوفا على ابنتي، فضحك وألقى بالمشعل على أكوام التبن فعلت النيران.

ـ لن تعود سيدا مرة أخرى يا مارس.. ارحل من هنا ولا تعد.

عدوت، عدوت حتى انطلق بوق الساعة الثامنة، أغسطس. وصلت إلى جبال قوم النار وأويت إلى كهف هناك. أرتعد وابنتي بين يدي تبكي جوعا. ليس معي ما أستبدل به حليبا لها. تلمست حلقات رأسي وأمسكت بحجر حاد. وضعت يونيو على الأرض ورحت أضرب الحلقات بالحجر، أضغط بأسناني على ثيابي، لكن أنيني غلب. تتساقط الحلقات الذهبية الدامية حول يونيو، التي سكتت وراحت تراقب ما يحدث. أربع وثلاثون حلقة أسقطتني مغشيا عليّ.

فتحت عيني بعد حين مذعورا أتلمس موضع يونيو، وجدتها في مكانها فهدأت. تدثرت بالعباءة ولملمت حلقاتي وابنتي وخرجت.

ذهبت لسوق قوم نوفمبر حاملي الأقواس، انتقيت عنزة حلوبا وسألت عن ثمنها، نظر لي البائع في فضول وسألني ما معي كي أبادله بها، مددت يدي بالحلقات الذهبية. نظر في وجهي مرة أخرى وابتسم بخبث:

ـ مارس؟ لا يملك أحد حلقات مثل تلك سوى قومك الذين لم يبق منهم سواك وأبيك. لقد انقرضتم يا صديقي بذنب كل الجياع الذين حرمتموهم الزراعة دون دفع الإتاوة. بذنب الفتيات اللائي كسرت قلوبهن وأشعرتهن أنهن ساقطات يبعن لحمهن لك. لن أبيعك شيئا واغرب عن قرانا.

كشفت له وجه الرضيعة فتراجع، أرجح ناظريه بين وجهها وعنزته، ثم اختطف قطعتين ذهبيتين من قبضتي ودفع العنزة نحوي:



ـ فقط من أجل الروح الطاهرة، أما أنت فلن تتركك اللعنة أبدا يا ابن الحزين.

تمر الأيام وأنا بعد في كهفي، أسمع الناس تنادي على يونيو، لا بد أن يناير قد سخرهم للبحث عنها. لن يطول الأجل كثيرا حتى يجدوني ويأخذوا مني ما تبقى من أمل.

خرجت مرة ثانية إلى السوق أبيع العنزة التي جفت ضرعها، وأشتري بدلا منها. وجدت الحال غير الحال، فلا حديث للناس إلا عن لعنة يناير التي جعلت الجميع سواء في العمر والجاه. قوم النار يشكون غارات الأقوام الأخرى على الأحجار الكريمة التي كانوا يستخرجونها من جبالهم، بينما قوم الماء بارت تجارة أسماكهم بعد أن صارت البحار مشاعا للجميع. أما عن الزراعة فحدث ولا حرج، طالت الآفات المزروعات ولم يستطيعوا مواجهتها، فأصبحوا على شفا المجاعة.

الحقيقة يا سيدي ديسمبر، لقد هلك القوم بما كسبت أيديهم، فكل أمسى طامعا في ما حرمه الآخر منه، وتملك الكبر القلوب، فلم يطلب أحد المشورة من أصحاب العلم، فخربت الزراعة والصيد والتجارة.

أداري ابتسامتي الشامته فيهم، وأنا أتفقد أحوالهم، حتى أخذتني خطاي إلى وسط القرى، حيث الساعة المشؤومة.

الشتائم الموجهه ليناير محفورة على جسم الحوت الفخاري، بينما أبريل يقف تحته يقذف المقتربين بالحجارة، ويطالبهم بعدم المساس بساعة سيده.

صعدت إلى جواره، وهو بعد يطلب مني الرحيل، وقد اخضر شعره فزعا:

ـ انزل يا سيدي.. من فضلك.

ـ انزل أنت يا أبريل.



نزعت العباءة عن رأسي، فالتمعت حلقات شعري الجديدة في شمس الساعة الثالثة عصرا، ساعة مارس.

ناديت الناس فالتفت الجميع ذاهلين، تهامسوا وأرسل بعضهم في طلب بعض، حتى اجتمع عدد غفير تحت قدميّ. نظر أبريل للمرة الأولى إلى الطفلة التي لففتها بحرام صوف، فشهق ونزل يجري متجها إلى قرية التراب البائدة.

- يا قوم.. أما وقد رأيتم بأنفسكم ما فعله يناير بنا، فلمَ الخوف من تدمير ساعته اللعينة والعودة إلى ما كنا عليه؟ أستطيع أن أصلح زرعكم، وأعيد الأسماك الطازجة إلى أسواقكم. ستظل خيرات الجبال والنار لقومها، وفنون التراب والطين لمن يستحق تجلياتها.. هلموا نكسر ذلك الزمن الجديد. وسأعود لكم برأس اللعين ابن اللعينة.

هلل الناس وراحوا يجمعون الأحجار يقذفون بها الحوت، بينما أحمل أنا صغيرتي وأتجه إلى بيت اللعين ذي الوجهين.

وسط الغابات وجدته،يناير، يسير ببطء كأن العالم لا يعنيه في شيء. خلفه أبريل يشير نحوي فزعا.

- أين زوجتي يا يناير؟

- إنتروبي رحلت يا سيدي مارس.. أعطني ابنه أختي.

- لن يحدث هذا. أنت قتلت أبي وحبيبتي وأخذت ملكي ومالي.

- لم أقتل أحدا يا سيدي مارس.. الزمن من قتلهم.

- أنت من اخترعت ذلك الزمن، سندمر ساعتك وسيعود من قتلتهم، سيعود أبي وستعود إنتروبي.

جلس يناير في هدوء أفقدني رشدي، أمسك رأسه بكفيه هنيهة، ثم رفع وجهه نحوي مبتلا بالدموع.



- اجلس يا سيدي مارس. اسمعني ثم أفعل ما بدا لك صحيحا. وبالمناسبة، كنت سأدمر الساعة اليوم بأية حال.

جلست متعجبا: لم قد يدمر صنعه يديه؟ قال يناير إنه قد استقبل رسائل عرف منها تقسيم الزمن، واتجاهه الحتمي من الماضي إلى المستقبل...

- الماضي هو ما حدث، المستقبل هو ما سيحدث، لا سبيل للعودة إلى الماضي ولا سبيل للسفر إلى المستقبل. يونيو، ولدت بروح مستقبلية، فسرت لي في أول ساعاتها في الحياة كيف أصنع الزمن وأضبط الوقت، فصنعت الزمن، بصنعي له أصبح حتميا أن ما حدث أولا يحدث أولا، وما سيحدث لاحقا يحدث لاحقا.

- لا أفهم شيئا!

- بالزمن الجديد، عاد كل لعمره الحقيقي بما فيهم يونيو، أي إنني من المفترض ألا أعرف ما أخبرتني به يونيو الآن بشأن الساعة والزمن.

- لكنك عرفته.. وصنعت الساعة.

- لكنني بصنعي للساعة نفيت معرفتي بها وبالزمن، لأن يونيو ستخبرني بكيفية صناعة الساعة في المستقبل، حين تعرف كيف تتكلم وتفهم الرسائل التي أتلقاها! أما الآن، هي رضيعة ولا بد من أن أدمر الساعة وأنتظر أن تكبر يونيو لتخبرني عنها.. لذا أريدها معي، أحتاجها لتخرجني من هذا الجحيم، لتخرج مايو وسواها ممن كتب عليهم العذاب الأبدي.

- لو دمرت الساعة، ستعود الأعمار كما كانت وسيكبر عقل يونيو أسرع من جسدها، وستخبرك كيف تصنع الساعة فتصنعها! هذا جنون!

أطلق يناير تنهيدة عميقة وأغلق عينيه.. سمعته في بكائه يقول «إنه التناقض.. إنه التناقض اللعين».

من بعيد سمع الناس يهللون فرحا، لا بد أنهم قد دمروا الساعة، أرى يونيو تتلفت حولها، تضيق عينيها وتنطق.

ـ من أنت؟ لك وجهان.

هم يناير أن يمسك بابنتي، فأبعدتها عنه وأخرجت حلقة ذهبية حادة الطرف، مما كسرته من حلقاتي، ورفعت يدي عاليا أصوب عزم قوتي إلى رقبة يناير المتربع أرضا.
أغمض يناير عينيه وأشار لأبريل أن يبتعد.

ـ ابتعد يا أبريل ولا تعد، ألق أسفاري في اليم.. وأنت يا سيدي مارس، كن رفيقا بي وأحسن قتلي، أحسن إلى يونيو ولا تدع أحدا يعرف ما تعرفه، ولا تدعها تنشر معرفتها كجدتها يناير الأخيرة.

نظر نحو يونيو وابتسم.. كتب على الأرض «يونيو».

ـ صغيرتي، أعلم أنك تنسين سريعا وهذه نعمة.. لا تدوني معرفتك أبدا ولا تنطقي بها.

هويت بالحلقة على عنق يناير، فانفجرت الدماء في وجهي، كان اللعين يبتسم وهو ينظر إلى السماء. يجيل بصره فيها كأنه يرى فيها حبيبا قديما. يجري أبريل نحونا وخلفه فبراير الهرم، يصرخ «ابني» وصوت ضحكاتي يعلو على النحيب.
انكفأ فبراير على جسد الشاب يبكي، يرفع عباءته الناصعة في الهواء، ويتركها تهوى فوق يناير فتهوى على الأرض. اختفى يناير!

ـ أي سحر هذا؟ أين يناير؟
ـ ذهب إلى حيث ذهبت مايو ومارس الحزين وإنتروبي.
ـ إلى أين؟



ـ إلى حيث لا موت بعد ذلك.

جذبت فبراير من لحيته لينطق، فأخبرني أنني لا أستحق المعرفة، ولن تنطق يونيو بمعرفتها كما أوصاها خالها.
قام العجوز وتوكأ على أبريل المنتحب، بينما حملت ابنتي وقد تبخرت نشوتي كدخان.
أحيانا، حين أقف أمام البحر، أرى الأمواج تقفذف أسفار يناير، أمد يدي نحوها فتخطفها الأمواج مني إلى قلب البحر ثانية. لن أعرف أبدا، فأنا مارس المجهول!

* * *

مسح ديسمبر علىّ شاربه المنمق، وارتكن على المسند الأيمن من كرسيه. هز رأسه وتسلل صوته الداكن عبر الهواء إلى مسامع القوم:
ـ إذن، أنت قتلت يناير ثأرا؟
ـ نعم يا سيدي ديسمبر.
ـ وأين جسده؟
ـ اختفى.. لكنني أنقذت قومي من شروره كما ترى.

أشار ديسمبر إلى يونيو، فقامت متعثرة في ثوبها الأحمر الطويل. طفلة حمراء الخدين يزين رأسها تاج الورود الذهبية، وفي يدها لفافة كبيرة من الجلد. مالت للأمام مضيقة عينيها وسألت:

ـ من أنت؟ من بعيد تبدو كغراب ضخم، أما من قريب...

مد ديسمبر يده يمنعها من الاقتراب أكثر.



ـ من قريب أبدو كما أبدو، لا فارق.

ـ حسنا، كنت سأقول في حقك شيئا جيدا إلا أنني نسيته.. لكنني أتذكر شيئا واحدا، إنني قتلت خالي ذي الوجهين، ولدي أسبابي، فقط دعني أستعن بمذكرات كتبتها كي لا أنسى.

* * *



شهادة يونيو

من أين أتى خالي؟ لن أعرف أبدا ما دام لا يوجد مقياس واحد لزمن أستطيع الإرتحال فيه، فأرى ما مضى من عمر خالي وأمي، وآبائهما. لا يوجد سجل هنا لما حدث فكيف سندوّن ما سيحدث؟

أغمض عينيّ فأسمعها، رسائل بلغات أفهمها وإن لم أسمع لها مثيلا من قبل في عالمنا. يتحدثون عن ماض، حاضر، مستقبل. لحظات ودقائق وساعات ودهور. يعرفون ما مضى ويتوقعون ما سيحدث. أرى كل ذلك في وقت واحد وأفهمه، ثم يتدافع على لساني فيدوس بعضه بعضا، فأنساه!

هل يجوز أن يكون هناك عالم بلا زمن؟ هل يجوز أننا، هنا، نمتلك أكثر من بُعد زمني كما أن لنا أكثر من بُعد مكاني؟

بينما أنا هنا، أصنع تمثالا طينيا، خالي فوق الجبل يقرأ رسائل السحاب، وأمي تبعثر أسفار خالي الأربعة آلاف، فيستحيل جمعها في ترتيبها الصحيح. كل في مكان رغم أننا جميعا في مكان واحد أكبر، وكل منا في زمن خاص به، منا من يكبر أو يصغر، منا من يتوقف به عمره بينما يمر زمنه أسرع من غيره. عالمنا بلا زمكان! زمكان.. ماذا يعني ذلك؟ لم أعد أذكر.

من قريب، خالي يبدو كتمثال رخام ذي وجهين، أجمع الطين من الأرض وأغمض عينيّ وأنحت. قريبا سأفقد بصري تماما، ولا أملك غير ذاكرة متداعية سرعان ما ستخذلني إلى فراغ أسود عقيم. سأعيش



في حيوات أولئك أصحاب المكان والرسائل الموجهة إلى الزمن، سأعرف وأنسى ما عرفته للأبد.

يعود خالي مهموما كل يوم، محملا بالسنوات العديدة وخطايا المعرفة. كان يكبر وكذلك كانت أمي. ازدادت عصبيتها وازداد ولعها بالتخريب والانتقام من كل شيء يسعد خالي. أحيانا، كان يبدو تمثال خالي من بعيد كأنه وجهي يناير، إنتروبي المتضادين، المتحدين. وجهان لعملة لن يلتقيا أبدا وجها لوجه.

- يونيو يا صغيرتي. أعتقد أن أوان بناء الساعة قد جاء.

- هل أتى الأوان حقا يا خالي.. أم أنك فقط تتعجل الاحتفاظ بي؟ تتعجل الخلاص من ذنب انتحار مايو البائسة؟

- لقد أحبتني مايو وأحببتها.. لو كنت أعرف يوم التقيتها ما أعرفه الآن منك عن الزمن، لكانت الآن تعيش بيننا، أو لربما كانت قد ماتت بعد حياة كاملة عاشتها.

بدوني، سيفقد خالي حبي له، ذلك الحب الذي تمناه من أمّ مصيرها في علم الغيب، وأخت اختارت العداء. بسبب خالي وكره القوم له، فقدت حبيبها، أبي، إلى الأبد.

- ببنائك الساعة يا خالي، سيقوم ضدك الناس.

- من قال ذلك؟ ربما أحبوني أخيرا، ربما فهموا ما أثقل ظهري. ربما يخبرونني على الأقل من هي أمي، ومن أبي.

لا يزال جسدي صغيرا ورأسي محملا بالزهور الذهبية، ما تسبب في انحناء رقبتي الدائم على الجانب الأيمن. تنمو الزهور أسرع كلما عرفت أكثر.



في عالم آخر بعيد، المعرفة هي حمل روحاني لا مادي. لكنها لا تزال لعنة، هنا كما هناك.

سمعنا نداء أبريل، فحملني خالي وهرعنا نحو البيت. من بعيد، بدت أمي ككومة ملابس تنتفض، من قريب كانت راقدة على الأرض، مزرقة، وكل ما حولها كانت ينتفض. الحوائط وذرات الغبار. تسقط الأواني الفخارية على ظهر أبريل، فيجفل ويتحرك من مكانه مبتعدا في ذعر، فتتبعثر غبارا وتختفي.

وضعني خالي على الأرض فزحفت نحو أمي، يكاد رأسي يلمس الأرض من فرط ثقله. ضيقت عينيّ فوجدت كتلة من أسفار خالي محشورة في فم أمي، انبعاج في حلقها يؤكد أنها ابتلعت بعضا منها. لمَ عساها تفعل ذلك؟

ـ ساعدني يا أبريل، ثبت يديها حتى أخرج ما بحلقها.

جزء من رسائل المدعو بحر يظهر من بين شفتيها، لا داعي لقوة الإبصار، فلطالما كنت أعرف محتوى كل رسائل خالي دون أن أمسها، وأحيانا أعرفها قبل أن يصل إليها، لكنني غالبا ما أنسى كما تعرف يا سيدي ديسمبر.

كانت أمي تمنع خالي من أن يخرج ما يخنقها، كأنها تتعمد أن تقتل نفسها، تماما كما ورد في رسالة المدعو بحر عن المدعوة إشراق.

بعد جهد خرج الرق من حلقها، لكنها لم تتحسن، فقط قلت الفوضى من حولنا، الأواني عادت ذراتها إلى الاجتماع مرة أخرى على المنضدة، كأن شيئا لم يكن!

خرج خالي وانهار جالسا، مستندا إلى الحائط الخارجي للبيت. زحفت بضع خطوات نحوه حتى خارت قواي وارتطم رأسي بالأرض.

ـ خالي، تعال واحملني.

ـ دعيني الآن يا يونيو.

ـ هل تظن أنك السبب أيضا في محاولة أمي بخع نفسها؟ هل ستحمل وزرها كما تحمل أوزار اللائمين أصحاب الرسائل إليك؟

ـ لو لم أنشغل عنها منذ طفولتنا، لما وصلنا إلى هذه الدرجة من البغضاء.. لو لم أجد رسائلي لما عرفت أن هناك من يقتلون أنفسهم بأيديهم.. لو لم أولد حاملا اللعنة في اسمي ما حرمت من حبيبها، وما حرمت أنت من أبوك.

كعادة يناير، يحمل الوعود والأمل، ثم في النهاية يلام وحدة على حنث الوعود وانقطاع الأمل.

لم تتحسن حالة أمي، ولم يقم خالي من جلسته، بالتالي لم يحركني أحد من مكاني بينهما. لاحظت عدة أشياء دونتها على الأرض، لكنها ما لبثت أن اختفت كأنها لم تكن. لا أذكر بالطبع إن كنت مسحتها. شرعت أرسم مرة أخرى بأصابعي على الغبار فكرة مجنونة، ربما استطاعت أن تصلح كل شيء، ربما يعود خالي سعيدا وتعود أمي إلى الحياة.

حين عاد أبريل من اختفاءاته المتكررة، والتي يعود بعدها ذاهلا مرتجفا، جلس ينقل ما رسمته على الأرض إلى رق، ويسأل هامسا عن معناه.

ـ هل رأيت يا سيدي أبريل كيف تكسرت الأواني الفخارية في أثناء اختناق أمي وكيف تحللت؟ ثم بلا سبب حين فقدت أمي الوعي عادت إلى ما كانت عليه، سليمة كأن شيئا لم يحدث!

ـ هل انكسرت الأوعية حقا؟ كيف لم ألحظ ذلك؟

كنت متأكدة أن أبريل رأى الأوعية تتكسر، بل إنها تكسرت فوق ظهره، لست متأكدة من أنه رآها تتجمع مرة أخرى.



ـ حسنا، لقت أفاقت أمي وغابت عن الوعي عدة مرات، وأنا متأكدة الآن أنها واعية. اذهب وتأكد.

ذهب أبريل وعاد وأكد لي أنها واعية، لكنها لا تتكلم ولا تريد الرد عليه. كانت ملاحظاتي هي أن في وعي أمي، يكون العالم حولي كما عهدته تماما. أكتب الكلمة تلو الأخرى، تتحرك الريح حولي، تتطاير ذرات الغبار على الأرض، يتمشى الحمل الذي يربيه خالي هنا وهناك. كل شيء عادي. وحين تغيب عن الوعي، يتوقف كل شيء عن الحركة، فقط أنا الوحيدة التي يمكنها الزحف من مكان لمكان، لكنني عاجزة تماما عن تغيير وضع أي شيء، أو حتى الكتابة على الأرض. وحين تدخل أمي في نوبة تشنجاتها الحادة، يعكس كل شيء، يزول كل خط كتبته وتعود الريح من حيث أتت، بل وتنقص زهرات رأسي واحدة أو اثنتين. سألت أبريل:

ـ سيدي أبريل، ما الذي يجعلك تشعر أن وقتا ما قد مر؟
ـ الليل والنهار.. الجوع والشبع.. الزرع والحصاد.. الشيخوخة والموت.. أشياء لا تعد!
ـ وإن كنت محبوسا في مكان ضيق مظلم.. كيف تشعر بمرور الوقت؟
ـ حسنا.. عن طريق أفكاري على الأقل.. أفكر في أشياء تلو أشياء.
ـ إذن، تَكَشُفُ الأحداث واحدا تلو الآخر في الترتيب المألوف لنا، هو ما يجعلنا نشعر أن الوقت قد مر؟
ـ بالتأكيد.. الوقت يجري كالنهر من حولنا ونحن ثابتون فيه.
ـ ماذا لو أنني قد سكبت ذلك الحليب على الأرض، ثم توقف الحليب معلقا في الهواء، بم ستشعر؟
ـ أن الوقت توقف!
ـ ماذا لو سكبته على الأرض فعاد مرة أخرى إلى الجرة؟
ـ سأعتقد أن الوقت قد عاد إلى الوراء.. في الحالتين يا سيدتي يوينو لا شيء من هذا قابل للحدوث. فيمَ تفكرين؟



صارحته أن أشياء هكذه تحدث مع أعمارنا. منا من يشيخ ومنا من يصغر ومنا من هو ثابت. عشرات الحالات تثبت أن هناك شيئا ما في أعمارنا، مقاوم للاتجاه المنطقي للزمن.

ـ حسنا، أظن أن.. هناك.. لا أعرف كيف أصف...

حكى لي أبريل عن الصدفة التي جمعته مع خالي، لكنني لم أدونها يا سيدي ديسمبر، لذا لا أذكر تفاصيلها بدقه، ما دونته هنا هو أن أبريل يستطيع فتح أبواب مظلمة في السماء تجذبه داخلها، فيرى هناك أكوانا تختلف تماما عن كوننا هذا. أنا أخبرته من قبل عن المصطلح «كون» وهو من رآه بعينيه.

ـ كنت أظن أن ما أراه محض أحلام يا سيدتي يونيو، تأكدت من أن ما أراه حقيقة، لأنني ببساطة أستطيع أن أحمل الرسائل من سيدي يناير إلى تلك الأكوان! بل إن هناك رابطا بين تلك الأكوان، في عالمنا كما تعرفين، أسماؤنا هي أسماء شهور عندهم.. ما لا تعرفينه أن من يموت منا هنا ينتقل إلى عالمهم زمنا! وما ينتقل من عالمهم معرفة ورسائل، تصل عندنا مجسدة، تماما كما رسائل سيدي يناير والزهور الذهبية في رأسك!

أبريل لا يكذب إطلاقا، هذا مفهوم، دونت ما كتبه كي لا أنساه، فهو يبدو مهما جدا، لكن دعني أركز في نقطة واحدة الآن، على حسب كلام أبريل، هناك أكوان يتحتم عليها أن تعيش في مسار زمني واحد ومسار مكاني واحد. من يولدون في نفس اليوم يهرمون بنفس المقدار. لحظات ودقائق، شهور ودهور. قربت وجهي من الأرض فسعلت من الغبار الذي استنشقته، رسمت خطا طوليا وخطا عرضيا عموديا عليه. العرضي هو الزمان، والطولي هو المكان.

تخيل يا سيدي أبريل أن ما يحدث لي ولك الآن، هو نقطة واحدة لتلاقي



خط المكان والزمان. خالي على شاطئ البحر الآن يجمع أخشابا لسفينته، لذا هو نفس خط الزمان لنا لكنه في مكان آخر.

ما يحدث في الحقيقة يا سيدي ديسمبر، هو أننا مشتركون في المكان فقط. لذا لا نشيخ معا، ولا نستطيع أن نجمع جميعا على أن حدثا معينا قد حدث بشكل ما، لأن كلا منا يراه في زمنه الخاص، بالتالي يحدث تشوه في شبكة المكان والزمان. لذا يا سيدي لا أظن أنك ستعرف من استجواباتنا من قتل خالي، كلنا مخطئون وكلنا مصيبون، ما حدث قد حدث فعليا لكننا لن نتفق على وقت حدوثه أو كيفيته!

هكذا يا سيدي أبريل، الساعة التي تحدثت عنها مع خالي، ستوحد الزمان كما رأيت أنت في الأكوان التي ذهبت إليها. وقتها سيكون عندنا شبكة واضحة تصلح الخلل الذي حدث في الماضي، سيكون هناك ماض موحد ومستقبل موحد لنا جميعا.

ـ ثم؟

ـ ستكون لدينا شبكة صحيحة من الزمكان يمكننا الانتقال إلى أي نقطة فيها، لنرى ماذا حدث من خالي ومن أمي ومن أين جاءا. سنستطيع أن نبني حضارة حقيقة يا سيدي أبريل.. سنغير وجه العالم!

ـ لحظة.. وكيف سنذهب إلى تلك النقاط الـ.. الزمكانية؟

صمتُّ. جاء خالي فشرعنا نأكل من صيده وهو بعد لا يرفع عينيه عن أمي. كان عقلي يعمل بأقصى سرعة، حتى إنني كدت أفقد الوعي. كنت أقلب في الرسائل التي سترسل إلى خالي، أبحث عن كل خط كتب في أي كون يسمح لي بأن أجد طريقة للانتقال في شبكة الزمكان.

نمت وصحوت فزعة، لقد وجدت الطريقة الأبسط كي يرتاح خالي وأرتاح، وأشعر أن ما قد عشته لن يذهب معي في ظلام العمى والنسيان.

إن أمي هي من تعطينا الانطباع بأن الزمن يسير للأمام، وأن الزمن هو سهم قد انطلق من قوسه ويستحيل إرجاعه مرة أخرى. أمي هي العشوائية التي تخلق الحياة وتقتلها، تصنع الأفعال وردود الأفعال.



ماذا لو استطعنا عكس تأثير أمي على كل شيء حولها، هل سيرجع الزمن؟ هل سيؤثر ذلك فيها؟ هل سيقتلها؟

يبدو لي تمثال خالي من بعيد كتمثال شخص واحد، بوجه واحد واتجاه واحد ينظر فيه، إلى الأمام فقط.

بمساعدة أبريل، قمت ببناء الساعة. بالطبع لم أكن قادرة على الحركة بسبب العدد المتزايد من الزهور الذهبية على رأسي. كلما عرفت أكثر شخت أكثر وتزايد حملي.

كان أبريل يقوم بالبناء والصب والنحت، بينما أقوم أنا بالاستماع إلى الرسائل وأكتب على الأرض جواري. كلما امتلأت الأرض بالنقوش نقلني أبريل إلى بقعة أخرى. وحين أتم أبريل بناء الساعة، كانت تتوسط مساحة شاسعة من الكتابات الدقيقة، الفلسفية منها والعلمية. في عالمنا فقط يمكنني تنفيذ خليط أحلام الفلاسفة والعلماء. في عالمي فقط لا حدود بين الحقيقة والمجاز.

سألني أبريل وهو يأمل في إجابة ما تغنيه عن تنفيذ مخططي:

ـ سيدتي يونيو، لن يأتي سيدي يناير قريبا، فهو منهمك في صنع السفينة كما تعلمين. والآن.. لقد ملأت الدلو الكبير داخل الساعة بالماء، فهل أنت واثقة مما تريدين فعله؟

ـ بالتأكيد.. مجرد فلسفة لكن الفلسفة تعمل جيدا هنا أكثر مما تعمل قوانين الطبيعة. احمل أمي وضعها في الماء.

لم تقاوم أمي، فاتحة عينيها كأن جسدها معنا وعقلها في عالم آخر. بصعوبة شديدة وضع أبريل أمي في الماء فطفت وانزلق هو على ظهره يئن. تحامل على نفسه، وأغلق باطن الحوت الطيني عليها، ثم ثبت القرص والمؤشرين.

مع مرور الوقت، كان أبريل يكبر حتى صار شابا، بينما ينمو جسدي بما يتوافق مع كون أبريل أكبر مني.



سرعان ما صار أبريل شيخا هرما، وصرت أنا كهلة ذات رقبة معوجة مثقلة بالذهب.

لم يكن أبريل قادرا على الحركة، فذهبت أنا وأوقفت حركة مؤشري الساعة بيدي. حركت عينيّ من حولي، فلم أكن قادرة على تحريك رأسي، وكان كل شيء ساكنا. كما توقعت تماما. لقد عزلت أمي داخل الساعة وصار الماء البارد من حولها هو المنظم لما تطلقه من عشوائية تعزز إحساسنا بمرور الزمن. دفعت المؤشر إلى الخلف..

وقتها يا سيدي ديسمبر ما حدث كان كالتالي: أقوم أنا وأعتزم إيقاف الزمن فيتوقف، ثم أقرر أن أدفع المؤشر إلى الخلف كي يتراجع الزمن. هنا لا شيء يحدث بعد ذلك!

إن ما نفعله لا يجدي. هناك شيء خاطئ يجعلنا عاجزين عن عبور تلك النقطة الزمنية، ومعرفة ماذا سيحدث لو دفعت المؤشر إلى الخلف! الزمن قد توقف عند هذه النقطة بالذات، لست قادرة على دفع المؤشر ولا أعرف السبب.

صرفت النظر وعدت أجلس مكاني. الزمن متوقف بينما أنا أتحرك وحدي. أخذت وقتي في التفكير فلا أملك الآن أكثر من الوقت. توقفت الرسائل عن التدفق إلى عقلي، فلم يكن أمامي إلا أن أراجع كل ما نقشته على الأرض، وأفكر بمفردي.

بعد جهد جهيد استطعت أن أستنتج التالي: من الممكن أن أكون قد دفعت المؤشر إلى الخلف فراح يدور ويدور، بينما كل ما يحولي يعود بالزمن. أصغر ويصغر أبريل بلا توقف. أحيانا أجد نفسي أحمل زمنا خاصا بي كالعادة، فأنا أحمل جزءا من أمي وعشوائيتها على كل حال، بينما تتراجع كل الأشياء من حولي في زمنها، وأحيانا أنجرف في مجرى الزمن مع كل شيء.

أمسك بالمؤشر المجنون فيتوقف عن الدوران قبل أن يعود الزمن إلى الخلف أكثر فتختفي الساعة. هنا أعود بالضبط إلى اللحظة التي يتوقف فيها كل شيء، اللحظة التي أقرر أن أدفع فيها المؤشر إلى الخلف كي يعود الزمن



إلى الوراء. دفع المؤشر قد نجح في أن يعود بنا في الزمن، لذا تنمحى ذاكرتنا عن تلك الفترة الزمنية التي قد تقدمناها، كأن ترسم خطا ثم تقرر محوه فلا تجد دليلا على أنك قد رسمته، فتقرر رسمه مرة أخرى.. دائرة مفرغة أبدية!

دعني أبسط لك يا سيدي ديسمبر، تخيل أنك تملك تلك الساعة التي تعود بالزمن إلى الوراء، أنت الآن تريد أن تعود للأمس كي تغير شيئا ما، تدفع مؤشر الساعة فتعود، في عودتك ينمحي أي أثر لليوم، وحين تصل للأمس تكون قد نسيت تماما أن هناك غدا وأنك كنت فيه، وتظن أنه لم يأت بعد، وستفقد الهدف من عودتك بالزمن، لأن لحظة اتخاذك القرار بالعودة في الزمن لم تحدث بعد!

أتعرف يا سيدي ديسمبر، لا أعتقد أن الترحال عبر الزمن ممكن. إن كان كل الذين ارتحلوا من المستقبل قد محوا هذا المستقبل تماما، وعادوا إلى الماضي دون أن يعلموا أنهم قد جاؤوا من المستقبل، لأنه بالنسبة لهم لم يحدث بعد، فإن الكون كله سيعلق في حلقة مفرغة بين نقطتين زمنيتين، لا يستطيع أحد تجاوزهما أو إدراك أن هناك شيئا ما خاطئا. حتى لو فرضنا إمكانية حدوث ذلك، لا يستطيع أحد العودة إلى ماض لم يكن فيه من الأساس، لا يمكن لخالي أن يعود بالزمن ليرى وجه أبيه الذي رحل قبل ولادته وأخته.

حين عاد خالي وجدنا قد صنعنا الساعة بالفعل، لكنني لم أخبره أن أخته بداخلها، كان قد شاخ للغاية وللأسف مات فبراير، فكانت فوضى وحزن على كل عالمنا. حالة من البلبلة جعلت الجميع سكارى لعدة أيام، أناس وجدوا فجوات في حيواتهم لم يحدث فيها شيء، وآخرون وجدوا أحداثا كثيرة لا تتسق وأعمارهم، متى حدثت؟

كنت الوحيدة التي لم تعان من تلك الأعراض، ولكنني بالطبع أعاني غيرها، النسيان، تلك العشوائية التي ورثتها من أمي تمحو بعض ما أحفره في زمني الخاص. لذا كانت الكتابة هي رفيقتي الوفية، وكذلك العزيز أبريل.



أمضيت أيامي، نعم فأصبح عندنا أيام، أحاول أن أستفيد من الزمكان المستحدث في حيواتنا. وهنا أعترف لك يا سيدي ديسمبر، كنت أنا الوحيدة التي تعلم بوجود أمي داخل الساعة، بينما أقنعت أبريل وخالي أن أمي ماتت واختفت، مثلها مثل من يموت ويختفي هذه الأيام.

كنت قاسية، أعلم، لكن مستقبل هذا العالم على رأسي بالمعنى الحرفي للكلمة. سعادة خالي في آخر أيامه، الإجابة على سؤاله الأوحد، من أين جئت؟ من أين جئنا جميعا؟ ألا يشغلك يا سيدي ديسمبر هذا السؤال؟ هل لدى الجميع إجابة قاطعة وواضحة عنه؟ بالطبع لا.. ماذا لو استطعنا أن نقرأ الزمن دون أن نتدخل فيه، مجرد قراءة لما دونه الزمن في كل شيء حولنا، هل نستطيع أن نقرأ عن لحظة الخلق الأولى؟ من أين جئنا ومن أين جاء الكون؟

في اليوم الذي قتلت فيه خالي، اليوم الأول من شهر يونيو، الشهر الذي ولدت فيه وسميت باسمه، وجدت الطريقة التي نقرأ بها الزمن، تلك التي كانت أمام عينيّ طيلة الوقت ولم أرها.

ركعت وأخذت أقرأ ما دونته من كلمات أبريل التي قاربت على الزوال، من يموت هنا يتحول إلى زمن هناك، في كون آخر. لو استطعنا أن ننقل خالي إلى ذلك الكون الآخر دون أن يموت طبعا، لأصبح هو الكتاب نفسه الذي يدون فيه ما حدث وما سيحدث. سيصبح هو وكل من ماتوا من أقوامنا كيانا واحدا، يستطيع فيه أن يعرف من ماضيهم كل ما كانوا يخفونه عنه من أمر أبيه وأمه وقرية التراب البائدة!

كان أبريل مختفيا كعادته وقد طال اختفاؤه، ولم يأت خالي منذ أيام. أسير معوجة الظهر حول الساعة وألصق أذني بها.. أمي.. لا صوت..

لو ماتت لعرفت، لو ماتت لندمت. لو ماتت لارتاح خالي الحبيب وارتحت.

أكملت طريقي حتى الغابة ألتمس الطريق المخضر المؤدي إلى حيث يعيش الثور الأحمر. كان يعرفني فلم يهرب، لطالما ربطني خالي عليه ليسهل حركتي في غيابه.



وضعت نفسي فوقه وهمست في أذنه عن وجهتي، فانطلق طائعا حتى وصلنا شاطئ البحر. كان خالي يجلس وسط شكل دائري مصنوع من الأصداف اللامعة البهية، يبدو لي من بعيد كإله وسط عابديه، أما من قريب فكنت أعرف هذا الرسم جيدا، فأنا من وصفته له، وأبريل من رسمه على الرق، وخالي من نفذه في الواقع، ماندالا، خريطة الأكوان.

ـ خالي.. أين أبريل؟

ـ أنتظر عودته، تأخر لسبب لا أفهمه، البوابات الأربع مفتوحة ولم يعبر من خلال أيها.. لم أتحمل يا يونيو أن أفقده، أنا تعب يا ابنتي، تعب.

تقوقع حول نفسه نائما محتضنا ركبتيه، فجررت نفسي جواره أملس على شعره الفضي المموج الواصل حتى ركبتيه. خالي سيموت قريبا، لقد قارب على الانتهاء من سفينته. سنفنى جميعا لحظة فراقه لو فعلها.

أغمضت عينيّ ورحت أبعد ذلك الوسواس الذي يلح عليّ لأن أستخدم الساعة كي يظل خالي موجودا للأبد، لن يدرك ما يحدث، فقط سأقنعه أن يعود بالزمن لعام مضي، وحين يعود لذلك العام سينسى كل شيء، ويعيش حتى اللحظة التي أطلب منه أن يعود بالزمن لعام مضى. سأدخله وأدخل كوننا معه في دائرة لا تنفك، فقط كي أحيا في ظل وجوده معي.

في المساء، سقط أبريل بنفسجي الشعر فوقنا من البوابة الرابعة، ذلك الكون الذي يرحل إليه من يموت منا، ويأتي منه المجاز والمعاني المجردة لتتجسد هنا.

كان ينتفض وقد أمسك بلحيه يناير، ثم رآني فأمسك برأسي وصاح غاضبا.

ـ أين أمك؟ أين إنتروبي؟

ـ ماتت يا سيدي أبـ...

ـ لم تمت بعد! ذلك الكون الذي كنت فيه يمر فيه الوقت أسرع من كوننا،



سوف تموت إنتروبي وتذهب إلى هناك فتدمر توازن عالمهم، ستذهب غاضبة وستكسر الحاجز بين الحقيقة والمجاز. ذاك الكون يفقد جاذبيته يا سيدي يناير مجازا وحقيقة.

التفت نحوي، وحاجباه الكثان معقودان، فبديا لي من بعيد كخفاش أسود ملتصق فوق عينيه.

- السؤال هنا، كيف تذهب إنتروبي هناك منذ أسابيع بحسابهم، بينما هي ماتت كما تقولين منذ أيام؟ سؤال آخر، كيف ينتقل أحدنا إلى ذلك الكون ويدمره بينما المفترض ما يتناقل بين الأكوان هو توازن لإعمارها أو لخلق أكوان جديدة بالكامل؟ لو ماتت إنتروبي يا سيدتي يونيو، هلا أخبرتني كيف ماتت بالضبط؟

خار الثور الأحمر وفر هاربا مع تصاعد صوت ضجيج القوم، أسمع صوت مارس يهلل ثم ظهر من بعيد، ضيقت عينيّ فلم أرى إلا هالة عملاقة من النيران تقترب. أخبرني أبريل بعد سؤالي له، أن مارس يحمل الجسد المرتخي المبتل لأمي. خلفه المئات بالمشاعل والأقواس والمناجل، قادمون كي يقتلوا يناير، قاتل أخته.

لم يعد هناك وقت، لم يقتل أحد خالي، وإن كان لأحد أن يقتله فهو أنا. أنا الأرحم رغم ما تظنونه فيّ يا سيدي ديسمبر. سأحرم نفسي منه للأبد، وسأعطيه المعرفة أخيرا.

لم تزل البوابة الرابعة مفتوحة، ولم يزل أبريل هنا، ربما استطاع أن يأخذه أبريل معه فلا يموت، ربما استطاع أن يعود مرة أخرى في قطرات الأمطار، فيهمس في أذني بأسرار البدايات.

حمل أبريل خالي وابتلعته البوابة الرابعة، توقف القوم أمامي ذاهلين، كان كل شيء حولنا ينفجر، البحر تصاعد في الهواء وراحت كل قطرة منه تفر في اتجاه.



اختلط صراخ القزم مع عويل مارس، لقد ماتت إنتروبي ورحل يناير.
لقد قتلت أمي، نعم، هكذا ستموت غضبى وسأكون السبب في هلاك كون البوابة الرابعة.
وقتلت خالي وأبريل، فلن يجدا كوننا ليعودا إليه، لقد انتهينا.
وها أنا يا سيدي ديسمبر، أنتظر للأبد الإجابة، من أين أتينا، ومن أين أتى يناير؟

* * *

فتحت يونيو ورقة شجر عريضة أخرجتها من فتحة صدر ردائها، ونظرت إلى ديسمبر في خبث جعلت الرجل لأول مرة يرتبك، يغطي فمه كأنه يصلح شاربه، تهتز النبرة الواثقة في صوته وهو يسألها:

ـ كنت تقولين إن بموت إنتروبي ويناير ينتهي كوننا ونتجمد بلا زمان.. إذن كيف كنا قبل ولادتها وكيف نحيا الآن بعد رحيلها؟
ـ لم تكونوا قبل ولادتها، وتحيون الآن لأنني موجودة، ابنه إنتروبي وابنة أخت يناير وحفيدة يناير الأخيرة.
ـ وهل تلقيت رسالة من يناير بعد أن رحل إلى.. كون آخر؟
ـ نعم.. رغم أنني قاتلة لا أستحق المعرفة، لكنني عرفت..
ـ أريني تلك الورقة..
ـ خذها، فلا يوجد أحد هنا قادر على قراءتها سواي. هل تريد أن تعرف من أين بدأ كل شيء؟ بالأدق، من أين أتى يناير؟

أمر ديسمبر الحرس فحمل أحدهم يونيو على كتفه. لم تقاوم ولم تختف الابتسامة الساخرة الخبيثة عن ثغرها.

ـ صحيح أننا لم نعرف بعد من قتل يناير، لكن تلك القصيرة قتلت أمها،



عذبت البائسة حتى الموت، بل وعبثت بحيواتنا دون أن نعرف. سنتحفظ عليها حتى ننتهي من تلك الجلسة ونرى ماذا سنفعل بها.. من التالي؟

دق سبتمبر الأرض الترابية بعصاه الغليظة ثلاثا، فانزاح الجمع عن طريقه. خطا واثقا منكس الرأس حتى وصل إلى مجلس ديسمبر، رفع رأسه وأنزل الطوق الأسود المنقوش بالرموز الاثني عشر للمعبد. قرب الطوق من صدره وركع على ركبته اليمنى.

ـ التحيات لسيدنا ديسمبر، قاضي العالم والناظر دائما إلى الوراء، باعث الظلال.

ـ تحياتنا يا سيدي سبتمبر، ما قولك في مقتل يناير؟

ـ أنا، يا باعث الظلال، من قتلت يناير.. ولدي أسبابي..

* * *



شهادة سبتمبر

كل شيء يبدأ في المعبد، وكل شيء ينتهي به.. عاليا، فوق جبال قرى النار، تأتي النساء المتنفخات حبلا ليضعن أبنائهن على المذبح الأسود. وحين يأتي أجل من كتب عليه موتا فمات، يحملونه إلى المعبد، فيلقى في سعير البركان ليعود يوما لنا في هيئة حجر كريم إن كان من الأعيان، أو قطعة فحم إن كان دون ذلك. المهم أنه يعود، والأهم أن يخدم في الدائرة العليا.

لم يولد يناير في المعبد، ولم يأت به أحد إلينا قط، كنت أراقبه من بعيد، كطير أبيض يتناقل بين الأغصان، لا، كغراب أسود ينشر في الهواء شؤما.

تعلم يا سيدي أنه وجب على قبيلة سبتمبر أن ترسل مبعوثيها بين الحين والحين، ليأتونا بمن تسرب من الدائرة العليا طوعا أو قسرا. لن يخرج أحد من الدائرة العليا كما تعلم يا سيدي، وإلا فني عالمنا وكل عالم آخر قدر له الوجود، لكن شيئا ما حبسنا جميعا عن يناير. نظراته، أفكاره، حريته، إعجاب خفي في النفوس جعله محصنا منا؟ لا أظن..

يناير هو من جاء لي بقدميه، وقد طال انتظاري له. لم أرسل قط من يحمله لي، فقد رأيت مناما منعني فيه سيدي الحوت وسيدتي العذراء من ملاحقته هو وأخته، هذا هو السبب في تركنا إياه يحيا بعيدا عن طائلتنا. جاء يناير لاهثا، متعثرا، حاملا بين ذراعيه المفرودتين عباءة صوفية تقطر دما.



هرولت نحوه وأشرت إليه أن يضع حمله على المذبح، غالبا هو قتيل ما، وقد جاء به يناير كي أرسله إلى السعير.

ـ سيدي.. سبتمبر..
ـ ما هذا يا بني؟ من هذا وما الذي قطع أوصاله بهذا الشكل؟

كان في العباءة الممدودة أمامي أشلاء لشخص أسمر اللون، كتل شعر خضراء هنا وهناك، معجونة في أخشاب وأوراق شجر وأصداف.

ـ هذا.. سيدي أبريل. كنت.. كنت أصنع.. سفينة حين سقط من السماء في اليم وقذفته الأمواج لي. قال لي سيدي فبراير من قبل إن بقايا الأشخاص لا بد من أن تلقى في السعير، لذا...

شرع ينهنه وتنسكب العبرات من عينيه فيمسحها بطرف عباءته الناصعة. أسكته بإشارة من يدي، قربت أذني من الكتلة الدامية لأتأكد من أن ما أسمعه حقيقي. صوت ما يصدر من تلك الكتلة، موسيقى لا تصدر من أي من معازف هذا الكون. تسارعت دقات قلبي، وصدَر من يناير صوت متسارع لتكات عجيبة. تراجعت وأنا أدور حول نفسي، شيء ما يحدث لي، شيء لا يوصف سببته لي تلك الموسيقى. كنت أرى أحداثا لم تمر بي، عوالم ذات سماوات زرقاء وعوالم أرضها السماء. عوالم من همسات وأخرى ذائبة في الأثير.
سقطت أرضا وحاولت أن أنفض الهلاوس عن رأسي، اقترب يناير ليعينني فأبعدته عني، لا يصح أن يمسني من لم يولدوا في المعبد. زحفت المذبح مرة أخرى، وتحاملت على نفسي لأقف وأغطي هذا الشيء في العباءة، عله يصمت.
تلاشت الأصوات أخيرا، فجلست أنا ويناير متقابلين. انزلق طوق رأسي



من العرق فأمسكه الأخير. شرد للحظات في النقوش عليه ثم نظر لي غائما كسماء الشتاء.

- من ماذا صنع هذا الطوق؟
- زجاج بركاني، وهذه رموز المعبد الاثنا عشر..

وجدتها فرصة كي أحدثه عن المعبد، فقد سمعت أن يناير لا يعتنق الدين ولم يسمع عنه من قبل. إلا أن الشاب لم يبد مستعدا لسماع أي شيء. قارن النقوش على الطوق بالنقوش على الأرضية الحجرية حول المذبح. توقف عند نقش سيدتي الجوزاء وسأل.

- ما هذا يا سيدي؟
- سيدتي الجوزاء، ربة التناقض. هذا، سيدي الميزان، العدل، سيدي الدلو، العلم، سيدتـ..
- الجوزاء.. شخص بوجهين، هل لهذا الرمز تماثيل معروفة؟
- لا يا سيدي، آلهتنا لا تصور في مجسمات، نحن العباد مجسمات حية لتجليات آلهتنا. لا يصح أن نصنع مجسمات من الصخر أو الطين لهم.

كان شابا عجيبا يا سيدي ديسمبر، راح يجول في المعبد ويتلمس الحوائط. يتمتم بكلمات لا أفهمها ثم يدون أشياء في قطع رق أخرجها من جرابه المعلق على كتفه، يجلس على كل مقعد في المدرج الحجري وينظر من كل زاوية للنقوش حول المذبح. رحت ألاحقه باللطف والأدب لكنه لم يلتفت لي. دخلت نسوة من قبيلة أبريل اللعينة وليدات السهول. فأمسكت يناير من قميصه ليعيرني انتباها. ضغطت على فكه بكفي المغطاة بطرف عباءتي موجها وجهه الشاحب إليّ.



ـ اهدأ! للمكان قدسية ولكهّانه مكانة. إياك ألا ترد على كلمات مني موجهة إليك.. إياك!

هز رأسه وقد اتسعت عيناه ذعرا كمن أوقظ من كابوس. شققت ابتسامة على وجهي ونزلت المدرج الحجري متوجها إلى النسوة النائحات دوما.

ـ تحياتنا للأمهات الخالدات.. ماذا حدث؟

ـ ابننا يا سيدي، ابننا أبريل الذكر لم يعد منذ وقت طويل.. تظن أبريل الناجية أنه مات بعيدا عنا، فجئنا نسألك عنه ونسترده لندفنه في السهول.

تربعت إحداهن، أبريل الناجية، وراحت تمزق خديها لطما بينما النسوة الأخريات ينشدن شعرا ملتاعا عن الفراق. كي أكون صريحا معك يا سيدي ديسمبر، لم أحب قط الأمهات الخالدات. نائحات، كافرات، متشحات بالسواد، لا يمتن ولا يتزوجن ولا يحبلن. كل هذا لم يكن سببا كافيا لكرهي لهن. سببي الوحيد هو، من أين جئن ولِمَ لا يمتن؟

ـ لكم من سيدتي العذراء السلام، ومن سيدي الثور الأعظم المواساة. لكن، من هو أبريل الذكر؟ ومن أين لكن به؟

اقتربت أطولهم وكشفت وجهها الأسمر الموشوم بقرني الثور فوق الحاجبين، وهمست بصوت أرهقته كثرة العويل:

ـ أبريل الذكر، فاتح بوابات السماء، هدية الخالق العليم لنا. ابننا يا سيدي سبتمبر الذي نزل من السماء فوق رؤوسنا.

طلبت وصفا لأبريل هذا فقلن لي إنه أسمر اللون، قصير، ثم اختلفن



في لون شعره فقلن إنه أحمر، ثم زعمت إحداهن أنه أخضر بينما أكدت أطولهن أنه بنفسجي. جاريتهن كي أنتهي منهن سريعا، فلن أخبرهن أن الفتى ممد عندي قبل أن تلقي أنت يا سيدي ديسمبر نظرة عليه.

سمعت خطوات قدميك يا سيدي، تخرج من خلف الأستار الحمراء لحجرة التجلي النجمي. ركعت أمامك وانحنت النسوة غير راكعات، بينما ظل يناير جالسا ينظر بلا فهم. أشرت إليه أن يركع لكنه نظر إلى وهز كتفيه بمعنى «لا أفهم ماذا تريد».

- سيدي سبتمبر العابد، أرى أن النسوة هناك قد فقدن عزيزا.
- نعم يا سيدي ديسمبر.. يدعى أبريل، ذكر..
- أعرف.. وهذا هناك، هو من أحضر تلك اللفافة.

تقدمت يا سيدي ديسمبر وفتحت العباءة، لم أر بالطبع تعبير وجهك وقتها لكنني دعوت لك أن ترزق علم سيدي الدلو ورجاحة سيدي القوس. تفحصت الأشلاء بطرف عصاك ثم رفعت بطرفها قلادة فضية منقوشا عليها أسطرا من نقوش مجهولة. أمسكتها أنا ووجهتها للنور أحاول قراءتها لكنني فشلت.

من أين جاء بها القتيل؟ كانت صفات الفتى المفقود تنطبق على الأشلاء، لكنني قطعت لساني بسيف الصمت منتظرا أن تتكلم أنت يا سيدي ديسمبر. إلا أنك لم تعلن شيئا، فقط أمرتني أن أتحفظ على الأشلاء في مأمن.

في طريقك للخروج من المعبد يا سيدي، توقفت عند البوابة تنظر في اتجاه يناير وينظر هو لك جالسا بلا خشية ولا تأدب.

خرجت النسوة حاملات نواحهن وأشعارهن، ودخل يوليو بحمله من الصابون المستعمل. قص شعيرات من رأسه في الحوض المقدس، ووضع حمله من الصابون تحت قدمي.

ـ تحياتنا لسيدي الحمل، نسأله البركة.
ـ لك البركة يا سيدي يوليو.. هل أحسنت صنع الصابون؟
ـ بالتأكيد يا سيدي..

فتحت الحمل لأجد قطع الصابون المصنوعة من الصابون المستعمل، وشحم الحملان غير متقنة التشذيب، لونها باهت ورائحتها كرائحة الشحم القديم. كان الرجل يرتجف وقد احتشدت تجاعيد وجهه بين حاجبيه. ركلت الصابون فتبعثر في الأرجاء. تعلل بأن الصابون القديم يقل مع كثرة إعادة التصنيع، ولا بد من زيادة الشحم في كل مرة كي يظل مقدار الصابون الذي نمتلكه ثابتا. الحق يا سيدي ديسمبر كنت لا أطيق يوليو. ليس لأنه كريه، أو ابن زنا، أو كاذب. كنت أكرهه لسبب واحد، أن لا أحد يعرف من أين أتى كل الصابون المستعمل الذي بدأ به يوليو تجارته!

أمرته أن يذهب ويتقن صنعه، فالشحم لا يغسل الذنوب، فقط الصابون النقي ما يغسلها ويحسن رائحتها.

استأذنني يناير في الانصراف فأذنت له، قام بجمع الصابون المتناثر مع يوليو ثم خرجا كل في طريق.

توالت هدايا المعبد من زروع من قوم مارس، وأسلحة من قوم نوفمبر، كل رسول يأتي بحمله ويقص خصلة من شعره في الحوض المقدس، حتى دخلت من أحرقت صوابي بجمال خلقتها. حورية التراب، إنتروبي.

كانت تنظر حولها لحوائط المعبد ونقوشه في انبهار. وكنت منبهرا بكل شعاع شمس ينكسر على بلور جسدها، وكل نسمه هواء تداعب حمم البراكين على رأسها.

سألتني إن كان يناير هنا، فأخبرتها أنه ذهب لحال سبيله. تقدمت هي حتى وقفت أمام الأشلاء على المذبح وراحت تتفحصها. أكاد أقسم يا سيدي ديسمبر إنها كانت فخورة، كأنها تتأمل قطعة من الفن الأصيل.

وكنت منتشيا أنا، أتفحص ذلك القد الذي صب من بلور، ونحتت

انحناءاته في صعود وهبوط موسيقى مدوخة.

قربت وجهها من القلادة الفضية ومررت أصابعها على الكلمات. كانت تحرك شفتيها كأنها تقرأ.

ـ تستطيعين قراءتها؟

ـ نعم.. «أنت مشارك في اللعبة، لا يمكنك أن تكسب، يمكنك فقط أن تخسر، لا يمكنك الخروج من اللعبة».

ـ ما تلك اللغة يا حلوة؟

ـ لا أعرف.. فقط أستطيع قراءتها.

نظرت لوجهي وأطالت النظر، لعجبي لم تهلع مما تراه، ابتسامة عابثة على شفتيها وكفى. مدت يدها في حوض الشعر، قبضت على حفنة منه ونفخت فيها فتطايرت في كل صوب. دُهِشتُ وقد صدر مني صوت الضحكات وأمسكت يدها، ساخنة ملتهبة في يدي العجوز المعروقة. نهيتها عن اللعب في محتويات الحوض المقدس. ابتسمت ومسحت كفها في صدر ثوبها. الحقيقة يا سيدي ديسمبر، كنت أحب إنتروبي، ليس لجمالها الفريد، وشقاوتها الطفولية المحببة. كنت أحبها، أعشقها لسبب واحد، أنى لحورية مثل تلك أن تبعث الحياة في ما قتل من رجولتي؟ قتلها الحرام والعيب وسجود الأوجه الممسوحة في تراب المعبد. هل الأسياد راضون عني يا سيدي ديسمبر؟ أتمنى ذلك.

حيتني وجرت تهبط سلالم المعبد، لا أعرف لمَ جاءت ولمَ رحلت. بدا لي أنها جاءت خصوصا لترى أشلاء أبريل وتقرأ ما حفر على قلادته.

أنستني زيارة الحورية كل ما مر في يومي. أغلقت باب المعبد واستلقيت على حشيتي تحت السلم الخشبي. لا يزال جسدي يلتهب كمراهق، أتصبب عرقا.. أفكر فيها.. تتداخل صورتها مع صور العاهرات اللائي فشلت معهن.

«كيف لامرأة أن تأمن قلبها مع رجل بلا وجه؟»، هكذا قالت كل



واحدة لي كأنه اتفاق ضمني بينهن.. ومتى كان الرجال ذوو الوجوه يؤتمنون على شيء؟

على كل، أنا سبتمبر، كنت لا شيء، وسأظل لا شيء.

ينفتح باب المعبد فأقوم فزعا، كان الظلام يدخل من فرجة الباب، كيف والنهار لم يزل في عنفوانه؟ رأيته قادما مع الظلام، عمامة حمراء فوق رأسه، درع جلد على جذعه، سيف أسود ممشوق في يده، سيف بلا مثيل عندنا.

- انهض.. أنا السيد.. النجمي..

لن تصدقني بالطبع يا سيدي، فأنت الوحيد الذي تجلى له سيدنا النجمي وقد أعطاك سلطة النهايات والمصائر، لكن أن يتجسد سيدنا النجمي لعابد مثلي؟ لن يصدقني أحد، لكنني أقسم إن هذا ما حدث. سجدت مرتعدا وقد أيقنت أنني أعيش آخر لحظاتي.

- سبتمبر العابد، لتعلم أن كل ما يحيط بك هو عين الوهم والإيهام. لا حقيقة غيري. ما يعيطه غيري سراب، وما أعطيه أنا هو النعيم الأبدي.

- مرني يا سيدنا النجمي، سيد الظلام..

- يناير وأخته، تأتيني بهما بعد عشر ليال على المذبح حيين. سيتجسد أسيادكم الاثنا عشر فانين على الأرض، اقتلهم، وارسم حول المذبح دائرة الأكوان بدمائهم.

تلاشى في الظلام، ثم عاد نور النهار مرة أخرى يتسلل من نوافذ المعبد وينير الأرضيات والحوائط الحجرية السوداء.

بدا لي أن ما رأيته كان حلما، فمن نبيذ شعر حورية التراب سكرتُ وتخيلتُ وعد إلهي بأن أكون شيئا من اللاشيء.

ما بين تلقي الهدايا للمعبد وحرق الموتى وغسل ذنوب الخاطئين من



علية الناس بالصابون المقدس، تذكرت أنني لم أحتفظ بالأشلاء في مأمن كما أموتني، فأحضرت صندوقا وجذبت طرف العباءة الملطخة بدماء الفتى، فسقطت خالية من أي أثر للأشلاء. فقط القطعة الفضية هوت تدور كالعجلة حول الرموز الاثنى عشر على الأرض، حتى توقفت عند الثور. التقطتها وقلبي ينتفض في صدري كالمصروع.

ظل ضخم لطخ ثوب الضياء المفرود من باب المعبد حتى المذبح. نظرت فإذا بثور أحمر عظيم ينظر لي. وعلى الأرض اختفى رسم سيدنا الثور كأن لم يكن.

في صباح اليوم التالي، وقفت معك يا سيدي ديسمبر على شاطئ البحر السرمدي، نطالع الدائرة ذات البوابات الأربع، والمصنوعة من الأصداف على الرمال. في وسطها بقعة دماء تشربت الأرض أغلبها. عجيب يا سيدي أنه رغم النهار والضوء الساطع، إلا أن وجهك الكريم لا يزال كلية في الظل، لا أعرف ما إذا كنت تنظر لي أو للبقعة أو ليناير الواقف أمامك ومن خلفه كومات من أخشاب الأشجار.

رحت أبتهل سرا للسيد النجمي ألا تسألني يا سيدي عن أشلاء أبريل، وأنا أتحاشى النظر للبحر، وما يحمله لي من ذكريات طرحتها في السعير خلفي وأنا أنذر حياتي، طوعا أو كرها لا يهم، للمعبد.

ـ تقول يا سيدي يناير، إن الأشلاء سقطت عليك من السماء في منتصف تلك الدائرة.. تسميها...؟

ـ ماندلا يا سيدي.. خريطة لبوابات الأكوان.

ـ أكوان؟ حسنا.

اقتربت منك يا سيدي كما لا بد أنك تذكر، وهمست لك بأن تلك الدائرة محض سحر أسود. فيناير كما يعلم الجميع، لا يؤمن بالدين. كما

أن العابدين ينقلون لي ما يسري في القرى عنه، بأنه يكتب بحروف عجيبة ويهيم في الأرض يجمع أوراق الأشجار وعظام جيف الحيوانات. لا بد أنه قد قطع الفتى إلى أشلاء لأغراض سحرية.

الفتى يا سيدي حر، الفتى لا ينحني لأحد، الفتى ـ لك أن تتخيل ـ تشتهيه الفتيات ويشتهيهن! أسباب كافية لأكرهه للأبد.

الأخطر يا سيدي أن هناك بالفعل من يؤمنون بما يفعله.. العجوز فبراير والنسوة الخالدات. يقلن إنهن يساعدنه في.. في بناء سفينة! كل الأخشاب هناك من أجل صنع فُلك يطفو على سطح البحر. أسأل سيدنا النجمي أن يغفر لي كلماتي، فما كان لأحد أن يغزو البحر وينجسه هكذا.

هرطق يناير بكلمات عن المعرفة والعلم، لكنك بالتأكيد يا سيدي تعرف أن لا علم غير علم المعبد. لا كتابة غير كتابة علم المعبد. كل ما يفعله يناير كفر.

تجمعت بعض النسوة الخالدات من قبيلة أبريل، تقدمتهن الطويلة ذات وشم قرني الثور وصاحت دون رادع.

ـ أحضر لنا أشلاء ابننا يا سيدي سبتمبر، فلن يُحرق الفتى، بل إلى التراب يعود. سيدي يناير سيعطينا المعرفة، سنرحل معه في البحر والسماوات والأكوان وسنعرف، وحين نعرف سنصبح حرائر، لا نخاف إلا من خالقنا.. هل تعرف يا.. سيدي سبتمبر من خلقنا؟ من أين جئنا؟ بالطبع لا.. معبدكم هذا ما هو إلا خالق للأصفاد. يناير سيحررنا وسنعرف من خلقنا وسنعرف لمِ خلقنا. هل تعرف لمَ لا نموت يا.. سيدي؟ لأننا لم نعرف بعد.. المعرفة شفاء من الحياة.

هويت على ظهرها بعصاي فسقطت، لن تحدثني امرأة نجسة بهذا التعالي وأقف صامتا. قامت شامخة تكتم الألم في عينيها. ربت يناير على



كتفها فأمسكت يده في يديها وابتسمت. تراجعت حتى وقفت مع النسوة أمام كومة الأخشاب يحرسنها.

ـ لم آمرك يا سيدي سبتمبر بأن تضربها..

لم تنتظر إجابتي، تركتهن يا سيدي ديسمبر يثقبن كرامتي بنظراتهن النتنة. فقط رحلت نحو الغابة بعد أن أمرتني بنفخ بوق المعبد لجمع كبار القبائل، للقبض على يناير والتحفظ عليه في المعبد، للمحاكمة بتهمة الشعوذة وقتل أبريل.

وعدني سيدنا النجمي بأن أكون شيئا من اللاشيء، ووعدته أن أساعده. في طريق عودتي للمعبد رأيته، بين فرجة في الأشجار وجدته يحدق بي، الثور الأحمر، ما أن تلاقى وجهانا حتى أخذ في الجري. أتوقف محني الظهر منقطع الأنفاس، أفكر، كيف أقتل ثورا بلا سلاح بفرض أنني لحقته بالفعل؟ سمعت صوت أنفاس رقيقة ونهنهات، رفعت رأسي أبحث عن المصدر فرأيت إنتروبي، تنظر من خلف الأشجار للبائسة مايو. ممسكة بِرق في يد ترتجف توترا، كان الثور الأحمر يحوم حول مايو البائسة. تقترب إنتروبي منها في خوف، تنظر لها مايو نظرة خاوية. تجلس إنتروبي وتملس على شعر مايو المتشابك مع الحشائش والجذور.

ـ مع الموت يا سيدتي مايو تأتي الحرية.. نولد صغارا، متماسكين، محدودين، نكبر حين نعرف، وحين نعرف نبدأ في التحلل، ثم نكافأ بالموت والفناء.. الموت هو الحرية يا سيدتي مايو..

ـ وكيف أموت؟

إنتروبي كانت تبتسم يا سيدي ديسمبر حين تجتمع شفتاها في نطقها لكلمة «موت». «الفناء» يجعل عيناها تلتمعان في نشوة. أمسكَت قطعة



خشب مدببة الطرف ووضعتها في يد مايو، ووجهتها صوب قلب المرأة الملعونة بالحياة والموت.

ـ طعنة واحدة تنهي كل شيء.. مكتوب هنا أن الانتحار ينهي كل شيء.

تراجعت إنتروبي إلى ما وراء الأشجار مرة أخرى، التفتت إلى مايو التي ظلت تحملق في الوتد في يدها، ثم اتخذت بين الأشجار سبيلا.

بعدها عرفت أن مايو قتلت نفسها، وهو شيء لم يحدث من قبل. تم اتهام يناير بقتلها عن طريق مخطوطاته التي أرست في عقلها أن تقتل نفسها.

لم يدافع يناير عن نفسه، صمت والقوم من حوله يطالبون بقطع رقبته. أمرت يا سيدي ديسمبر أن أعيده إلى محبسه المطل على السعير مرة أخرى. تنفست الصعداء، فلو تم قتله فلن أستطيع أن ألبي طلب سيدنا النجمي.

كنت أفكر في هذا وأنا أملأ حوض الخطايا بالماء، أتحاشى دائما النظر إلى انعكاسي في صفحته الرقراقة. كنت، ككل قوم سبتمبر، بلا وجه. وكنت أشعر بالغيرة ممن ملكوا الوجوه والتعابير. قيل لي إن الأعين تفضح الروح، والأنوف ترسل بروائح الشهوات إلى العقل، أما الفم فمنه الكلم الخبيث يولد. عباد سبتمبر بلا وجوه، عباد سبتمبر «لا أحد».

جاءتني الفاضلة نوفمبر ليلتها وطلبت مني أن أخلصها من ذنوبها. سلمتني الذهب المطلوب للتطهر وزادت فيه قليلا، وحدهم علية القوم من يقدرون على اشتراء الغفران كما تعلم يا سيدي ديسمبر، أما الفقراء فلهم ما عملوا. ذهبت لإيداع الذهب والهدايا في حجرة التجلي النجمي وإحضار الصابون، فوجدتها قد تحللت من ملابسها وجلست في الحوض. على الأرض رداؤها البفسجي المميز، وجواره قوس وجعبة سهام لم أر مثلها قط في أسلحة قوم نوفمبر.

جلست جوار الحوض أحاول أن أرغي الصابون اللعين، لم تكن رغوته كافية، لذا كان الماء رقراقا فوق جسدها.



أوليت وجهي نحو القوس متحاشيا النظر، متحاشيا أن تحضر إنتروبي مرة أخرى بلهيبها. تلوت الصلوات اللازمة إلى سيدي الحوت أن يحررها من الخطايا، فتعود صفحتها بيضاء كالحليب.

غرفت من الماء بكفي ونثرته فوق رسم سيدي الحوت، هالني أن رأيت أن سيدي القوس غير موجود!

- سيدتي نوفمبر الفاضلة، هذا قوس بديع الصنع، من الماهر الذي صنعه لك؟

- لم يصنعه أحد، سقط فوقي من السماء! قوسي القديم المرصع بالياقوت يبدو لي كغصن غير مشذب إذا ما قورن بهذا.

السيد الثاني، الثور ثم القوس. لربما استطعت أن أسرق هذا القوس فأقتل به ما استطعت من الرموز المتجسدة، ثم أكسره أو أحرقه في النهاية.

- هل لي يا سيدتي أن أطلب القوس الفريد لسيدنا النجمي؟ هدية كهذه قد تجـ...

- لا.. إلا هذا القوس!

نظرتها يا سيدي، إهانة كأنني أريده لنفسي، كأنني كلب أجرب مد خطمه في صحن سيده. وأنت تعلم يا سيدي ديسمبر أن وحدهن النساء من يقدرن على تسديد نظرات مهينة كهذه.

قامت من الحوض عارية بلا خجل، لم الخجل فأنا «لا أحد». تلفحت بعباءتها وحملت قوسها وهي بعد تنظر في وجهي. أمسك صرة الذهب وأخذت منها الزيادة التي كانت لتصبح من نصيبي.

- نحن ندفع وزيادة، ونعلم أن لا شيء مما ندفعه يذهب لسيدنا النجمي،



أو لأي سيد آخر. أحيانا ما نتساءل إن كانت تلك الرموز الاثنا عشر ما هي إلا رموز لا أكثر..

ـ ولمَ تحضرون إذن لتقديم هدايا لـ«رموز لا أكثر»؟

ـ المعبد يعطينا وجاهة بين الناس، بينما يأتيك الفقراء طمعا في الأمان. أولئك عبيد يبحثون عن سيد، بدونه هم لا شيء، مثلك تماما.

الحقيقة لم أكن أصدق أن يجرؤ أحدهم على التلفظ بمثل تلك الكلمات علنا. نوفمبر الفاضلة بالذات لم تكن لتنطق بهذه الترهات. اقتربت مني وحلت أربطة ثوبها. ابتسمت وهمست في أذني:

ـ تعرف لمَ آتي يوما لغسل ذنوبي هنا؟ كنت آتي لأرى جسدك يشتعل في كل لمسة تلمسها لجسدي. أنت لا تملك عينين لكنني متأكدة أن بصرك لا ينزاح عن مفاتني.. أنت عبد يا سبتمبر، عبد لرموز، عبد للنجمي، عبد لديسمبر، وعبد لي..

لم أدر بنفسي إلا وطرف القوس في يدي، جذبته وشققت عنقها بوتره المشدود. بللت ثيابي وأنا أنظر إلى دفقات الدماء تجري أنهار بين ثدييها. سقطت على الأرض ترتعد ثم سكنت تماما. عيناها مفتوحتان مثبتتان على وجهي.

هرعت أحضر ماء وخرقة أنظف بها خليط الدماء والبول.. رحت أكحت وأكحت حتى كادت الرموز تذوب في الماء والدم. ثم ذهبت لأحضرت محفة أحمل عليها الجسد المسجى، لألقيه في السعير قبل أن يحضر أحد.

كان يناير في محبسه المطل على البركان ينادي عليّ، ولم أكن في حال تسمح لأرى وجهه الكالح. حاولت ضبط نبرة صوتي وسألته ماذا يريد فلم يرد.

عدت بالماء اللازم فلم أجد الجثة. اختفت كما اختفى أبريل.



شرعت أجفف الماء المحمر من فوق دائرة الرموز، لأجد أن رمز العذراء اختفى! متى اختفى بالضبط؟ قبل أم بعد حضور نوفمبر؟
صوت ينادي من الاعلى..يناير..

ـ سيدي سبتمبر العابد.
ـ ماذا تريد يا لعين؟
ـ سيدي سبتمبر العبد.

لن أقتل أحدا آخر اليوم، لن أفعل. خبأت القوس في حشيتي، وغدا أتربص بالثور وأرى إن كانت هناك رموز لعينة أخرى قد ظهرت.
لم أنم ليلتها، محدق في النافذة الضيقة، أرى سجن يناير ونيران البركان تتوهج على أسطح قضبانه.
قلادة الفضة التي كانت في عنق أبريل الآن في قبضتي، تنغرس في لحم كفي كلما ضغطت عليها. هناك لعبة، وأنا فيها. مسموح بالخسارة ولا يسمح فيها بفوز أحد..
في الصباح، أتتني أكتوبر بأسمالها وطفلها الرضيع أبدا، تلقمه ثديا جافا مجعدا. كانت تحمل بضع سنابل من القمح وتحاول أن تحفر الود فوق وجه قد من صخر.

ـ سيدي سبتمبر، تحياتي لسيدي الثور الصادق. اسأله أن يعفو عني..
ـ سألته.. ارحلي.
ـ أشكرك سيدي.. لكن...
ـ ماذا تريدين؟

كما تعلم يا سيدي ديسمبر، فأكتوبر متسولة بارعة، تحيك من الحكايا ما يدر لها تعاطف الناس. فالكذب رأسمالها، ومالها يؤول دوما إلى الخمارة.



تسكر ليلا وتشحذ نهارا ثمن سكرها. شكت المرأة أنها لا تستطيع الكذب وخلق الحكايات. كذلك لم يعد أحد يعطف عليها، بل إن هناك عدوانا ما يسري بين الناس. الوقاحة أصابت الجميع، وبحلول العصر ستتكوم جثث صرعى الصدق على مذبحي.

هل أصاب الصدق الجميع بعدواه؟ أم أن غشاوة ما قد زالت عن ناظري فرأيت الحقيقة أخيرا تتجلى أمامي؟

سألتني أن أعطيها حليبا لابنها من هدايا المعبد، فركلتها وأخرجتها. هدايا المعبد للمعبد أيتها المتسولة.

ـ للمعبد أم لـ...؟ أنت تعرف من.. لم يكن ليترك القاتلين والسارقين والزناة، لولا أن أيديهم في فمه دوما.. وأنت كلبه المخلص..

نزلت السلالم جريا قبل أن أرد إساءتها لـ.. لن أستطيع بالطبع أن أردد ما قالته حرفيا.

كان شابا من عباد يناير واقفا هناك، يبدو أنه سمع ما دار. صرفته في عصبية ثم أحضرت الماء والخبز لسجيني، فوجدت أخته على الباب تحمل له سمكا.

ـ سيدي سبتمبر.. جئت كي أسأل على أخي وأعطيه طعاما.. وأقرأ...

ـ أما الطعام فهو ممنوع يا حلوتي، هبيه للمعبد تكن لك البركة.. وأما أخوك، فماذا ستقرأين له أو معه؟ لا أجد معك ما يُقرأ.

ـ لا بد أن يكتبه أولا كي أقرأه.. يناير يكتب الروايات!

ـ ما هي الروايات؟ تقصدين نبوءات؟

ـ لا يا سيدي.. قصص لم تحدث بعد، أو لعلها لن تحدث أصلا.. يتخيلها ويتخيل شخصياتها فيكتبها..

ـ يكتب عن أشياء لم تحدث؟ و.. كيف يتخيلها؟ كيف يعرف أن ما سيحدث سيحدث ويكتبه؟



بالطبع لم أسمع من قبل عن شيء كهذا. كيف تصدق ما يكتبه هذا المجنون؟ لا يجب أن تقرأ مثل هذا الكلام!

ـ أصدقه لأنه حقيقي..

شعرت الفتاة أنها قد تكلمت أكثر من اللازم، فقررت أن تغير الموضوع بلباقة. اقتربت مني ولمست بأصبعها موضع العينين من وجهي الأملس.

ـ هل تلك الفجوتان موجودتان في وجهك من البداية؟ لا أعتقد أنني رأيتهما من قبل..

تحسستُ وجهي لأجد بالفعل تجويفين بسيطين في موضع العينين، نظرت لانعكاس وجهي في حوض الماء لأتأكد من تلك الحقيقة، فتأكدت لي.

تركتها تذهب لأخيها وركعت جوار الحوض أتفحص وجهي الجديد.

هل هذه هي مكافأة سيدنا النجمي على.. على ماذا؟ أنا لم أقتل الثور بعد أو أحطم القوس.. لعلني قتلت العذراء! هل كانت نوفمبر على عكس ما يقولون عذراء؟

وما قصة الصدق الذي حل على القوم فجأة؟ أم تراهُ حل عليّ؟

كان أحد العباد واقفا ينظر نحوي، غطيت وجهي وقد بدأت أشعر أنه يراقبني، لكن كيف لي أن أعرف أن هو الوحيد الذي يتعقبني؟ هل هناك العشرات غيره؟ كيف أعرفه مِمَن سواه؟

أغلقت باب المعبد وصعدت إلى زنزانة يناير، توقفت عند الباب أستمع لما يقولونه وقد كان رهيبا:

ـ النجمي يريدنا يا إنتروبي، هكذا قررت أنه يفعل في الفصل الثالث من روايتي. في يناير، الشهر، بدأ في فقد عرشه.. لو استطاع أن يتحكم فينا...

ـ كيف ونحن في كونه مجرد زمن؟



- وهذا ما يريده بالفعل، أن يتحكم في الزمن وبذلك لن يموت، ولن يفقد عرشه..

- وكيف وجدنا يا يناير!

- هذا خطأي يا إنتروبي، خطأنا جميعا. ربما كانت التجربة فاشلة من البداية وتحمسنا نحن لوهم.. اهدمي دائرة الماندالا.. لقد قدت أبريل بسببها وساعدتُ النجمي على العبور.

- لم يعبر النجمي، فقط عبر مجازا إلى هنا. وأنت لم تفقد أبريل يا أخي، لقد عاد ورأيته أنت.

- لم يعد كما كان، عودته أخلت بكوننا.. بدلا من أن يموت ويرحل إلى الكون التالي كمنزِل في السماء.

- فلتقتل الثور إذن.

اتهمها بالجنون، فكيف له أن يقتل صديقه مرتين؟ ترجته أن يحتفظ بالماندلا، فهي صلتهما الوحيدة بعالميهما. صمت يناير، وفهمت من صمته أن اللقاء قد انتهى، بعد أن وعد بأنه سيجد طريقة لخداع النجمي، أو مجازه كما قال.

هممت بأن أبتعد كي لا تراني في خروجها، فسمعت صوت اللعين الساحر يغمغم:

- سيقتل سبتمبر الثور، هذا مكتوب في روايتي، ولتكن تلك بداية الفصل الأخير.

لسبب لا أعرفه، أمرت يا سيدي ديسمبر بألا نغلق زنزانة يناير بالأقفال، ولسبب لا أعرفه، لم يحاول يناير الهرب ولم تحاول أخته تهريبه. كأن اللعين لا يفرق معه مكان أو زمان. هو في كل مكان وكل زمان في نفس الوقت. وإلا فكيف عرف بأمر النجمي واعتزامي أن أقتل الثور؟ ولمَ يكتب كل هذا في «روايته» العجيبة؟



بينما تكمل نسوة قوم أبريل بناء سفينتهن، ويحرصن على ألا يقترب أحد من دائرة الماندالا على الشاطئ، وبينما يعيث الثور الأحمر صدقا في البرية، وبينما يكتب يناير وينحت المستقبل اللعين القادم علينا، كنت أتتبع أنا العلامات التي حدثني عنها سيدي النجمي.

قتلت سيدة الدلو، بائعة الثلج ذات اليد المزرقة والشفتين الحمراوين الكرزيتين.

ـ هل تذكرينني؟

ـ وكيف أتعرف رجلا بلا وجه.. كل قوم سبتمبر واحد بالنسبة لي.

سهم في رقبتها بعد أن تركتني ورحلت، سقطت تنضح الأحمر على بياض الثلج في دلوها.

وبينما يقتل الرجلُ الرجلَ من أجل كلمة حق لم يستطع أحدهما ضحدها، وبينما تتراكم قضايا الصادقين أمامك يا سيدي ديسمبر، وبينما يغسل كهنة عباد سبتمبر الخطايا عن الجسد الشحيم لبائع النساء، بالصابون المغشوش باهظ الثمن، قتلت أنا فتاة الميزان، أراها تنقل قدما دقيقة أمام الأخرى فوق الحبل المشدود، برشاقة تنقلب وتدور في الهواء لتعود واقفة على قدميها مرة أخرى فوق الحبل. في دورانها يتكشف كل ما بخلت عليّ بلمسه أو حتى رؤيته.

ـ أحلال على مشاهدي عروضك وحرام علي؟

ـ أحلال على عابد سبتمبر أن يطمع في فتاة لم تبلغ مبلغ النساء؟

لم أستطع قتل طفلة، فقط صوبت سهمي نحو الحبل المشدود فانقطع، سقطت على عنقها، ماتت!

بينما تعوي أمها على فراقها، وبينما يكتب يناير عن السيد النجمي والكون الذي جاء منه، وبينما أصنع لنفسي وشاحا خفيفا أخفي به أنفي الجديد وشق



فمي، كانت صاحبات الحوت والحمل والجدي والسرطان والأسد في خطر محدق جراء ما كتبه يناير عليّ وما كتبنه على أنفسهن. سيعرفن، متأخرا جدا في الواقع، أن رجلا بلا وجه ليس بالضرورة رجلا بلا قلب.

في اليوم التاسع بعد تجلي النجمي، كنت قد تخلصت ممن وجدتهن من صاحبات الرموز، وبقي لي قتل الثور، لكنني أبدا لم أجد الجوزاء ولا العقرب. ولم ينمحي نقشيهما عن دائرة الرموز.

لعجبي، لم يفتقد أحد غيبتي، فكل عباد سبتمبر بلا وجوه وكلهم يجيدون تسلم الهدايا وغسل الخطايا وخدمتك يا سيدي ديسمبر.

تسللت ليلا كعادتي منذ أن بدأت الملامح تنبت في وجهي البائر. كان المعبد خاليا، دائرة الرموز خالية إلا من الثور والعقرب والجوزاء، لم يكلف أحد نفسه أن يتساءل أين ذهبت الرموز كأنها كانت هما وزال.

جلست وظهري للمذبح أبكي، لا تغادر صور النساء اللائي قتلتهن مخيلتي، سؤال يلح علي، هل هن الرموز حقا أم أنك قتلت كل من محت ملمحا من وجهك طيلة حياتك؟ لطالما كرهت أن تكون لا أحد، ألا تكون لك حـ بة ولا ولد، عابد لرموز لا تفهمها، لإله لا يتجلى إلا لمصلحته.. أم لعله لم يتجل من الأساس؟ أنا سبتمبر، العبد، القاتل..

قمت فنثرت قطع الصابون أرضا وركلتها في كل صوب، عكفت على الرموز المتبقية أكحتها بنصل، كل الرموز التي اختفت حلت محلها خدوش عميقة، بالضبط كتلك الخدوش في روحي.

ـ سيدي سبتمبر.. العابد.. سيدي سبتمبر العائد..

يناير ينادي من عليائه فأجفل، أسرع الخطى إليه، أجده متشبثا بنافذة زنزانته، تنعكس على حبيبات عرق جبينه أضواء الصواعق فوق البركان.

ـ ماذا تريد؟

ـ ما رأيك في وجهك الجديد؟



كيف عرف وهو لم ينظر إلى وجهي حتى؟ سألته فترك نافذته وراح يحفر بعظمة دقيقة ـ ربما كانت لفأر ـ على الحائط نقشا ما، وأجاب:

ـ لأنني رسمته، كأي كاتب روايات، تبدأ شخصياته بلا ملامح ثم تنحتها الأحداث..

ـ تلك الأحداث التي كتبتها أنت عليهم، هم لم يختاروها ولم يختاروا أن تكتب أنت عنهم شيئا.

ـ أنا أكتب يا سيدي سبتمبر لأنني أعرف ما سيفعلونه لا أكثر..

ـ وكيف تعرف؟

ـ لو عرفتك جيدا وعرفت كل ما مضى من حياتك، سأستطيع التنبوء بدقه بما ستفعله وأين ستفعله.

استدار لي، وجهه في الظل مثلك يا سيدي، شعره الأبيض اكتسى بضي أحمر مخيف، صوته المنوم جعل ابتعادي عنه مستحيلا. مد كفه فاردا أربعة أصابع، أخبرني أن الناس نار أو ماء أو تراب أو هواء، أما من جبلوا على خلقة التراب والماء فيختارون دوما الانحدار، وأما من جبلوا على الهواء والنار فيميلون للسمو والارتفاع.

ـ أنت يا سيدي سبتمبر من تختار السمو أو الانحدار، وعلى حسب ما تختار أكتب أنا رواياتي وأنحت ملامحك. لكن، ربما كان الانحدار دفعه للسمو، وربما كان السمو خدعة للانحدار.

ـ وهل كتبت حكايات كل هؤلاء الناس كخلفية لحكايتي فقط؟

ـ ربما كانت حكايتك أنت هي خلفية لحكايات الناس، ربما كانت تمهيدا لحكاية أكبر وأهم.

ـ ما أنت؟

ـ يناير، فقط يناير..



وقفنا أمام النافذة الوحيدة ظهرا لظهر، لا أجرؤ على الابتعاد ولا أقدر على صياغة ألف سؤال يموج بعضها في بعض.

ظلانا ممدودان على يميني ويساره، كائن واحد مهيب بوجهين، جوزاء لعينة.

في طريقي خارجا من الزنزانة فقدت حذري وارتطمت بسبتمبر آخر، اعتذرت وهممت بالرحيل لكنه أمسك بكمي وحدق في وجهي ثم دفعني نحو الزنزانة:

ـ عد إلى زنزانتك يا سيدي يناير.

دفعني حتى وجدت نفسي ملقى على أرض الزنزانة أنظر مباشرة إلى نقش الماندالا على الحائط، لم يكن هناك أحد سواي، ولا أي أثر ليناير.

لم يقبل العابد سبتمبر حجتي أنني لست يناير، تحسست ملامح وجهي وتمنيت لو أن هناك صفحة ماء أنظر إلى ما حل بي. الحقيقة يا سيدي ديسمبر لم أتعود النظر إلى انعكاسي قط، ومنذ بدأت ملامحي في الظهور لم أجرؤ قط على النظر لملامح القاتل في وجهي. يناير يا سيدي من منحني وجه القاتل، لن يعطي النجمي أبدا لعنة كهذه.

أتيت أنت يا سيدي ديسمبر إلى الزنزانة بعد أن استدعاك أحد العباد، وجهك في الظل رغم نور الصباح المنسكب من فتحة النافذة على الأرض والحوائط.

أخفيت قوسي في عباءتي وقمت أركع لك، علك تذكر المطيع العابد سبتمبر. رفعت وجهي بسبابتك ونظرت لي.

ـ غُلّوه حتى يأتي موعد محاكمته في الغد.. لم يكن لي أن أثق بك يا يناير..

كنت تعني شيئا كالتهديد حين نعتني بيناير، تركتني لعباد سبتمبر

يوثقونني وهم محاذرون أن يمسوني، أنا يناير الذي لم ينل بركة المعبد!

بعد قليل جاءت إنتروبي بسلة الطعام، أدخلوها وأغلقوا الباب خلفها. ناولتني السلة وجلست صامتة تنظر للماندالا على الحائط.

ـ هناك خلل كبير في الماندالا، أعرف أنك لست يناير، ولا سبتمبر، ربما كنت الاثنين.. لم أعد أعرف شيئا.

اقتربت مني وأمسكت وجهي بين كفيها، تبحث عن أخيها في ملامحي. الأغرب يا سيدي أنني لم أعد أشعر نحوها كما يشعر الرجل تجاه المرأة. للحظة رأيت إنتروبي وهي طفلة تتعلق في لحية فبراير، رأيتني أقف وسط الماندالا على البحر أودع أبريل وأضع في يده رسالة مطوية، بعد لحظات أجده يقسط من السماء مفتت الأوصال، تصدر منه موسيقى عجيبة لم أسمع لها مثيلا. الأعجب أنني رأيت رؤوسا مقطوعة موصولة بما يشبه الحبال، رؤوسا لأناس لم أعرفهم من قبل، ورؤوسا لأناس مألوفين لي، هناك رأس يحمل ملامحي التي لا تشبه سبتمبر ولا تشبه يناير، لكنه بالتأكيد وجهي، كيف لا يعرف المرء نفسه؟

أصابني الهلع، فما عدت أعرف من أنا! ذكرياتي هي ذكريات سبتمبر معشوقة بذكريات ربما كانت ليناير، دقات قلبي تتسارع، تك تك تك، تكات لا دقات!

ـ قولي لي يا إنتروبي، من أنتم؟ من أين جئتم وماذا فعلتم بي؟

ـ يطول شرح الأمر، يعتمد الموضوع على رؤيتك لما حدث لقرية التراب البائدة، ولِمَ أبيدت.. هل تعرف لِمَ أبيدت؟

ـ أبيدت لأنها منحت الناس العدل.. هذا معروف.

ـ لم نستطع التأكد قط.. المهم، أنت تعرف أن يناير لم يكن مذنبا، وأننا جئنا من مكان بعيد جدا وبدأ بنا كل شيء، لم يكن لأحد منا وجود من قبل، ويناير هو من كتب ماضي كل منا، ونسج مستقبله..

ـ انتظري لحظة، كيف لم نكن موجودين؟ وكيف ليناير أن يكتب عنا فنوجد؟ وما الهدف؟



ضحكت، ضحكة مريرة وأخبرتني أن يناير يكتب الروايات، لا يخلق من عدم. أصلنا جميعا هناك في المكان البعيد الذي جئنا منه، وسنذهب بعد موتنا لمكان أبعد، لكنا سننسى أننا كنا هنا، بل لن نكون على هيئاتنا أصلا.

ـ عندما نرحل من هنا سنكون بذرة لكون آخر يا سيدي سبتمبر، كما نحن بذرة لهذا الكون. كل الأكوان متداخلة بالضبط كالدوائر في قلب الماندالا. ما تفعله في كون ما سيحدد لك دورك في كون آخر.

ـ وما دورنا هنا؟

ـ من يذكر؟

مبتسمة كأنها تتحدث عن لعبة.. لعبة نخسر فيها ولا نفوز أبدا ولا يمكننا الخروج منها.

في صباح اليوم العاشر، بينما يناير على ظهر سفينته يحمله الماء وتدفعه الريح إلى حيث الحب والعدل والحق، وبينما يجلس ديسمبر على كرسيه متشح بالظلال، ويحتل علية الأقوام مدرجات المعبد شامتين في الهرطيق الكافر وليد القرية اللعينة، ويرمقني عباد سبتمبر بتعالي الأطهار المطهرين، ألمح أحد العباد ـ ذاك الذي كان يراقبني حتما ـ يأخذ قوسي ويدسه في ثيابه، يغادر المعبد متسللا ربما بحثا عن وجه، أو رب.

أرى السيد النجمي يخرج من غرفة التجلي، مكسوا بالعقارب الحية، ينظر تجاهي وأنا مصلوب على المذبح. لا يبدو أن أحدا يراه سواي. كان هو العقرب وكان حريا بي أن أقتله أو لا، وقتها لم أكن لأتلوث بدماء ثأري وغضبي.

حكمت عليّ يا سيدي ديسمبر بالحرق حيا. تقدم عباد سبتمبر يحملونني إلى البركان. أرى السماء من فوقي وهتاف القوم ضدي.

ـ الموت ليناير قاتل أبريل

- الموت ليناير قاتل مايو
- الموت للعين جالب الثور
- الموت للساحر

خطر لي خاطر، لمَ لا نتأثر كثيرا بكل الحرارة التي يبعثها البركان من حولنا؟ هل تعودنا أم نحن مخلوقون لنتحملها؟ هل نحترق حقا حين نلقى في قلب السعير؟ أم أننا مجاز لا أكثر؟ بل ما الفارق بين الحقيقة والمجاز؟ لا يوجد في الحياة بقية لكل تلك التساؤلات.

عند فوهة البركان، كنت يا سيدي ديسمبر عن يميني، والنجمي عن شمالي.

لم أعد أخافه، فالنجمي لا وجود له، النجمي هو وجه آخر من وجوه رجل بلا ملامح. يا ليتني قتلته، يا ليتني قتلتني!

سمعت القوم يهمهمون، التفت بقدر ما استطعت لأرى الثور الأحمر وإنتروبي. انفتحت السماء من فوقي ورأيت كل شيء.

بينما ينال الأقوام انتقامهم من يناير، وبينما تخلص سيدي ديسمبر من ابن القرية البائدة ومن العابد الذي عرف الحق في ضربة واحدة، وبينما العابد المتسلل بقوسي - أو ربما كانوا أكثر من عابد - يزيل آخر الرموز من على الدائرة، ويمزق ستار حجرة التجلي النجمي ليمنح ما فيها للفقراء، كبطل للحكاية الأصلية التي سطر يناير حكايتي كخلفية لها. أذوب في الكون الجديد، لم أزل مخضبا بدماء من قتلت لكنني حللت الآن في كون رست فيه سفينة العادل العارف يناير.

* * *

تباهى سبتمبر بفعلته هاتفا بفخر:

- وحتما حين ألقوني في السعير، ألقوا يناير أيضا وبذلك أكون أنا من قتلت يناير حين طالبت بحبسه من البداية.



تزاحم الناس يتنازع كل منهم الحق في الكلام، صاح ديسمبر وقد عادت هيبته بعد أن اختفى سبتمبر بين الصفوف، وذاب في صف طويل من عباد سبتمبر معدومي الوجوه.

ـ صمتا.. لن أسمع كل واحد هنا، وقد بدا ممن سمعتهم أن الجميع يسعى للظفر بشرف قتله. أبريل، الصادق، احك شهادتك ولتكونن الأخيرة، بعدها أحكم من قتل يناير، وإلا فالجميع صادق والجميع كاذب.

ـ سيدي ديسمبر، أنا قتلت يناير ولدي أسبابي..

* * *



شهادة أبريل

لا أذكر أين كنت قبل أن تقذفني السماء في رحاب العزيز يناير. كنت أهوي بلا انقطاع، أرى كفي تنبت من الفراغ، جسد، حرارة، أسقط، عينان، تراب وأصداف متكسرة.

رأيته ففزعت، وهو إحساس انتابني يومها للمرة الأولى. الحقيقةِ يا سيدي ديسمبر، كل شيء في ذلك اليوم كان يحدث لي للمرة الأولى. أتنفس للمرة الأولى، أشعر، أمشي، ألمس للمرة الأولى.

لا أعرف كيف أصف شعوري حين رأيت سيدي يناير، كان يجلس وسط ما عرفت أن اسمها «ماندالا» يرمق السماء ويكتب، ووجدني أسقط أمامه من أعلى.

شفافا كان، أبيض البشرة والشعر، مهموما مكسورا وحيدا. العجيب أنه لم يُدهش لوصولي بهذه الطريقة، فقط قام وأعطاني عباءته البيضاء أستر بها جسدي الجديد.

الحقيقة يا سيدي ديسمبر، لم يكن لي وجود مادي قبل أن يتلقاني يناير في كونه، لقد كنت ببساطة في كون آخر، منبوذا وحيدا، معنى مجردا. لا أستطيع بالطبع أن أصف لك شعور المعنى المجرد، لكنني أؤكد لك يا سيدي أنني كنت أمتلك وعيا من نوع خاص، ذلك الوعي قد امتلأ عن آخره بمشاعر الرفض والإحباط. لفظوني من ذلك الكون ظنا منهم أنني



قد فنيت وانتهيت. لكن ها أنا الدليل الحي على نظرية يناير عن الأكوان المتعددة.

تلك هي الصدفة العجيبة التي جعلتني أقذف إلى هذا الكون وألتقي يناير تحديدا. هناك شيء أعظم ينتظرنا بالتأكيد، فلا شيء في الكون يخضع للصدف البحتة.

أسماني سيدي يناير، أبريل، وهو اسم لقبيلة من النساء الخالدات في هذا الكون، أعمارهن طويلة جدا، لكن ولا واحدة منهن قادرة على الإنجاب. لا يعرف أحد من أين وجدوا، لكن يبدو أنهن موجودات منذ الأزل.

ولسبب واضح يا سيدي ديسمبر، كنت منبوذا تماما كيناير وإنتروبي، لم يسأل أحد من أين جئت، فقط تلقيت أسوأ معاملة ممكنة، ما جعلني دائم التخفي والهرب حين لا أكون إلى جوار سيدي يناير. وحين أرافقه، أتعلم منه وأكتب وراءه أسرار الكون التي تتجلى له في الماء والهواء وزفرات الحيوانات الصغيرة.

عشت بعض الوقت بين النسوة الطيبات من قوم أبريل وبين قرية التراب البائدة، حتى ألمّ بي مرض عجيب، ارتفعت درجة حرارتي ولم تنخفض حتى بنقعي في ماء البحر البارد.

كانت الموجودات من حولي تظلم وتزداد حرارة جسدي، وجه يناير الأبيض يغيب في الظلمات، وأجد نفسي في كون آخر!

أرى الأصوات وأسمع الألوان، كائن غير مرئي، تتغير ذبذباته كي تلائم الأصوات والألوان. أنا لا أسمع الألوان ولا أرى الأصوات، أنا أكونها وأشعر بها.. هل تعرف يا سيدي كيف يشعر الأخضر؟ كيف تفكر أصداء النواقيس؟

أنسحب من ذلك الكون وأجد نفسي وسط المندالا على شاطئ البحر. يناير طفل صغير يرى المندالا أول مرة وأنا وسطها. يجري نحوي يسترني بقميصه ويجلس جواري يرتجف.



ـ أهلا.. أنا يناير.. من أنت؟

ـ أنا! أنا أبريل.. هل أنت سيدي يناير أم أنت ابنه؟

ـ لا يناير غيري هنا.. للأسف..

فتح قلبه الصغير لي، ذلك القلب الذي يصدر تكات لا دقات، عن حيرته وخوفه، وحدته واللوم الموجه له من السماء دوما.

سألني عن معنى تلك الأصداف المرصوصة على الشاطئ، كان هو من حكى لي عن معناها حين قابلته في المرة السابقة، أخذت بيده وصعدنا على تلة من الرمال كي يستطيع أن يرى الشكل الدائري جيدا، ورحت أشير له هنا وهناك موضحا ما عسر عليه فهمه.

ـ المندالا تعني الدائرة، وهي رسم للكون بشكل فلسفي. في المنتصف هذا المربع ذو البوابات الأربع حول ثلاث دوائر كبيرة متداخلة. هذا الرسم هو الكون الكبير حولنا، وهو أيضا العالم الصغير الكامن في داخلنا. إن ما يحدث في الكون، بكل تفاصيلة وقوانينه، هو ذات ما يحدث بداخلنا. الكون على اتساعة متوحد بالضبط كوحدة الروح والجسد.

قال لي يناير «الكبير» يوما إننا إن فهمنا أنفسنا، سنستطيع أن نفهم من حولنا، وأن نفهم الكون، بل والأكوان الأخرى. الماندالا هي الحياة التي لا تنتهي ولا يمكن الفرار منها، فقط نتحول من حالة لحالة، تنسج خيوطنا في نسيج الكون الكبير.

يستخدم يناير «الكبير» المندالا كي يفتح أبواب السماوات، كان يظن أنه قادر على احتواء الكون بين أضلعه ومن ثم إصلاحه.

ـ الماندلا يا سيدي يناير توضح لك أنك لست محور الكون، إلا أنك بالفعل أحد محاوره. هي خريطة توضح لك المسارات بينك وبين كل شيء



حوله، أشخاص، معان، فلسفات.. كونك محور للكون، لا يعني أن كل شيء يحدث فيه مصمم لك فقط، لكنك نقطة للاستقبال والإرسال.. لست وحدك هكذا، كلنا في منتصف ماندالاتنا.

رسمت له الماندلا على قطعة من «ورق» وجدتها على الشاطئ. منقوش على أحد أوجهها كلمات بلغة ما. أعطيتها له فوضعها في كيسه القماشي المحمل على كتفه.

توالت بعد ذلك يا سيدي ديسمبر نوبات مرضي، في كل مرة أغيب عن عالم يناير لأجد نفسي في كون آخر، أكوان يا سيدي ليس للغتنا سبيل إلى وصفها.

وحين أعود، أجد يناير في انتظاري، في عمر مختلف وحالة نفسية أسوأ من سابقتها.

أحيانا كثيرة كنت أجده يحفر قبرا لنفسه، يجلس فيه منتظرا الموت. أحفر حوله وأجذبه خارجا. يرتمي على ظهره ويرمق النجوم في السماء، وتنفلت من عينيه نجمتين دقيقتين تنحدران لغياهب لحيته الناصعة.

- سأموت يوما يا أبريل ولن أجد من يدفنني.

كانت تلك حيقية، وأنا أعرف الحقيقة حين أسمعها. كان القوم متكالبين حول رضا إنتروبي، حورية التراب. يصنعون لها التماثيل ويضعون تحت قدميها الجواهر والقرابين. ملكة الجنة، بينما كان يناير بالنسبة لهم خادم الجحيم.

يقولون إنها كانت أبرع عاهرة في عالمنا، بل كانت هي أول من سنت العهر هنا.

يأتي الرجال ويلقون بأحمالهم في أحضانها، تبلع نساؤهن الطين ويصمتن. يلمن يناير على تركه لأخته تتلاعب بحيوات رجالهن.

ينظرن في المرايا ويلعنّ يناير، فقد جاء ومعه الزمن، ذاك الذي يحفر بفأسه في وجوههن يمنة ويسرة.



كان عالمنا يتفسخ فعليا، فمنذ ولادة يناير وإنتروبي كما قيل لي، أصبح الناس يسمعون تكات في الهواء من حولهم، تيك تيك تيك، تماما كنبضات قلب يناير. ثم صار الناس يهرمون، يموتون، تتحلل جثثهم ثم تختفي. أين تذهب الأجساد بعد الموت؟ لو قلت لهم ما أعرفه لما صدقني أحد.

يرسم يناير في منتصف ماندلاته ديكا وخنزيرا وثعبانا، الثالوث الذي يحلل عالمنا، الشهوة والجهل والكراهية.

وكنت أقفز بين الأكوان، أختفي وأعود لأجد يناير وقد ازداد له القوم كرها، وازداد حملا على حمل. لكنني أذكر البداية جيدا يا سيدي، تلك الرسالة التي جاءته من امرأة من كون آخر، تلك التي كانت ترى الأناس المتحكم فيهم كدمى خشب بخيوط. تلك المرأة التي أحبت ابنها قبل ولادته وفقدت عقلها بفقدانه. رسالة أرست السؤال الأهم في حياة سيدي يناير: من هي أمي ومن أبي؟ هل كانا سيحبانني لو عاشا ليرياني؟

كنت أتبعه يطوف في أرجاء القرى يجمع رسائله، لا يوقفه شيء إلا بكاء طفل رضيع، أو نداء أم ملهوف على إبنها، أو ضحكات أب على لعثمة طفلته في أولى كلماتها.

أنت تعرف يا سيدي ديسمبر حكايته مع مايو البائسة، تلك الحكاية التي فرت بعدها إنتروبي لتعيش في أحضان الرجال.

ثم كانت النعمة التي هبطت عليه من السماء، يونيو، الساحرة الصغيرة التي كانت تتلقى علوم الأكوان وفلسفاتها، ثم تنساها. تلك التي أحالت حياة يناير إلى نعيم يطفو فوق جحيم. يوما ما ستفقد يوينو بصرها وذاكرتها، ستطبع تمثالا أصم كتلك التماثيل التي تصنعها.

كنت، كما تعلم يا سيدي، سببا بشكل أو بآخر في صنع الساعة العجيبة، إلا أن سيدتي يونيو كانت مشوشة حين قالت إن الساعة هي ما نظمت أعمار القوم، بل ولا هما اللذان أطلقا الزمن من مكمنه.



هل ستصدق يا سيدي أن قبل التوأم لم يكن هناك شيء؟ لم يكن هناك أي منكم، وقد وجدتم جميعا يوم ولد يناير وأخته. ما تذكرونه عن حيواتكم السابقة ماهو إلا بقايا الحياة التي عشتموها كمعان مجردة في كون آخر. لقد قُذفتم إلى هذا الكون بعد أن فتح يناير الباب إليه. لقد كنت أنا الصدق في ذات الكون الذي كان فيه سيدي فبراير الشهامة، وسيدتي يونيو العلم وسيدتي مايو اللانهاية وبالطبع سيدتي إنتروبي العشوائية التي تهب كل شيء الحياة والموت.

بدأ كل شيء فوضاوي مع انطلاق يناير وأخته من غمدهما، ثم بدأت الأمور تهدأ وبدأت الأعمار تنتظم، مع نضوج إنتروبي وكفها عن العبث كطفلة لاهية.

ثم جاءت الساعة تجسيدا لكوننا، زماننا ومكاننا، واستطاعت يوينو أن تتحكم في ما أثرت فيه أمها، فحبستها داخلها ومحت ما خطته حورية التراب في كوننا، فعاد الزمن إلى الوراء. لن أعيد ما حكته سيدتي يونيو، فقد كان ما قالته دقيقا ولم أكن أعرف أن سيدتي إنتروبي في الساعة.

حين جاء الناس كي ينتقموا من يناير لما فعلته الساعة فيهم، كانت أبواب الكون مفتوحة، احتضنت يناير متسائلا إن كنت سأستطيع الفرار به إلى كون آخر، أم أن القفز بين الأكوان حكر عليّ.

كانت الفوضى تضرب أطنابها حولنا، الحرارة ترتفع وكل شيء يتحلل ويتفكك، تذوب الموجودات بما فيها الماندالا في خليط ترابي باهت، لقد تفكك كوننا بموت إنتروبي في الساعة.

قُذفنا إلى كون ما، حيث صرنا أشجارا يصنعون منها الأوراق، يكتبون عليها بثهم وحزنهم، إلى يناير، دمعة، شطب كلمة، تردد، كرمشات، قطعات، ظرف، إرسال، إهمال.

في كون آخر، يجلس المتسول يعزف على كمان ناقص الأوتار، يستقبلنا، يؤرجحنا بقوسه على وتره المرخي، نشاز، رفض، احتيال، جنون. نرحل إلى كون آخر عبر بوابة أخرى للسماوات.



يرسم بحر الماندالا على حائطه، يبكي، تتخلى عنه الجاذبية، يمس كرة الماء خارج دلو نيوتن، فيمس قانونا فيزيائيا، نعم، هذا هو يناير الذي مسسته فكسرته.

نعانق لسان الطفلة المنسية في كلماتها.. وحدة، حب، شهوة، غياب، موت، موت، موت.

دقات قلب يناير تحرك العقرب الكبير في ساعة الميدان، الآلاف ينظرون، يحفر الزمن على ظهورهم جلدات الذات، الحرية، الخلاص، اليأس، الثورة.

نمسي أفكارا في عقول بلا أجساد، حيث كون المكان الممتد، يناير وإنتروبي، يَانُوس، فاتح بوابات السماء وباعث الزمن.

لا يزال سيدي يناير رغم كل ذلك، قادرا على التألم، يناير، كن رحيما بنفسك أيها العزيز. يذوب يناير مني في الأكوان ويتفكك. أحاول أن أجد له وطنا في كون يقبله فلا أجد.

أعود في زمن بعيد، لكون يناير لا يزال وليدا على فخذي فبراير، وكنت أنا الضوء في نيران مشعل مارس الحزين، يرى الجميع الرق في يدي يناير، فالضوء هو ما يجعلنا نرى وهو ما يعمينا عن الصدق.

يراني مارس على الرق، اكتب «ويسمى ابننا يناير...» فقط أزيد كلمة «ابننا» كي لا يحزن يناير العزيز. لك أب وأم يا سيدي فلا تبتئس، أم تراني كتبت عليك البؤس بفعلتي؟

لقد فقدت يناير يا سيدي ديسمبر، وكتبت عليه من يوم مولده الشقاء وكنت أظنني أنقذه.

لكنني أعرف أن يناير سيجد مخرجا، حين ينتهي من إصلاح الأكوان، سيجد بابا إلى كون يعرف قدره، أو ربما يعود من حيث جاء، يحتفي به قومه، تقبل أمه جبينه ويفخر أبوه في المجالس ببطولة ابنه.

أما أنا، فسأعود من حيث جئت، سأعود صدقا مشهرا في الوجوه، وسأنتظر يناير في كل لحظة من عمر الكون المديد.

* * *

قام ديسمبر، شق صفوف الناس خارجا وسار حتى بلغ البحر. الشمس تشرق وتلقي الوهج على وجهه، تزيل الظلال وسواد الشعر عنه، فينكشف بياض اللؤلؤ في شعره وشحوب الشمع في جلده.

قطعة الرق في يده «ونسمي ابننا يناير، ونسمي ابنتنا إنتروبي». كان يعلم أن زواجه بيناير الأخيرة خطيئة لا تغتفر لقوم ديسمبر القضاة.

لقد أعطت قرية التراب البائدة الحب لديسمبر، أعطته البنت والولد، أعطته العار من أهله قوم ديسمبر العادلين.

وكان الحكم عليه أن يمحو ما اقترفه قلبه في حق يناير الأخيرة. منتفخة بالحبل جلست جوار التنور، مسحت دموعها بطرف كمها المترب ونظرت للمرة الأخيرة لوجه ديسمبر.

- حبيبي، العاصفة قادمة، هذا هو الحكم على خطيئتنا، دعها تمحو ما فعلناه، اتركني واذهب، اعترف لهم بندمك وتوبتك وسينسى الناس عنا كل شيء.

ستزول القرية قريبا ولن يبقى له سوى اللوم والعار. صرخت يناير الأخيرة ورأى ديسمبر الطفل الأول ينزلق باكيا. أطبق كفيه على عنق يناير الأولى. لم تقاوم، ولم تنصرف عيناها عن عينيه.

سيمحو كل ما حدث، لن يفرط في مستقبله كسيد لقومه، لن يترك أخطاء الماضي تنمو أشواكا تحت قدميه.

يبكي الصغير ويصارع صوت حياته رياح الموت، يمد ديسمبر يده نحو عنق الوليد، لن يستطيع، ذاك الرضيع الذي يحمل وجهه، والحب الذي أعطته أمه بلا حدود.

خط على رق صغير اسم الطفل وأخته المحشورة بين ساقي حبيبته القتيلة، ثم دسها في كف الوليد.

من رحم يناير الأخيرة يولد زمن جديد محمل بخطايا لن تموت. اندفع فبراير حاملا مشعله من الباب المفتوح، فاختبأ ديسمبر حتى دخل القوم وامتلأ بهم فراغ البيت الطيني الضيق.



- من يسمي طفلا برئيا باسم يناير؟

قوم يناير هم من أعطوا الحب والعدل والسلام، من أعطوا البدايات الجديدة والأمل والوعد. هم الملامون وعليهم يقع كل ذنب الزمان والمكان وساكنيهما، وإلى النهايات دوما يؤول الحكم عليهم، إلى قوم ديسمبر المصير.

تسلل ديسمبر من خلف الناس ووقف مستندا إلى فتحة الباب، في الظلال الأبدية يستطيع أن يكسو ملامحه بأي مظهر يريدون له. لقد تم قبول تكفيره عن ذنبه في مجلس ديسمبر العظيم وتم تغيير ملامحه إلى الأبد. وجه من وجوه العدالة المئة، أم للعدالة وجه واحد قد فُقِد وعليه الاختيار من الأوجه التسعة والتسعين للظلم؟

انصرف القوم، فلا يجرؤ أحد على كفالة طفل اسمه يناير. جالسا على الأرض يوسد الطفلين فخذيه، فبراير الهالك بشهامته.

على الشاطئ، ترك ديسمبر قطعة الرق تحملها الريح إلى حيث ذهب يناير أخيرا. لن يقتل أحد يناير حتى لو ود الجميع قتل البدايات اللعينة. يناير باق ما بقي ديسمبر، كقوسين يحملان الحياة بينهما. كطرفين للزمان المشدود، المعلقة عليه الأمال والخيبات.

خلع ديسمبر حذاءه وبطرف قدمه رسم على الشاطئ ماندالا عملاقة. جلس وسطها متربعا، فك شعره الأبيض الطويل وطرح عنه زيه الأسود. اليوم يتحرر من الظلال، اليوم رأس العام وغدا أول يناير.

* * *

تمت

في نهاية عام ما



(٣)

تجربة سردية!

مواطن يوم الخميس



- هناك لعبة ما.
- أنت مشارك في اللعبة..
- لا يمكنك أن تكسب..
- يمكنك فقط أن تخسر..
- لا يمكنك الخروج من اللعبة!

*   *   *

ـ حسنا، إن كنت ستكتب رواية فلا بد لك أن تحدد بطلك، تصمم حدثا محوريا يغير من رتابة حياته تماما، على أن يمثل نتاج هذا الحدث أبرز مخاوف بطلك. حدد رد فعله، هدفه وخطته. ثم لا تنس أن تغير رحلة البطل في الرواية من شخصيته. لا تنس أن يكون التغيير ملحوظا ومؤثرا. المهم أن تسأل نفسك بين الوقت والآخر، هل قسوت على بطلك بما في الكفاية؟ اقسُ عليه!

*   *   *

أن يكون اسمك يَانُوس، أن تكون أحد مواطني يوم الخميس، ذلكم الذين يكدون تحت الشمس ويحفرون الآبار ويشيدون البناء، ثم يختلسون لحظات مساء الخميس في غفلة من أسيادهم، رشفات من شفاة حبيبة خلف أكوام القمامة في الأزقة، قبلة على جبين أب يودع حياته البائسة لأخرى ربما كانت أكثر بؤسا.



الأفضل دوما أن تموت يوم الخميس، فهو يوم مفضل دائما للانتحار، هكذا تجد من يبكي عليك، أو من يهيل عليك ردما من تراب تحت شجرة جافة. إن متَّ في يوم غير ذلك فلن يلحظ اختفاءك أحد حتى يوم الخميس التالي. ربما وجد أحدهم حينها بقايا عظامك فأزاحها بطرف حذائه جوار سور مهدم ملوث بالبول، ربما سلخ أحدهم عن جثتك ما تبقى من ملابسك وغسلها في قناة الصرف ليرتديها في بداية الأسبوع. ربما قذفتك الرياح هنا أو هناك فتعلق بقاياك على سلك شائك.

في عيد مولدك الثامن عشر لا يسعك إلا أن تثمل، تضحك وتدور حول النار المشتعلة في بقايا قمامة خلف المساكن الشعبية في آخر الحي. ترقص وترى نظرات الفتيات يتفحصن جسدك المزدان بعشرات الجروح، التي سببت أغلبها لنفسك وسبب الباقي لك أطفال يوم الخميس اللاهين.

تقوم فتاة لن تذكر اسمها في الصباح التالي، ترقص وتتحسس شعرك الأبيض الطويل. يَانُوس الثلجي، ترى انعكاس وجهها الموحل في عينيك الرماديتين. تحبك، تعشقك، تقطع عنك ملابسك فيهلل الشباب حولكما، اليوم هو الخميس فلنحيَ.

تدفعها فتسقط أرضا، تضحك في مجون وتمد ذراعيها إليك. تلعن في سرك الدوار وصوت أختك وهي تسلم الروح. ممدة، غارقة في نزيف الولادة. توصيك بابنتها فتقبل جبينها وتحمل الصغيرة الملوثة بالدماء بين ذراعيك. طفل يحمل طفلة، وكانت هي من مواليد يوم الخميس المحظوظين الذين وجدوا من يحملهم يوم ولادتهم.

تركع على ركبتيك ثم تلقي بثقلك وثقل أعوامك الثمانية عشر، فوق جسد فتاة الخميس العظمي. تقبلها وأنت تكتم أنفاسك، تجرع البوظة عفنة الرائحة وتسكب ما تبقى منها على وجه الفتاة.

الأضواء تعلو، سرينة مزعجة تفرق جمع الخميس من حولك، تدفعك الفتاة وتعدو في أي اتجاه غير الذي يأتي منه صوت السرينة.



تقف مكانك، تحدق في القادمين وأنت تجاهد كي تذكر ماذا يعني أن يتقدم منك رجال بلا سيقان، ولديهم بدلا منها عجلات ونظام دفع معقد يحل محل النصف السفلي في أجسادهم. الأضواء تصوب ناحيتك فتعميك.

ـ يَانُوس، تعال معنا ولن يصيبك مكروه.

تذكر أنهم لو أمسكوك لقطعوا يمناك، ثم في العام المقبل سيقطعون يسراك. خلال عشر سنوات ستغدو مثلهم، سكان الجزيرة، رؤوس بلا جسد. لكن ماذا لديك ليريدوك أنت بالذات؟

تجري، يلاحقونك في الأزقة، تلقي البراميل الصدئة في طريقهم، فيعتلوا الحوائط بدلا من الأرض. أحدهم يطل من النافذة فتسحق رأسه عجلاتهم.

تصعد فوق القطار وتعدو، تضحك وأنت تعلم أنك لن تستطيع فرارا. لا بد أن تعود لبيتك وتأخذ جونو ابنة أختك وتختفيا للأبد في مكان ما.

تقفز من فوق نهاية القطار، لا مفر أمامك إلا فتح غطاء بالوعة الصرف العمومية، شرايين رقبتك تكاد تنفجر من ثقلها. تدس جسدك في الظلام تحت الأرض. قدماك تلامسان الماء، الذي ليس ماء بالضبط. كاحلاك محاطان بأجسام نصف صلبة زلقة، تحاول ألا تفكر في ماهيتها. تجري منحنيا مبعثرا الفضلات الآدمية. تتعثر، تفرغ معدتك، تقوم مرة أخرى، ليست تلك مرتك الأولى في المجارير. تذكر رحلة مماثلة حين كنت طفلا تمسك كف أمك وتمسك أختك بكفك الأخرى. تتساقط من ذاكرتك الأربعة أعوام التي عشتها هناك، في مكان ما وراء البحر العظيم. تسقط الملامح عن أبيك فلا تذكر غير وجهه الغارق في الظلال.

أصوات الماكينات اللعينة تقترب. لا بد أنهم طوروا «الضواري» حتى صارت قادرة على النزول في المجاري أيضا.

تزداد ضربات قلبك، لو أمسكوك لماتت جونو. أنت عيناها اللتان تبصر بهما، وذاكرة أيامها القليلة.



تجد نفسك في بيتك، تنادي على جونو، هواء الليل يتسرب من بين ألواح صفيح الحوائط. جونو نائمة والعجوز فبرواريوس الراعي جوارها. يفتح ناظريه وينظر لك، اللوم في عينيه لكنه لا يستطيع أن يمنع عنك حياة الخميس، فيكفيك ما منع عنك من الحياة.

تهمس له أنك تريد الحديث معه. يتلفع بشاله الصوفي ويخرج متوكئا على ذراعك إلى الليل القارس.

ـ إنهم يلاحقونني!

ـ من؟

ـ الضواري.

ـ لماذا؟ لا تقل إنك ما زلت تكتب الروايات؟

ـ وما شأن الضواري بكتابتي للروايات؟ لو أرادوا بي عقوبة لأرسلوا لي رجال العِقد..

ـ تبدو غريبا يا يَانُوس.. كل شيء يبدو غريبا.. هل أحلم؟

ظلام المجارير يغلف كل الموجودات حولك، الضواري قد مروا من أمامك وها هم في نهاية النفق يخلعون غطاء البالوعة ويخرجون. توقفوا أمامك للحظات وأنت تكتم أنفاسك متخفيا في الظلام. يصوب ذهبي الشعر فيهم كاميرا صغيرة نحوك لثوان ثم يرحلون. كيف مروا بك ولم يروك؟ أم تراهم رأوك؟ فلمَ تركوك؟

تنتظر لنصف ساعة أخرى ثم تخرج من حيث خرجوا. تسير حتى تبلغ العشش الصفيح على حافة ترعة الري. العجوز فبرواريوس يجر خلفه كل ما يملكه في العالم، الثور الأحمر العجيب والحمل. يتوقف وينظر نحوك، يربط حبال مواشيه إلى شجرة عجفاء ويهرع إليك.

ـ ما لك يا بني؟ خميس سيئ آخر؟

ـ الأسوأ على الإطلاق.

- حلمت بك ليلة أمس، حلم كأنه حقيقة حتى إنني وجدت نفسي واقفا أمام البيت وحدي أحلم أنني أتحدث معك. تخيل، سرت وأنا نائم وحلمت وأنا واقف!

- ماذا رأيت في الحلم؟

- رأيتك تخبرني أن الضواري طاردتك، وأنك ما زلت تكتب سرا.. هل تكتب سرا يا يَانُوس؟

تعلم أن شيئا ما يحدث لك، تخبر فبرواريوس أنك أقلعت عن الكتابة، يخبرك أن هذا خير لك. يبتعد متجها إلى الحقول يبغي رزقا لمواشيه، لا تعرف من أين يأتي فبرواريوس بالمال ولا من أين يأكل، من يهتم؟

تندفع مناديا على جونو. تطل من تحت غطائها الخشن وتنظر نحو صوتك. تبتسم وتمد يدها نحوك. تقبلها وتطلب منها أن تكمل نومها. تنبش الأرض تحت حشيتك لتجد رواياتك ما زالت في مكمنها لم تمس. تعلم أن ما تفعله جريمة في نظر رجال العِقد، لكنك لا تؤمن بما يؤمنون، حرامك حلال لهم وحلالك حرام عليهم.

تجلس على حافة الترعة ترمق القذارات التي كانت تعلو جسدك تسبح مع التيار البطيء. تؤمن أن هناك قاذورات تحت جلدك لا تطالها المياه. تحك جلدك بحجر حتى يدمي. تقشر جروحك القديمة لتظل هناك. تذكرك بكل ما هجروك لأجله، وكل من هجروهم لأجلك.

تنادي عليك جونو، ما زالت عاشقة للعب بالطين. تتحسس ملامحك وتنحتها في كتل الطمي. تصنع تمثالا بوجهين على جانبي الرأس.

- هذا أنت يا يَانُوس. أنت أمي وأبي.. هل يشبهك؟

- كثيرا، يشبهني أكثر مما أشبه نفسي.

- لو كان لي أن أرى لمرة واحدة لاخترت أن أراك أنت.



عمرها نصف عمرك، وحياتها كل حياتك. تذكر وجهه في الظلام وأختك قد فارقت الحياة جوارك. دون سلام، دون أن يلقي حتى نظرة وداع على ابنته، يلف كفه المعدن على عنق الوليدة ويضغط. تتعلق برقبته، تركله. ترجوه أن يتركها ولك منه وعد ألا يراكما للأبد. تغرس أسنانك في لحم ذراعه فيدفعك أرضا. تسقط جونو بلا حراك على الأرض. نظرة مظلمة أخيرة منه عليكما ثم ينصرف.

لم تمت جونو، فقدت نظرها وبعض من عقلها، لكنها ما زالت حية ولا يهمك أي شيء آخر غير ذلك.

* * *

تنتظر حتى الغروب ولا يعود فبرواريوس. تحمل ابنة أختك على العربة الخشب الصغيرة وتفتش عنه الحقول. لا أثر له.

تسأل كالمجنون ولا تتوقع أن يجيبك أحد. ربما لو انتظرت للخميس لحصلت على إجابة ما. أما الآن فالكل يجري، الكل يكدح، الكل يجمع اللقيمات القديمة من التراب وينفضها ثم يلوكها على عجل.

تظن أنك تستطيع الهرب، لكن إلى أين؟ ومن أين لك المال للهرب ولإطعام نفسك وابنة أختك، دون أن تعمل فينكشف مكانك للضواري؟ كيف تهرب وأنت بعد لا تعرف أين ذهب فبرواريوس الطيب؟

تدس جونو رأسها الصغير تحت إبطك، وتطلب منك أنت تحكي لها حكاية. أن تحكي لها عن الأحداث التي نسيتها في عمرها الصغير. تغمض عينيك وتنسج من خيوط اليوم حكاية جديدة، ذكرى جديدة حالمة تحل محل الواقع القاسي المتسرب من قلب جونو. تحكي عن فتاة صغيرة شعرها الورود، وأخيها الذي يصدر من قلبه صوت تكات. كلما كبرت الصغيرة تسارع صوت تكات قلب أخيها، وتسارع الزمن واقتربت النهاية لكليهما.

ـ تلك ليست ذكريات حقيقة، أليس كذلك؟ من أين تأتي لك تلك الحكايات؟

- تدور في الحقيقة كواليس أفضل الروايات يا جونو. أنت تحلمين أليس كذلك؟ عقلك يصنع الأحلام من بقايا يومك وذكرياتك ومخاوفك. لا يأتي بشيء من خارج الواقع. كما نخلط الدقيق والماء لنحصل على الخبز، يخلط عقلك الواقع للحصول على الحلم.

- إذن فلن أستطع الكتابة يوما.. فأنا لم أر شيئا، لا يوجد مخزون في عقلي.. يانوس.. ماذا لو اختلط الواقع بالحلم؟

- ماذا؟ هو الجنون إذن!

هكذا تكتب، تخاف فتكتب، تستعذب الخوف فتكتب، يضيق عالمك عليك فتكتب وتكتب. تقسو على نفسك في رواياتك للتطهر، تلقي بمخاوفك في خلفية شخصياتك فتقتلها. تفتح جراحك وتتركها تنزف حبرا على الأوراق. لا تحمل هم أن يقرأ لك أحد، أو ينتقدك أحد. خيالك هو المكان الوحيد الذي لا ينازعك فيه مالك.

يأتي المساء بلا طعام، لا تطلب جونو منك شيئا أبدا، تنام مبكرة على فخذك، تسمع صوت أمعاءها الخاوية تشكو وحدتها. لمن ستتركها غدا كي تذهب إلى عملك؟ ماذا لو طاردتك الضواري مرة أخرى؟

في الفجر تحمل جونو على ظهرك وتتجه لعملك، لتجد شابا يقف بدلا منك يقلب قدر الصابون المستعمل، ويصبه في قوالب جديدة، لا تكلف نفسك عناء عتاب صاحب العمل. صبية يعدون خلف فأر هزيل، يصدمونك فتسقط وجونو أرضا. يبدو أن قدمها قد أصيبت. لا تملك المال لمداواتها، لا يملك أحد ترف المساعدة بلا مقابل.

يوم آخر طعامه الأعشاب الجافة. يوم آخر وأنت ترى من حولك ينسلون من حياتك طوعا أو كراهية. جونو محمومة، جرح ساقها مفتوح يتجمع حوله الذباب.

تسأل عن فبروايريوس، لا مجيب، لم يره أحد يرعى حتى. طفل جالس يمتص زلطة وجدها، يشير لك نحو الشمال ويقول إنه ذهب معهم وثوره



وحمله. من؟ يهز كتفيه، يتربع، يربط الزلطة على سرته ويشد وثاقها.
تريح جونو البائسة جوار الجدار وتخفيها خلف صناديق ورقية قديمة. تخرج إلى الميناء بحثا عن رزق. تفتح حقيبتك القماش، منشار صدئ، مفتاح، حبل، قنينة عطر مكسورة. لو لم تجد عملا اليوم ستضطر إلى بيع ما في الحقيبة، وليته يكفي لعلاج جونو.
تمر على قوم يقطعون الأخشاب لبناء سفينة. تخرج منشارك وتقطع معهم. يهمس لك أحدهم:

ـ العمل هنا بلا نقود، العمل مقابل ركوبة.
ـ ركوبة إلى أين؟
يشير إلى الجانب الآخر من البحر. لمَ يريدون الذهاب هناك؟ وماذا سيفعلون لو مروا دون أن يقتلهم الحرس؟
تشعر بعينين تحملقان في قفاك فتنظر، الزحام يجعل من المستحيل أن تعرف من يفعل ماذا.

ـ حين نصل إلى هناك، سنلتحق بالضواري.

تعرف أنهم إن وصلوا هناك سيبيعون أعضاءهم للأغنياء الفارين من «الواجب». يبيعون ذراعا فإن انتهت أموالهم يبيعون ساقا، كلية، قلبا.. ثم تطوح رؤوسهم لكلاب الشوارع.
تتساءل: ما فرصك في العمل هناك؟ لو سلمت نفسك للضواري فهل تضمن أن تعيش جونو مكرمة حتى نهاية عمرها؟ ما الضمان وأنت حينها ستغدو رأسا بلا جسد. حي في عالم من الموتى لخدمة غرض لا تفهمه.

ـ هل تعرف ماذا يحدث حين.. أنت تعرف.. حين توصل رأس الأشخاص من الفئة بيتا أو جاما لا أذكر، بالأجهزة التي تجعلهم أحياء، ماذا سيرون؟



هل سيحلمون؟ هل يُعدون أحياء من الأساس؟

ـ السؤال الأدق هو، ما الغرض من كل ذلك؟

تعرف أنك حين تعود ستكتب سرا عن العالم الذي يحيا فيه نسخ منا لا ندري عنهم شيئا. عن فردوس بلا ألم أو جوع. عن كون تكون فيها مخيرا.

تراهم أخذوا فبرواريوس؟ وما شأنهم به؟ بل ما شأنهم بثوره وحمله؟

رجل يقف عن المرسى ينظر نحوك. يبدو كأنه يعيش خميسا خاصا به بلا مسؤولية أو قلق. ملابسه نظيفه، حذاؤه لامع. كما سترته يرفرفان خلفه بلا ذراعين داخلهما. إنه منهم.

تدس منشارك في حقيبتك وتحاول ألا تلفت النظر إليك. تسير مسرعا في الأزقة وتتحاشى أن تنظر خلفك كي لا تذعر. سؤال يلح على عقلك: هل من جدوى للهرب؟ لو كانوا يريدونك الآن فسيأخذونك الآن. لمَ المراقبات والمطاردات؟

زئير عجلات الضواري يتعالى، تعدو، تصطدم بالمارة، تدوس عجلات الضواري على ما تجده في طريقها، إنسان أو حيوان. الصراخ يتعالى وتمتد الأيدي إليك، يوقفونك ليسلموك إليهم.

ـ كفاك هربا يا هذا، ارحم أطفالنا.

ـ أين ستفر يا أحمق؟

يلقي الناس بالعراقيل في طريقك، تتعثر، يجذبك أحدهم من قفاك ويلكمك. الدماء المالحة واصطكاك الأسنان المخلوعة في فمك يثير غثيانك.

تدخل مندفعا وتزيح الصناديق، تماثيل جونو الطين محطمة، دماء جافة على الأرض، أثر كف صغير جوار الباب. هذا ما تبقى من جونو!

تبصق أسنانك وتقوم. الضواري مصطفون على بعد أمتار قليلة في عمق الزقاق. يقترب كبيرهم منك، يمد يده نحوك كأنه على وشك لمس شعرك.



يعدل من وضع الكاميرا الدقيقة على كتفه ويبتسم لك.

ـ لقد فعلتها مرة أخرى! ستأتي معنا الآن، لا جدوى من الفرار.

* * *

تكتشف أنك لم تجد الوقت الكافي في حياتك كي ترى جسدك كاملا، وتحدق في كل جرح سببته لنفسك، جرح لكل إحباط، جرح لكل إحساس بالذنب، وجرح لكل فراق.

لا تدري كم مر عليك وأنت في تلك الغرفة. تتلاعب الإضاءة بشكل مستفز فتطفئ الأنوار. وجبات تدخل إليك من فتحة في الجدار. أوراق وأقلام جديدة لم تر مثلها منذ كنت في الرابعة.

النافذة لا تطل على شيء، بحر ممتد فتعلم أنك في مكان ما على الشاطئ الشمالي لجزيرة آرينا. لو كنت في جنوبها لرأيت قارة التراب من بعيد، لرأيت أضواء النيران وسحب دخان المصانع.

يأخذونك إلى حيث ترى جونو وفبرواريوس من خلف زجاج عازل. جرح جونو مضمد، فبرواريوس لحيته مجدولة نظيفة كعادة أهل آرينا. يقرأ لها من كتاب في الفلسفات القديمة، تستمع جونو وهي تنحت بالصلصال الملون تماثيل صغيرة لك كأنها تخشى أن تنسى ملامحك.

في نهاية الممر يقبل عليك شاب ناحل أسمر اللون، يصبغ قمة شعره الخشن المنفوش بالأخضر. حول عنقه قلادة مكتوب عليها «آفريل» وتحتها أربعة أسطر تتحدث عن لعبة ما.

يقف آفريل جواره، وينظر لجونو وفبرواريوس خلف الزجاج.

ـ أنا آفريل.

ـ يَانُوس.

ـ أعلم.. جونو بخير، جسديا.. لكن هناك شيئا ما يأكل ذاكرتها للأسف، هكذا قيل لي.



ـ إصابة قديمة في رأسها بعد ولادتها، ذاكرتها تتدهور بالفعل، أريد أن أتحدث إليها.

ـ للأسف لا بد أن نعزلها فترة كافية لدراسة... لنقل، لدراسة حالتها. هل فكرت من قبل في الهجرة إلى هنا، الآرينا كي تعالج أختك؟

ـ وماذا سيكون المقابل؟ جسدي؟

ـ أنا هنا منذ أعوام، وجسدي كامل. ربما كنت تملك شيئا أثمن يا يَانُوس.

شيء حميمي في آفريل يجذبك تجاهه، صوته، عفويته، صدقه. ربما ذلك البؤس القديم في عينيه من أيام اللهاث في الأزقة واختلاسات الخميس اليائسة.

ـ هل تعلم أنني قد تربيت في دار لرعاية المسنات؟ وجدوني أمام الباب أرضع من ضرع ذئب! تخيل؟ يقولون إن الذئبة حمتني ممن أرادوا أن يأكلوني ليلا. بمجرد أن خرجت أحد العجائز من باب الدار تركتني الذئبة لهم. حتى الآن أسمع عواءها تحمله الأمواج لي. شيء في صوتها فطري.. نقي.. شيء يذكرني بمن أكون.

تضبط نفسك منجرفا كليّة لكلمات آفريل، تعرف أنك لا تستمع لمتكلم ما لم تخل كلماته من وحي لرواياتك. تتحسس القلم في جيبك وتتمنى لو يتركونك لحظات لتدون حياة صبي ربته الذئاب في مكان جبلي مقفر، ثم خان الذئاب وقتلها في كبره. لا.. ستكتب عن عالم فيه الناس والذئاب إخوة من أصل واحد، أحدهم يحكم عالم الأحياء والآخر يحكم عالم الأموات.. نانابوتزهو وتشيبيابوس.. نعم، هما كذلك..

يميل آفريل عليك ويشير بيده في الهواء كأنه يمسك قلما ويكتب، يسألك هل تريد...؟ تهلع للحظة لكن عينيه السوداوين المتسعتين تطمئنانك. تهز رأسك إيجابا. يصحبك عبر الطرقات البراقة إلى قاعة واسعة مفتوحة السقف. تبدو النجوم في الأعلى أكثر سطوعا مما اعتدت. القاعة نفسها في حجم حي سكني.



على الأرض رسم شديد التعقيد موصول بأسلاك ودوائر كهربية، دوائر متداخلة يحيطها رسم لبوابات أربع. في المنتصف تماما ما يشبه الكرسي. حول الدائرة عدد آخر من المقاعد أقل حجما موصولة بأجهزة تبعث القشعريرة في جسدك. ذكرى ما تلح في الطفو لكنك تغرقها عمدا. ما مات يجب أن يظل في عالم الموتى.

يمسك آفريل كفك ويدعوك للجلوس في المنتصف. تجلس، الكرسي معدني بارد مخيف.

لم يكن هناك شيء، لا تجد في جعبتك كلمات لوصف ذلك اللاشيء، عدم، أنت نفسك لا شيء، تمتلك وعيا ما، شيء يشبه الإحساس الشبحي لعضو مبتور.

هل تستطيع أن تكتب رواية بلا أماكن ولا أزمنة ولا شخصيات؟

ماذا لو تستطيع؟

كف آفريل فوق كفك، عيناه السوداوان كطاقتين على السماوات الصافية. يركع على ركبتيه جوارك ويسأل همسا:

ـ ها.. هل رأيته؟

ـ ما الذي رأيته تحديدا؟ ماذا يحدث؟

ـ ششششش.. اهدأ.. ما رأيته هو البداية يا يَانُوس. ألم تتمن يوما أن تبدأ حياتك من جديد، تصوب الأخطاء وتختار ما لم تعطك حياتك حرية اختياره؟ هل منا من لم يتمن فرصة ثانية؟ ما رأيته يا يَانُوس هو الفرصة الثانية لكوننا، بل للأكوان جميعا.

* * *

تجول في شوارع آرينا الواسعة. المباني الرمادية الشاهقة على الصفين، الإضاءات متقطعة توتر الأعصاب. ألسنة برق تضرب السماء بلا صوت.



يرافقك مارش، شاب ثلاثيني ملتحق حديثا بالضواري وسيتركهم قريبا للانضمام إلى «اللعبة». لا تستطيع الفرار حتما، لا لشيء سوى جونو. كل يوم تقضيه في تجاربهم وتحقق نصرا ما، أبريل يجد أماكن الأكوان، وأنت تذهب إليها، تنقل إليها حيوانات أو كلمات أو أفكار. تنجح في كل مرة. يرسل إليك تخطيطا لمخ جونو وقد تم تثبيت ذكرى جديدة فيه. أما في تلك الأيام الأولى التي حاولت فيها خداعهم أو التملص منهم، كانت ذكرى أو اثنتان تختفيان من ذاكرة الصغيرة. حتى الآن لم يسمحوا لك بمقابلتها ولا تعرف تحديدا أيه ذكريات يثبتونها في عقلها الصغير. يطلبون منك أن تكتب كل ما تذكر من أحداث مشتركة مرت بك وجونو كي يثبتوها في عقلها، لكن ما الضامن لصدقهم؟

ماذا سيحدث لها لو بدأتم بالفعل في «الإرسال»؟ هل ستكون موجودا هنا وهناك في نفس الوقت كما يحدث دائما في أثناء التدريبات، أم أن وجودك هنا سيتلاشى للأبد كما حدث مع ثور فبرواريوس؟

- يقولون يا يَانُوس إنهم يحتاجون لحيوانات هناك، في ذلك الكون الجديد، شيء فطري يوازن وجودنا نحن بكل شهواتنا وعشوائيتنا وضغائننا. هل رأيت كيف اختفى الثور وبقي لونه الأحمر فقط هنا!

توحي لك تجربة الثور الأحمر برواية عن فتاة صغيرة، ربما جونو، تذهب لعالم سحري فيه قط يختفي ويترك ابتسامته خلفه.

- لكنه مع التكرار اختفى الثور تماما.. وقد سبقه الحمل إلى ذات المصير.. يقولون إن ذاك الثور والحمل مهجنان بجينات من أشخاص في الآرينا.. يقولون إن تركيبنا يختلف قليلا عن الحيوانات.. نمتلك وعيا ما لا يمتلكونه. الأمر كله عجيب يا يَانُوس.. يانوس.. لمَ لا تحدثني كما أحدثك؟ ظننت أن الضغائن بيننا قد زالت. كنت فقط أؤدي عملي حين طاردتك.. وكل تلك المطاردات كانت لاستفزازك حتى تستخدم موهبتك ونسجلها على كاميراتنا.



لو ذكرت وجوه كل من طاردوك في حياتك لفاضت ذاكرتك وسالت من أذنيك. كل الأمر أن الحكايات تتراكم في عقلك وهم لا يدعونك تكتب شيئا خارج روايتهم الخاصة.

ـ أنا أسمعك يا مارش.. فقط أفكر في الرواية الكبيرة.
ـ وماذا ستجعل دوري فيها؟
ـ لو أخبرتك لأفسدت الرواية.. وأفسدت اللعبة. أنت أعلم بالقانون مني.

قط سمين يجلس فوق عمود إنارة، يبتسم فيظهر صف طويل من أسنانه اللامعة، يختفي ويترك ابتسامته خلفه. تتوقف عن السير وتحملق في مكان اختفائه. لا يراه أحد سواك. منذ أيام رأيته، النجمي، الحاكم الذي لا يموت، بطل رواية قديمة ضاعت منك في مجرى الصرف. كان هو، بكل تفاصيله، جلس أمامك في الحانة ووضع سيفه بينكما. قال لك إنك، يا يناير، قتلته وهو الحاكم الذي لا يموت. هل قال يناير أم يَانُوس؟
تجهض تمشيتك مع مارش وتعود إلى آفريل، تحكي له عن هلاوسك فيقطب جبينه. يراجع تخطيطات مخك.

ـ يَانُوس، أين كنت حين رأيت النجمي والقط؟
ـ عند ناصية طريق...
ـ لا.. لا أقصد المكان الفعلي.. أقصد هل كنت هنا أم في كون آخر؟

تصمت، بالفعل الحدود الفاصلة بين تنقلك في عالمك وفي العوالم الأخرى أصبحت واهية وشفافة. لم تعد تحتاج الكرسي ولا رسم بوابات السماء للولوج إلى الكون الذي يجرون عليه تجاربهم، وإلى أكوان أخرى أغرب وأكثر قدما.



- لا أعرف يا يَانُوس، هل الماندالا أثارت قدراتك الفطرية على التنقل الكمي بين الأكوان، أم أن كوننا قد وصل إلى درجة مفزعة من التحلل. أيا كان السبب، اثبت قدر الإمكان في كوننا هذا ولا تتنقل كثيرا. جزء منك يُفقد في كل مرة تنتقل فيها، أنا أعرف جيدا ما أتحدث عنه، صدقني.. آه.. لا تخبر أحد بما رأيته.

لو تركتهم وهربت، لضاعت جونو في غياهب النسيان. لو تركتهم لما وجدت كونا آخر تعيش فيه، لما وجد أحد سبيل إلى النجاة. كونك يتحلل يا يَانُوس ويفنى. والعالم مليء بالأكوان القديمة وإمكانية تفجير أكوان جديدة. مخلوقات كونك يا يَانُوس هم القادرون على إعمار كون جديد، وأنت الوحيد في كونك يا يَانُوس القادر على إضفاء الحياة على ذلك الكون الوليد.

يجبرونك على التجول في الجزيرة، على ارتياد الحانات والاختلاط بالناس. لا بد أن تجد خيوطا تنسج منها روايتك يا يَانُوس. مع كل مشهد تكتبه، تضاف ذكرى جديدة في عقل جونو، حتى لو لم تكن أنت في تلك الذكرى، هل ستهتم؟

يشرب مارش الخمر من الزجاجة مباشرة. امرأة تحمل طفلا تسير بين الطاولات. تشحذ طعاما أو مالا مقابل لمسة أو قبلة أو صفعة. تكشف لك عن ابتسامة متشققة صفراء، تملس على شعرك الفضي وتتشمم أطرافه. تنظر إلى جسدك الكامل. لا بد أنها تظنك من الأغنياء الفارين من «الواجب».

- يمكنني أن ألبي لك أي طلبات خاصة، أو غريبة.. أطلق لخيالك العنان.

- خيالي منطلق العنان بالفعل.. خذي الطعام الذي تريدينه وسأدفع، لا داعي لمقابل.

- تعلم أنهم طردوني من مبنى العقد حين طلبت مساعدة لي ولطفلي؟

أنت رجل طيب. لا أعرف من يأخذ أموال التبرعات، يبدو أنهم يقسمونها بينهم. لن تعرف أبدا مقدار المذلة التي أشعر بها حين يركلني رجال العقد ويمنعون عني الصدقة.. اللعنة عليهم جميعا.. هل.. هل تعرف يا سيدي أن أحدهم راودني عن نفسي! وأين؟ في مبنى العقد نفسه!

ظلت تحكي ولم تستطع منعها. تعرف جيدا ما تشعر به، وتعرف رجال العقد أكثر من أي شيء.

يكفي أنهم من وضعوا قواعد لما يسمونه الواجب، وتنصلوا هم منه. في الآرينا، حين تبلغ الثامنة عشر، وجب عليك الانضمام لتجاربهم الرهيبة، يقطعون منك سنويا عضوا من جسدك. بعد أربعة أعوام، يتم استئصال أعضاءك الداخلية وممارسة تمارين خاصة تنقل قواك إلى عقلك وروحك محل جسدك. بعد عشرة أعوام، أنت رأس موصول بأجهزة لضخ الدماء. عقلك يخطط لوجودك المتفرد. أنت موجة وجسيم في الآن ذاته، لا تخضع لجاذبية أو مكان أو زمان. يمكنك التنقل في أي بعد تريد أو أي كون شئت.

لو فشلت في الترقي إلى مستوى اللعبة؟ تلتحق بالضواري أو الخدمة في المعبد. لو هربت؟ المتنصلون والمتلاعبون كُثُر، ولا يعبأ بهم أحد ما داموا يدفعون للمعبد بانتظام.

بهذه الطريقة، كما حكى آفريل، تعرف أن هناك أكوان أخرى، تعرف أن هناك في كونك من هم قادرين على التنقل بين العوالم دون الخضوع للواجب، من هم قادرون على الوجود في مكانين بشكل فريد وخاص. كل وجود لهم في مكان يؤثر على الوجود في المكان آخر، بنسبة لا يستطيع أحد التنبؤ بها أو التعبير عنها.

هناك من لا يملكون أي قدرة على التنقل. هؤلاء هم من يعيشون أيام الخميس ويموتون باقي الأسبوع. هؤلاء هم من ينفقون من دمائهم وأعمارهم على الواجب وعلى مبتكريه، يعملون في أراضي ومصانع أهل الآرينا الأغنياء.

تشعر بثقل شديد في وزنك، يبدو أن من حولك في الحانة شعروا به كذلك. يبدو الأمر كأنك في الثانية الأولى من ركوبك مصعد يتحرك لأعلى بسرعة. إلا أن الثانية امتدت إلى ما يقرب من نصف دقيقة. ثم بدأ الشعور في الزيادة، وتوالت صرخات الذعر.

* * *

- كما توقعنا يا يَانُوس، عالمنا يتحلل ويخل بكل الأكوان من حوله. الجاذبية تنساب من كون ما إلى كوننا. مع ازدياد تجاربنا على التنقل الكمي، يتسارع المعدل الذي يتحلل به كوننا، كأن وجودنا هو الصمغ الذي يربط أجزاءه ببعضها. لا بد أن نسرع في نقل الشخصيات إلى مسرح روايتك.. هل انتهيت منها بعد؟

- وجونو يا آفريل؟ ما يضمن أنني سأظل هنا لأرعاها بينما أقوم بدوري في الرواية؟

- لا ضمان.. أنت الضمان.. أنت من ستنقلنا وأنت من سيكون الرابط بيننا وبين الكون الجديد. سنبدأ في الإرسال فجرا.

- لكنني لست مستعدا، لم أضع كل خطة الرواية بعد.. لدي فكرة مبدئية عن البطل، والحدث المحوري، لدي حلفاء وأعداء.. لدي هدف.. ينقصنـ...

- يكفي هذا.. يمكنك الارتجال.. أنت مرتجل ممتاز يا يَانُوس.. ولديك بالطبع تفاعل الشخصيات مع بعضها البعض.. لا تقلق.

- لا أرى كيف ستنتهي الرواية.. لا أستطيع الارتجال وحياة كل المشاركين في الرواية في خطر.. أنت بنفسك قلت إنني لا أتحكم في الانتقال بشكل كامل، لا أعرف متى أكون في عالمنا ومتى أكون في عالم آخر.

- لو لم ترتجل سينقطع النسيج الذي يمسك الأكوان بعضها في بعض. سننفرط كحبات عقد مقطوع.

- آفريل.. أريد أن أقابل رجال العقد، لن أفعل شيئا قبل أن أتحدث وجها لوجه لمبتكري هذا الجنون.

* * *



تصعد ويصعد آفريل أمامك السلالم الكهربية اللانهائية لدار العقد. في مرحلة ما تظن أنك تدور في دوائر، سلم حلزوني متصل أوله، فلا تدري إن كنت ترتقي أم تدور. يزداد الضباب كلما ارتقيتما لأعلى. ترى آفريل جيدا فلونه الأبنوسي يتناقض مع بياض الضباب، بينما يذوب شحوبك فيه كليّة.

ساعاتٌ تفصلك عن الإرسال الحقيقي. لا بد أن تعرف من أين بدأ كل هذا، من مبتكر اللعبة، لماذا أنت بالذات. والأهم.. ماذا عن جونو؟ ماذا عن فبرواريوس؟ ماذا عن كل الناس على الجانب الآخر من البحر؟

أصوات تكات كتكات التروس، دقات كدقات القلوب، أنفاس، همسات.

البهو الواسع في صدر الجبل يتوسطه مذبح من الفضة الخالصة. توابيت مرصوصة على دائر القاعة، في كل رأس مغمض العينين يطل من خلف غطاء زجاجي.

ساعة عملاقة بأربعة عقارب وميناء أبيض مرصع بخريطة القبة السماوية تمثل سقف المكان.

أنت يَانُوس، الأمهق في عالم ملون، الحالم في عالم واقعي. تحملك أمك وليدا وتناولك لأحد رجال العقد. يضعك على المذبح ويكشف عن صدرك. تتغير ملامحه ويشير لأبيك أن يقترب. تتسع عينا أمك ذعرا وتخبئ أختك وجهها في ثياب أمكما.

ـ قادر على كسر سهم الزمن والارتحال إلى أي «زمكان» تريد.. تكتب الروايات يا يَانُوس، وتعرف كيف تضم حبات العقد في خيط واحد تتوسطه أنت كحجر كريم.

هو، السابع، رجل العقد الذي كشف عن صدرك منذ ثمانية عشر عاما،



كيف رأيت ما حدث وكنت ساعتها وليدا؟ تنفض الذكرى العجيبة عنك وتجاهد كي تصدق أن ابتسامته حقيقية. شعره مضفور في ضفيرتين طويلتين حتى ركبتيه، مئزره الفيروزي يتناسب تماما ولون عينيه المضيئتين.

ـ سأجيبك يا يَانُوس عن كل ما تريد بقدر ما أعرف.
ـ ما هي اللعبة أو الواجب.. أو أيا ما تطلقون عليه.
ـ هو مشروع الانتقال إلى كون آخر مبدئي، من خلاله نستطيع حفظ توازن منظومة الأكوان بعد زوال كوننا.
ـ كيف؟

يمد يده الملفوفة في قطعة من قماش ويمسك كفك، يقودك إلى بركة من مادة شبيهة بالزئبق، تطفو فيها فقاعات ملونة لم تر لها مثيلا من قبل.

ـ منذ عقود مضت، ونحن نعرف أن هناك أكوانا فنت من قبلنا، وأكوانا نشأت بدلا منها عن طريق أسلافنا في الماضي السحيق بشكل ما لا نعرفه. منذ علمنا أن كوننا ينتهي ونحن نعمل بكل قدراتنا المادية والعلمية لإيجاد حل. نحن أبناء هذا الكون الوحيدون بين أبناء الأكوان الأخرى من يعرفون لم خُلِقوا. هل تعرف لم خلقت يا يَانُوس؟
ـ أنت قل لي.
ـ خُلقت، وخُلقنا لحفظ توازن الأكوان. أنت خلقت لحفظ توازن حياتك الصغيرة، كل شيء تفعله يؤثر على من حولك، مجتمعك، كونك وبالتالي الأكوان الأخرى. الأمر يشبه تلك البركة من الزئبق. كل كرة من الكرات السابحة فيه تمثل كونا كاملا، أي خلل في أي كون يؤثر على الزئبق الذي ينقل بدوره الخلل، أو بالأدق جزءا من الخلل للكون التالي، يختل الكون التالي حسب مكوناته وطريقة عمله، لينقل نسبة من الخلل للكون الذي يليه، وهكذا. الاختلال الكلي يسبب اختلالا جزئيا والعكس بالعكس.



ـ وما الذي يحدث لكوننا؟
ـ يفنى.. يتحلل ككل شيء له عمر. ولا بد أن ننجو نحن بأنفسنا إلى كون آخر مؤقت؛ نستطيع فيه أن ننقل كل معارفنا إلى كل الأكوان. ليتنا فعلنا ذلك مبكرين، لكن الأوان لم يفت. لا بد أن ننشئ كونا آخر لنحفظ التوازن والمعرفة.

يقشعر بدنك لسماع كلمات السابع. خلل، أكوان، فناء. هل يحدث كل هذا حقيقة أم أنك في إحدى رواياتك، مندس بين سطورها في ظلمات حشية فراشك؟

ـ لماذا أنا بالذات؟ كيف تختارون من ينضمون للعبة؟
ـ نحن الوحيدون في الأكوان المعروفة من خلقوا بمقدرة على الانتقال الكمي، أي على مستوى الجزيئات حيث لا مكان ولا زمان بالمعنى المعروف لعقلك.. يمكنك أن تتحدى السرعات المعروفة والأزمنة والأماكن وترسل ما تريد لأي نقطة تريد، فقط باستخدام عقلك. مع الزمن، بدأنا في التخلي عن استخدام تلك القدرات ونسينا ما خلقنا من أجله. نحن، حراس الأكوان. لذا كان لا بد أن ننشئ من نسميهم رجال العقد بعد اكتشافنا قرب فناء كوننا. نفرض على من نراه مناسبا أن يشارك في استعادة ما كنا عليه قبل أن ننغمس في الضغائن والشهوات. أما عن إخـ...
ـ وأنتم؟ آلهة حتى تستطيعوا خلق كون؟ ما سلطتكم للتحكم في الناس حتى دون أن تكلفوا أنفسكم عناء التفسير؟

ضحك السابع، فتكاد تقسم إنك رأيت شفقة ما في عينيه. يجلس أرضا فيشير لك آفريل أن تجلس. يضع الأخير كفه على ركبتك ويبدأ في الكلام للمرة الأولى منذ وصولكم.



ـ يَانُوس، دعني أبسط الأمر. كنت مثلك تماما، هائما في الحواري والأزقة أتربص برزقي الذي يفر مني أبدا. أصابتني حمى يوم بلوغي الثامنة عشر. يومها رأيت كل شيء.. استطعت السفر إلى أكثر من ألف كون. بعضها شبيه بكوننا لكن الأغلب لا يمت له بصلة، حتى إنني أعجز عن وصف ما رأيت وما سمعت. كنت مذعورا، مبهورا، أكتشف حدودا لم يطأها مخلوق قبلي. كل كون يستقبلني بطريقته، فأحيانا كنت أتجسد على هيئة شبيهة بهيئتي، وأحيانا أخرى أصبح معنى مجرد، نغمة في ناقوس، كائن لا تستطيع الكلمات وصف وجوده. الأمر أقرب لنغمة موسيقية تعزفها آلة مختلفة في كل كون، فأنا النغمة لكن صداي يتغير. عرفت وقتها أنني خلقت لغرض أسمى من مطاردة فئران الشوارع.

ـ لحظة وحدة، إن كنتم جميعا كما تقولون قادرون على الانتقال، وأنت شخصيا يا آفريل الأكثر موهبة بينهم، ولديكم وسائل تنقلكم هناك.. ما دوري أنا في ذلك؟

ـ أنت الوحيد في عالمنا الذي لا يزال يكتب الروايات.

* * *

ظن الناس في كونك أن كتابة الخيال مضيعة للوقت، فحرّموا الفنون جميعها، وتحولت الطاقات إلى العلم، ففنيت الموسيقى والرسم والكتابة.

كل شيء يبدأ بالميلاد. مع الولادة يبدأ الزمن، والمكان. مع أولى صفحات الرواية تولد الشخصية تلو الشخصية، يزرع الكاتب في ذاكرتها حياتها الماضية فتظن أنها كانت موجودة من قبل أن تبدأ روايتك. هل كانت بالفعل موجودة قبل أولى الصفحات؟ هل كنتَ فعلا موجودا قبل أول ذكرها تذكرها في طفولتك؟ هل كنت موجودا قبل ولادتك؟

يتسرب ضوء الفجر متكسرا على الوصلات والأسلاك التي تشكل قرص الماندالا. تجلس في المنتصف، يتجمد عمودك الفقري من برودة المعدن. يدخل



الضواري حاملين التوابيت الستة المحفوظة بداخلها رؤوس شخصيات روايتك الأساسيين. يجلس مارش على كرسي يثبت على رأسه آفريل الوصلات ثم يجلس هو شخصيا ويثبت الأقطاب على رأسه، تلك الأقطاب مهمتها نقل ما يحدث تقريبا في الكون الجديد إلى الحواسيب هنا.

التوابيت في الظلال مرصوصة أمامك. لا تعرف من فيهم ولا من كانوا. نسوة ورجال بلا أجساد.

يدخل السابع ويوصل رأسه بالأقطاب، هل سيأتي معكم؟ هل تستطيع ارتجال دور يناسب ذلك الخبيث دون أن يلحظ أحد؟

تتساءل: ماذا لو كانوا على حق؟ ماذا لو كانوا يضحون بالفعل بأنفسهم من أجل أكوان أخرى لن تعرف عنهم شيئا؟

تتساءل: ماذا لو كانوا يبغون فرارا بأنفسهم وترك الكون يفنى بمن فيه، بحواريه ورائحته النتنة وأيام خميسه المسروقة؟

تتساءل: وما مصير جونو حين يفنى الكون؟ هل سينقلها معهم إلى المجهول؟ هل سيسمحون؟

* * *

يضغط على عنق الوليدة جونو، كفه المعدن تلمتع في الضوء القادم من خلفه.. وجهه في الظلال.

عند فرجة الباب يقف، يستند للحظات إلى الحلق الخشبي وينظر للرضيعة الميتة، ينظر إليك. كيف تعرف إلى ما ينظر ووجهه غارق في الظلال؟ لن تعرف.

* * *

يبدأ كل شيء بالولادة..

تخرج من الظلمات إلى الضياء المترب. ملوث بالدماء والمخاط تقبض على رق مكتوب عليه «ونسمي الذكر يناير.. والأنثى إنتروبي»، أي أنثى؟ من يناير ومن إنتروبي؟



وعيك مشوش لكنك لا تعلم أنه مشوش، تتلقى كل شيء من حولك وتختزنه بلا توقف. روائح، أصوات، أضواء.

أنت الحدث المحوري في ذلك الكون. تنتظر على الأرض، تسد أنفاسك ذرات الغبار في الهواء.

في كل موضع من الساحة المختارة في كون «نوفو» الوليد، يستيقظ الناس من نومهم على صوت بكائك. كل محمل بذكريات لم تحدث. كل مزود بشخصية لم يكنها يوما.

يندفع القوم نحو مصدر صوت البكاء، يتقدمهم فبراير الشيخ حاملا مشعلا. هو الوحيد الذي لم يستيقظ، هو الوحيد الذي يحمل مشعلا منه أضاء الجميع مشاعلهم.

اندفع الناس نحو مصدر صوت بكاء الوليد، تتقاذف أصواتهم الريح المحملة بالتراب.

* * *

أنت بالفعل هنا وهناك في نفس الوقت. وعيك متصل جزئيا بشخصيتك هناك. تستطيع الحركة بحرية الآن وكذلك من دخل اللعبة معك وله القدرة على الحركة.

تمضي وقتك أمام النافذة الزجاجية التي تفصلك عن جونو، الإضاءة منخفضة بشكل مقيت. تجاهد كي ترى أمامك. تبدو الطفلة شاردة على غير عادتها. توقفت عن النحت وانفصل عنها فبرواريوس.

يجلس آفريل جوارك ويضع كفه السمراء على ركبتك:

ـ هل أنت بخير؟

ـ جونو.. هل هي على ما يرام؟

ـ بخير. كان لا بد لنا من عزلها لتقييم حالتها.

ـ وما هي حالتها تحديدا؟



ـ حاولت أن أعرف لكنهم لم يخبروني، لدى طرق أعرف بها بعض الأشياء، وقد عرفت أن جونو تستطيع الإبصار.

تنفرج أساريرك وتنظر نحوها، ما زالت عيناها زجاجيتين، كيف تبصر إذن؟ يخبر آفريل أن الإبصار يختلف عن النظر. جونو تستطيع أن ترى من دون عينين وهي حالة استجدت عليها مؤخرا.

تنظر جونو تجاهك، تبتسم، تشير إليها بكفك فتبعد وجهها عنك كأنما شغلها أمر آخر.

تكتفي من كل ذلك وتندفع نحو باب الحجرة، تسمع صوت محركات دفع الضواري، مارش يكبل حركتك، يرفعك فتركل عجلاته.

ـ ما شأنكم بنا.. لن أفعل شيئا قبل أن أقابلها، أنا كتبت الرواية وأنا القادر على إنهائها.

ـ تعقّل يا يَانُوس..

تسمع قرعات عصا السابع في الطرقات، يأتي من بعيد متعجلا، يشير لمارش أن يتركك.

ـ يَانُوس، هناك أمور أهم من حديثك مع جونو.. لا تنس ما نحن بصدده.

ـ أنا لن أنسى ما أنا بصدده. أنا هنا لإنقاذ ابنة أختي.

ـ اسمعني يا يَانُوس.. نحن لا ننقذ أحدا هنا.. كلنا سنفنى سواء ظللنا في هذا العالم أو في الكون نوفو. الكون نوفو وهم يا بني. عقلك هو ما يحدد الأشكال والألوان والأصوات وعقلك واهم. لا شيء مما حولنا يبدو حقيقة كما هو عليه. لا شيء في أي كون يبدو كما هو عليه..

ـ إن كان وهما فلمَ نحياه؟

يضحك السابع كعادته، تبدو كطفل متنمر في حضوره، ما يولد الغضب في أعماقك أكثر.

ـ الوهم لا يعني أن كوننا والأكوان الأخرى غير موجودة. هي موجودة بالفعل لكن ما نراه منها وهم يا صغيري، ولا يجب أن يشتتنا الوهم.

ـ اسمي يَانُوس.

ـ حسنا يا يَانُوس.. انس كل ما قلته الآن وفكر فقط في إجابة السؤال.. لم خُلقنا؟ كوننا سيفنى وكذلك كون نوفو في وقت ما. كل ما نحتاجه هو أن نستقر في الكون الجديد ونتكاثر. حين نموت في ذاك الكون، سننتقل إلى الأكوان الأخرى في هيئات تختلف حسب كل كون ومعطياته، كي ننشر رسالتنا ونذكر سكان الأكوان الأخرى بحقيقة وحدة الأكوان ووحدة الخلق.. كـ...

ـ لا يهمني شيء مما تقول. لديكم روايتكم، أعطني ابنة أختي الآن واتركنا نرحل.

يخبرونك أنك لن ترحل، أنت كاتب الرواية ولا بد من أن تظل حتى نهايتها. لا بد من أن تسمع الآراء والانتقادات. سيضعون سقفا لخيالك وحدودا لكلماتك، ولا بد أن تنصاع.

تصعد مرة أخرى إلى المعبد، لا تزال الساعة تدق وتدور من فوقك. فبرواريوس العجوز جالس يقرأ من كتاب عن ميكانيا السماوات. يلمحك فيترك كتابه ويهرع إليك. تدفن وجهك في صدره وتتمنى لو يتوقف الزمن عندها.

ـ فبرواريوس العزيز..



ـ لا تخف.. اهدأ يا بني.

في كنف العجوز، تستمع لكلمات رجال العقد وهم يشرحون أولى انتقاداتهم لروايتك. لمَ يلومك الجميع وقد وثقوا بك من الأساس لكتابة الرواية؟ لمَ لا يكتبونها هم؟

ـ أنت الوحيد حاليا من الفئة إبسلون، أبريل الوحيد أيضا من الفئة دلتا.. أغلبنا موهوبون فطريا وتمت معالجة قوتنا لنصل إلى الفئة جاما. كل من فشلوا في استكمال تدريب الحرمان الجسدي من الفئة بيتا.. أما كل من وراء البحر من الفئة ألفا.

لا تظهر القدرة على الانتقال الكمي قبل الثامنة عشرة.. لذا نبدأ في تجنيد الناس للقيام بالـ«واجب» ابتداء من هذه السن. لا يستطيع أحدنا القيام بمهمتك كما ترى، لذ طلبنا منك رواية من ثمانية شخصيات إضافة إليك، طلب بسيط محدد، لدينا في كون نوفو حتى الآن ثلاثة شخصيات إضافية بلا «لاعبين» من عالمنا.. ويبدو أن الشخصيات في ازدياد. كيف سنتحكم في وجودهم؟ وكيف ستتحكم أنت؟

يخبرك آفريل أن تلك الشخصيات إسقاطات من عقلك الباطن، هم يعرفون كل شيء عنك مما كتبته عن ذكرياتك المشتركة مع جونو.

إنتروبي.. مايو.. فبراير.. لا يمكن لتلك الشخصيات أن تتفاعل جيدا مع من حولها.

ـ هل منكم من يكتب الروايات؟ أنا فقط، صحيح؟ حسن.. الرواية نفسها من عقلي الباطن. كيف أبتكر أحداثا لم أشهدها أو أسمع عنها أو أتخيلها أو حتى أستوحها من كتاب ما؟ فلتكونوا شاكرين لي أن أكتب رواية دون أن أعرف أحدا من اللاعبين سوى آفريل ومارس. لقد ارتضيتم أن يكون



عقلي الباطن هو مفجر الأحداث في كون نوفو. لديكم الآن شخصيات وأحداث وزمن ومكان. ما المطلوب مني؟

ـ المطلوب ألا تقحم شخصيات لا أساس لها من اللاعبين هنا. ما سيحدث أنها ستهاجمك أنت.. ستتشكل كل ما يخفيه عقلك الباطن، ستمثل كل نقاط ضعفك.

يستأذنهم فبراريوس ويتأبط ذراعك. يتمشى بك نحو الشرفة المطلة على السحاب. يخبرك أنه يعرف نقاط ضعفك، ويعرف كوابيسك. ينصحك بأن تتخلى عن يَانُوس وتحيا هناك كيناير.

ـ كيف كانت حال جونو وأنت معها؟ هل تعرف أية ذكريات يتم تثبيتها في عقلها؟

ـ من قال إن هناك ذكريات تزرع في عقلها؟

* * *

تحمل دفاترك وأقلامك، تجر كرسيك محدثا أكبر قدر من الإزعاج تستطيعه، وتجلس أمام نافذة جونو. ينظر لك آفريل في دهشة لكنك تبادله النظرة ببرود. لا تحب أن تثق في أحد ولن تفعل.

أبوك خانك، رجل العقد الخبيث وجد لنفسه مقعدا في روايتك ولا أحد يعلم من غيره ضمن اللاعبين. مارش يتودد إليك لكنك تعلم أن أي معلومة تخبره بها ستصل إلى رجال العقد.

كل ما يحدث يمثل ثقلا على نفسك. مزيج الدين والعلم هذا لا يجد صدى في نفسك المثقلة، وجسدك الذي يحمل طعنات إحباطاتك وضعفك.

ورقة بيضاء تفتحها أمامك، تلف القلم بين أصابعك وتفكر. فبراريوس قد وجد طريقه إلى عقلك الباطن فتجسد في شخصية الحامي، فبراير. مايو،



الأخت والأم اللتين حرمتهما. لكن مَن إنتروبي؟ حليف أم منافس؟ ما هدفها في روايتك؟

تراجع تقاريرهم وتعرف فطريا أنهم صادقون في ما ينقلونه عما يحدث في كون نوفو. هناك صلة خفية بينك وبين نفسك هناك، لكنك فعليا لا تعرف ماذا يحدث تحديدا «لك» أو لغيرك.

إنتروبي.. توأمك.. تهدم ما تبنيه.. منافسة؟ أم أن الهدم أولى خطوات البناء؟

تراجع تقاريهم.. تتوالى المشكلة وراء الأخرى.. يبدو أن شخصياتك فقدت ـ لسبب لا تعرفه ـ هدفها. الجميع يتصرف بلا هدف. لا أحد يتذكر لمَ جاء في كون نوفو وما عليه فعله هناك. كارثة تهدد بفشل المشروع بالكامل. ما فائدة أن يحيا الناس هناك ويتوالدوا ويموتوا، دون تحقيق الهدف الوحيد وهو إبلاغ المعرفة بالمسؤولية للأكوان الأخرى؟

ترى هل كل سكان الأكوان الأخرى قد نسوا ما كُلفوا به؟ ترى هل تُكرر تجربة كل الخلق من قبلك؟ هل النسيان محتوم؟

تنظر لجونو.. تلا زال شاردة.

فبراير.. مايو.. إنتروبي. تبتسم.. لو محوتهم لمحوت ذاتك.

تضع سن القلم على الورقة وتكتب عن نسوة أبريل الخالدات.

* * *

البحر يقذف بأمواجه فتزحزح الأصداف المرصوصة في دائرة تامة على الشاطئ.

ديسمبر يقف دوما في الظلال يستمع إلى مرافعة سبتمبر الكاهن، لإلصاق تهمة الهرطقة بك، بل وقتل أبريل، وسط رقعة الماندالا.

تجمعت بعض النسوة الخالدات من قبيلة أبريل، تقدمتهن الطويلة ذات وشم قرني الثور وصاحت دون رادع.

ـ أحضر لنا أشلاء ابننا يا سيدي سبتمبر فلن يُحرق الفتى، بل إلى التراب يعود. سيدي يناير سيعطينا المعرفة، سنرحل معه في البحر والسماوات والأكوان وسنعرف، وحين نعرف سنصبح حرائر، لا نخاف إلا من خالقنا. هل تعرف يا.. سيدي سبتمبر من خلقنا؟ من أين جئنا؟ بالطبع لا.. معبدكم هذا ما هو إلا خالق للأصفاد. يناير سيحررنا وسنعرف من خلقنا وسنعرف لمَ خلقنا. هل تعرف لمَ لا نموت يا.. سيدي؟ لأننا لم نعرف بعد. المعرفة شفاء من الحياة.

* * *

دوت صافرات الإنذار فاستيقظت فزعا. مددت يدك جوارك كعادتك حين تفزع ليلا تتحسس وجود جونو.

يفتح مارش الباب ويطمئنك أن لا شيء يحدث.. يسد الباب بجسده الضخم وطوله الفارع المضاف إليه طول عجلاته وعرضها. الضوء الأحمر المتقطع في الخارج ينعكس على شعره الأشقر فيبدو كذهب قيد الصهر.

يغلق الباب ويضع كنانة سهامة جوارك على الفراش متبسطا. تنكمش على ذاتك فلا تعرف فيمن تثق ولمَ.

ـ فيمَ الإنذار لو أن كل شيء على ما يرام؟

ـ عطل في النظام.. أنت تعرف أنه لا يوجد نظام كامل.

يرنو نحو النافذة الصغيرة العالية، السحاب يحتشد في السماء.

ـ يَانُوس.. تُرى من منا الحقيقي.. أنا أم مارس؟ شخصيتي في كون نوفو أقصد.

ـ أنت بالطبع.

ـ وكيف اخترت أنا شخصيتي وأنت لم تعرف من سيختار أي شخصية؟

كيف لاءمتني إلى هذا الحد كما يقولون؟ بل إنها تشبهني.

ـ أنا كتبتها له، كنت أعرف من البداية أنك ستكون في اللعبة فاعتقدت أنها ستروق لك، وقد راقت.

ـ ماذا عن الآخرين الذين لا تعرفهم؟ ماذا عن السابع؟

ـ كل شغوف بمرآة نفسه.. لم أفرض على أحد اختياره، بالتالي لن أفرض على أحد خاتمته. لا أعرف لمَ تهاجمني شخصيات الرواية في كون نوفو..

ـ قال السابع من قبل إنها ستهاجمك لأنها إسقاطات من عقلك الباطن.

ـ أنا أتحدث عن الشخصيات الأساسية، اللاعبين.. قل لي، منذ متى وأنت هنا؟

ـ أعوام طويلة.. ربما عشرة.. اكتشفوا أنني من الفئة بيتا.. تطوعت في فرقة الضواري واشتريت ذراعيّ من أحد الهاربين من الفئة ألفا.

تقشعر، تقسم ألا تمس يديه مرة أخرى. تسأله هل يعرف باقي اللاعبين، فيخبرك أنه لا يعرف أغلبهم.. فقط أنت وآفريل والسابع.

يشير إلى القلادة في عنقك، تلك التي كتبت عليها قواعد اللعبة والتي يرتديها الجميع وتربطهم بكونهم الحقيقي.

ـ هل تعرف معنى تلك القواعد؟ القاعدة صفر، هناك لعبة.. بالتأكيد هناك لعبة، حياة، رواية.. في كل الحالات نخسر، وفي كل الحالات لا يمكن أن نكسب أو نخرج بإرادتنا منها..

ـ وما المسلي في لعبة خاسرة؟

آفريل يقف في الركن المظلم، يبدو مشوشا بشكل ما، غير حقيقي، لكن كليكما يراه. يجيبك كأنه كان معكم منذ البداية.

ـ كل ما نخسره هنا يتسرب إلى الأكوان الأخرى، وكل ما يتسرب من الأكوان الأخرى يصل إلينا.. اللغات، العلوم، قوانين الفيزياء والفلسفات. بل ورواياتك يا يَانُوس.. في كون ما هناك من تسقط عليه وحيا من السماء فيخطها بين دفتي كتاب، وفي كون آخر تتجسد مكانا وزمانا وشخوصا وجاذبية. ما هو الواقع؟ نختلف كثيرا في تعريفه، لكن الخيال هو الحق.

ـ آفريل.. أين أنت؟

ـ هنا وهناك.. وكنت دوما هنا وهناك.. الثور يجمعنا يا يَانُوس.. والحمل والذئب هنا لسبب ما.

يبدو مثقلا، حزينا، بائسا. يحمل بين كفيه أوراق ورقوق جلد وصفائح طين منقوشة. يقبض على قلادة وهمية في عنقه، يبدو كأنه أدرك شيئا، يستدير ويخرج.

* * *

كان في العباءة الممدودة أمام سبتمبر أشلاء لشخص أسمر اللون، كتل شعر خضراء هنا وهناك، معجونة في أخشاب وأوراق شجر وأصداف.

ـ هذا.. سيدي أبريل. كنت.. كنت أصنع.. سفينة، حين سقط من السماء في اليم وقذفته الأمواج لي. قال لي سيدي فبراير من قبل إن بقايا الأشخاص لا بد من أن تلقى في السعير، لذا...

تنهنه وتنسكب العبرات من عينيك فتسمحها في طرف عباءتك الناصعة. يسكتك بإشارة من يده، يقرب أذنه من الكتلة الدامية ليتأكد من أن ما يسمعه حقيقي. صوت ما يصدر من تلك الكتلة، موسيقى لا تصدر من أي من معازف هذا الكون. تسارعت دقات قلبه وصدر منك صوت متسارع لتكات عجيبة. تراجع سبتمبر وهو يدور حول نفسه، شيء ما يحدث له،

شيء لا يوصف سببته له تلك الموسيقى. كان يرى أحداثا لم تمر به، عوالم ذات سماوات زرقاء وعوالم أرضها السماء. عوالم من همسات وأخرى ذائبة في الأثير.

* * *

قربت وجهها من القلادة الفضية ومررت أصابعها على الكلمات. كانت تحرك شفيها كأنها تقرأ.

ـ تستطيعين قراءتها؟

ـ نعم.. «أنت مشارك في اللعبة، لا يمكنك أن تكسب، يمكنك فقط أن تخسر، لا يمكنك الخروج من اللعبة».

ـ ما تلك اللغة يا حلوة؟

ـ لا أعرف.. فقط أستطيع قراءتها.

* * *

الفوضى لا تزال في الخارج تصل إليك ومارش. يتم استدعاء الأخير فيهيب بك أن تظل مكانك.

دقائق وتقوم من فراشك. تفتح الباب وتطل برأسك منه. لا أحد.. تسير حافيا نحو حجرة جونو. تتلفت حولك فلا تجد أحدا. كاميرات المراقبة في موضعها ترنو إليك. لو كان هناك من يراقب لوجدت الضواري في إثرك الآن.

تحاول فتح الباب فلا تستطيع. تحمل كرسيا وتضرب به الزجاج الذي يفصلك عن ابنة أختك. تنظر إليك، تنظر خلالك. تبدو في عالم آخر.

تقفز خلال النافذة المكسورة فتمزع شظايا الزجاج بنطالك وكفك. تحتضن جونو وتغرق وجهها بالقبلات. تزيح شعرها الفضي عن وجهها فتنتبه، تمد يدها نحو وجهك تتلمسه في شوق.

ـ يَانُوس! ظننتك لن تعود.
ـ لقد عدت يا حبيبتي.. هيا بنا، لنرحل.

تحملها على كتفك وتنزلها على الجانب الآخر من النافذة في حذر. تنظر نحوك بعينين لا تريان، وتهمس في ذعر:

ـ لا أعتقد أننا يجب أن نرحل.. هناك أشياء يجب أن أفعلها.. أرجوك يا يَانُوس أعطني فرصة.
ـ لا تخشي شيئا.

ـ لقد رأيت.. رأيت أشياء و.. عرفت أشياء.. لا أستطيع أن أفهمها كلها.
ـ كيف رأيتِها ومتى؟
ـ لا أعرف كيف رأيتها.. رأيتك وأنت صغير في مكان ما تصدر منه صوت تكات. رأيت فتاة تشبهك بطنها منتفخ.. هل تعرف أن بطنها ظل منتفخا لأربعة أعوام؟ ثم.. ثم ماتت بعد أن.. خرجت أنا من بطنها.

تتسع عيناك ذعرا، كيف لجونو أن تعرف أشياء حدثت حتى قبل أن تولد؟ كيف لها أن تعرف المعبد بساعته العملاقة؟ هل جونو من الفئة إبسلون هي الأخرى؟ حتى الفئة إبسلون لا يرتحلون عبر الزمن.. أم أن هذا ممكن؟ لا أحد يعرف تحديدا، فأنت الوحيد هنا من تلك الفئة.
كيف لجونو أن تنتقل في عمر التاسعة؟
كيف حملت أختك جونو لأعوام أربعة، كيف خانته ذاكرته إلى هذا الحد؟

ـ سنجد تفسيرا لكل شيء لاحقا، لنرحل الآن.



ـ و.. وكون نوفو؟

عرفت جونو بأمر كون نوفو، بل إنها رأته بنفسها، جونو في اللعبة رغما عنك وعنهم. كيف انتقلت؟ كيف عرفت؟

ـ خالي.. لو حدث وتفرقنا لأي سبب، تذكر.. لا تثق في ذكرياتك، لا تثق في فبرواريوس.. جد طريقك وأنا أعرف طريقي.

* * *

ينسحب آفريل من ذلك الكون ويجد نفسه وسط الماندالا على شاطئ البحر. أنت، طفل صغير يرى الماندالا أول مرة وآفريل وسطها. تجري نحوه وتستره بقميصك. يجلس آفريل جوارك يرتجف.

ـ أهلا.. أنا يناير.. من أنت؟

ـ أنا؟ أنا أبريل.. هل أنت سيدي يناير أم أنت ابنه؟

ـ لا يناير غيري هنا.. للأسف.

تفتح قلبك الصغير له، ذلك القلب الذي يصدر تكات لا دقات، عن حيرتك وخوفك، وحدتك واللوم الموجه لك من السماء دوما.

تسأله عن معنى تلك الأصداف المرصوصة على الشاطئ، كان أنت من حكى لأبريل عن معناها حين قابلته في المرة السابقة، يأخذ بيدك وتصعدان على تلة من الرمال كي يستطيع أن يريك الشكل الدائري جيدا، وراح يشير لك هنا وهناك موضحا ما عسر عليك فهمك..

ـ المندالا تعني الدائرة، وهي رسم للكون بشكل فلسفي. في المنتصف هذا المربع ذو البوابات الأربع حول ثلاث دوائر كبيرة متداخلة. هذا الرسم هو الكون الكبير حولنا وهو أيضا العالم الصغير الكامن في داخلنا.

إن ما يحدث في الكون، بكل تفاصيلة وقوانينه، هو ذات ما يحدث بداخلنا. الكون على اتساعة متوحد بالضبط كوحدة الروح والجسد.

قلت، وأنت كبير في زمن ما تال، لأبريل: إننا إن فهمنا أنفسنا استطعنا أن نفهم من حولنا، وأن نفهم الكون، بل والأكوان الأخرى. الماندالا هي الحياة التي لا تنتهي ولا يمكن الفرار منها، فقط نتحول من حالة لحالة، ننسج خيوطنا في نسيج الكون الكبير.
تستخدم المندالا كي تفتح أبواب السماوات، تظن أنك قادر على احتواء الكون بين أضلعك من ثم إصلاحه.

- الماندلا توضح لك إنك لست محور الكون، إلا أنك بالفعل أحد محاوره. هي خريطة توضح لك المسارات بينك وبين كل شيء حوله، أشخاص، معان، فلسفات.. كونك محورا للكون لا يعني أن كل شيء يحدث فيه مصمم لك فقط، لكنك نقطة للاستقبال والإرسال يا يناير.. لست وحدك هكذا، كلنا في منتصف ماندالاتنا.

يرسم لك أبريل الماندلا على قطعة من «ورق» وجدها على الشاطئ. منقوش على أحد أوجهها كلمات بلغة ما. يعطيها لك فتضعها في كيسك القماش المحمل على كتفك.

* * *

لقد اختفى آفريل، هو موجود في اللعبة، جزء منك يعرف ذلك، لكنه غير موجود في أي مكان في مبنى العقد أو المعمل أو المعبد.
يتعالى صوت ذئب تحمله الريح من قارة التراب على الجانب الآخر من البحر. الشوارع خالية من المارة رغم أنه يوم خميس. لا يوم خميس على الجزيرة، لن تعتاد أبدا ذلك.



تحمل جونو وتعدو، حقيبتك القماش بحملها من المنشير والمسامير والأوراق والأقلام تشخشخ مع خطواتك المندفعة. أين تذهب؟ وكيف سيتركونك ترحل؟

يخطر ببالك سؤال لم تفكر فيه من قبل: كيف هرب من هربوا من الآرينا وكيف يتسلل من يتسلل إليها؟ أين يذهب النوعان وكيف يتركونهما؟

الحانة على بعد أمتار، النجمي بسيفه ودروعه وعمامته يداعب مسبحة من أحجار كريمة. يهمس لك دون أن ينظر إليك بأن الأكوان كذلك العقد، وأنت حجر الوسط.

في ظلام الحانة وتحت المصباح الوحيد، قط تشيشاير من رواية لك، يبتسم بصف من الأسنان اللامعة، يطفو في الهواء. جونو تبتسم وتتقدم منه كأنها تراه. تمسك بكتفها وتقف أمامها حاجزا.

ـ بالنسبة للحراس الملكيين لهذا العالم، كلنا ضحايا قيد الانتظار.

ـ ما أنت؟

ـ القليلون فقط من وجدوا الطريق، البعض لا يتعرفونه حين يجدونه، والبعض لا يريد أن يتعرفه.

ـ أي طريق؟

ـ إن كنت لا تعرف هدفك، فالطرق سواء.

رجل عجوز بعين حمراء يرمقك، ثم على الحائط يرسم الماندالا بالطبشور.

تخرج من الحانة فزعا، صوت الضواري يقترب، تختبئ داخل الحانة مرة أخرى وتضع كفك على فم جونو.

عربة نقل كبيرة يتقدمها الضواري تحمل عشرات الرجال المقيدين. من ملابسهم تعرف أنهم من قارة التراب. تعرف أن أحدهم كان يطمح في الهرب والالتحاق بالضواري.

مع الرجال حطام سفينة مثقوبة بمئات من السهام. لقد حاولوا التسلل

وفشلوا. كيف تسلل إذن من فعل قبلهم؟ الغانية في الحانة والرجال الذين باعوا أعضاءهم للمتهربين من الواجب؟

ـ يَانُوس، ألن نساعدهم؟

ـ هل ترينهم؟

ـ أشعر بهم.. هذا مؤلم يا يَانُوس.. لا أريد أن أشعر بهم مرة أخرى. هل تحملت كل ذلك القهر من أجلي؟ كل تلك الليالي التي طلبت منك فيها أن تحكي لي الحكايات وأنت مثقل بالهم والمذلة. كيف لم أشعر بك وقتها؟

تضمها إليك. لا بد أن تجد سبيلا للهرب. تحملها وتعدو مرة أخرى. عواء الذئب مستمر. لو عدت للقارة لوجدوك. لو ظللت هنا لوجدوك. لا تعرف أين تختبئ. صوت عجلات واحد من الضواري يقترب. مارش يوجه نحوك كشافه فيعميك.

ـ انتظر يا يَانُوس.

تعدو فيزيد سرعته.. يغلق الكشاف فتتخبط في الظلام. تنكفيء فوق جونو، تكتم الصغيرة الألم.

ـ يَانُوس.. ألم تسأل نفسك كيف خرجت من حجرتك وكيف كان القفل مفتوحا؟ كيف هربت وجونو دون أن يراك أحد على الكاميرات؟ فكر يا يَانُوس ولا تكن أحمق. أستطيع أن أساعدك.

المرأة الغانية تحمل طفلها، تعترض طريقك وتضربك على رأسك بمقلاة ثقيلة.



ـ متحجر الرأس هذا الفتى.

* * *

كشاف مارس مسلط على وجهك. وجها مارش والغانية يطلان عليك من أعلى في قلق. رائحة عطنة تذكر برائحة حواري قارة التراب.

ـ لم يمت.. ألم أقل لك؟

ـ لا تفعليها ثانية يا أوكتافيا. لا أظنك ستفعلينها ثانية.

تقوم فزعا، قلبك يقفز في حلقك. جونو نائمة جوارك وقد احمر خداها دفئا. حقيبتك القماش لا تزال مدلاة من كتفك. تزيح الكشاف وتنظر للشاب والمرأة غاضبا.

ـ ماذا يحدث وأين أنا تحديدا؟

ـ في منزل أوكتافيا، لا تزل في آرينا.. اطمئن واهدأ.

ترفض طعاما جاءت به أوكتافيا، توقظ جونو للتأكد من أنها بخير. تستمع لكلماتهم فلا مفر من ذلك.

ـ كيف أكسب ثقتك؟ فلأبدأ بمعلومة تعرفها الصغيرة جونو لتتأكد من صدق نواياي. فبرواريوس هارب من الواجب. عبر البحر إلى قارة التراب واستقر هناك. سؤال: كيف هرب، كيف عبر، وكيف حصل على ثور وحمل معدلين جينيا؟ من أين كان يكسب قوت يومه؟ ولِمَ احتفظ بثور وحمل كلاهما لا يدر حتى لبنا يبيعه؟

جونو تتحسس موضع وجهك، حاجبيك المزمومين.. عينيك المتسعتين.



ـ خالي، فبرواريوس أرسل ليتجسس عليك. أنت الوحيد من الفئة إبسلون وأنت تعرف أنه لا سبيل لشخص نادر مثلك أن يهرب. كيف هربت؟ لا أعرف، لكنني أعرف جيدا أن فبرواريوس أرسل ليراقبك من كثب، ليحميك. وظل بجانبي حين وصلنا آرينا ليراقب تطور موهبتي عن قرب.

ـ كيف ذلك وقد نبهني في المعبد إلى أن لا ذكريات تزرع في عقلك وأنهم يتلاعبون بي وبك؟

تدلي أوكتافيا بدلوها أخيرا.. تتباسط في كلامها معك.

ـ ربما كان يكسب ثقتك.. يضللك.. ألم تلحظ تحسنا في ذاكرة جونو؟ هي ثمينة لديهم ولن يتركوا عقلها ينهي نفسه.

اسمع الأهم.. يانوس، أبوك، العاشر، من الفئة جاما. كان من رجال العقد وقد وضع جدك بنود الواجب وخطة تنفيذه. حين ولدت أنت أجبروه على تركك في رعايتهم ومراقبتهم. فقد كنت المعجزة التي طال انتظارها. وكانت أختك من الفئة دلتا، مثل آفريل. وكانت نتاج تلاعب جيني. تحمل صفات أبيك وعدد من الرجال والنساء الأكثر موهبة. أما أنت، فولدت دون تخطيط، دون تلاعب. أمر علوي جاء بك.. لكنهم لن يتركوا جيناتك تذهب سدى..

* * *

في الرابعة لا أزال. ممدد على المذبح جوار أختك، تنظر إليك دامعة العينين. تتحسس بطنها المسطح. أبوك، العاشر، واقف في ركن ينظر إليكما، وجهه غارق في الظلال.

يقول السابع لأبيك إن الحمل قد لا يكون طبيعيا. ففي رحم أختك مخلوق مهجن من أم من الفئة دلتا، وأب هو الوحيد من الفئة إبسلون.



تتظاهر بالنوم، لكن كل كلماتهم تصل إليك. أنت الخال والأخ والأب.

* * *

كيف تخدعك ذكرياتك؟ كيف نسيت؟
يخبرك مارش أن أباك عصى فهربكما وأمكما إلى قارة التراب، مع فبرواريوس الذي ترجاه أن يرسله معكم.
عادت أمكما وسلمت نفسها لرجال العقد، اعترفت بأنها من هربتكما وأنكما توفيتما في الطريق.

ـ لقد رأيت ذلك يا خالي، قبل إلقائها في النيران قالت لأبيك «تذكر لم خلقت». لم أفهم وقتها رؤياي، لكنني الآن أفهمها.

قطع العاشر يومها عهدا أن يهرب كل من أراد هربا، وأن يستقبل في الآرينا كل أراد قدوما.

ـ أنا جئت على يديه، هربت من القارة وجئت هنا.
ـ يا سيدتي، لو هرب الناس من الآرينا، فهذا منطقي.. ربما انتقاما مما فعلوه بعائلته. لكن أن يسمح للناس بالقدوم.. كيف؟
ـ كي لا يكتشف أحد فعلته، كان مسؤولا عن إحضار أصحاب المواهب إلى الآرينا، فكان يستبدل بهم أناسا غير موهوبين. سبعة أعوام على هذا المنوال حتى تقلص عدد المنضمين إلى الواجب بشكل مقلق. لكن جاسوسهم فبرواريوس يطمئنهم دوما بأنك بخير.. أنت المنقذ.

رحلة كل عام. يسرب في باطن سفينة العودة الهاربين. ولم يكن لرجال العقد همّ سوى تطوير أبحاثهم. يقولون لك إن هناك احتمالا أنهم كانوا يعرفوا بشأن نشاطات أبيك، وقد تركوه كي لا يبددوا قواهم معه، أو لا يتركوا انطباعا أن كهنة المعبد خونة للعهد. ويقال إنهم لم يعرفوا الحقيقة حتى عام مضى. وها هي أول سفينة دون معرفة العاشر تقلع من قارة



التراب للجزيرة، وقد رأيت ما حدث لها ولركابها.

ـ لكل نظام ثغرات يا صديقي. العالم يتحلل والأموال تتدفق للمعبد لإيجاد الحل. منذ أشهر، تم عزل أباك وإخضاعه للواجب بشكل كامل في وقت قصير. هو الآن مجرد رأس موصول بأسباب الحياة.

ـ هل.. هل هو مشارك معنا في اللعبة؟

ـ لا أعرف.. غالبا هو كذلك.

ـ كيف يشركونه في اللعبة وهو خائنٌ لهم؟

ـ هذا كل ما أعرفه يا صديقي.

ـ والمطلوب مني؟

ـ المطلوب، خمسة آلاف شخصية جديدة في روايتك.

ـ في مقابل ماذا؟

في سرعة وجهت أوكتافيا سكينا صوب عنق جونو. في جنون تتسع عيناها وتبتسم.

ـ في مقابل أن تحيا ابنة اختك.. أقصد، ابنتك.. جونو!

* * *

خمسة آلاف شخصية.. كيف تصمم هذا الكم؟ تفكر أن تجعلهم أقواما، يتحركون ككتل ليس كأفراد. سرعان ما سيتقدم الأقوى منهم ويتفاعل مع من حوله ويكون شخصيته وذكرياته. لكن هل تحتمل الرواية قوة تأثير الجموع الغضبى؟ هل سيتحول كون نوفو لنسخة مكررة من كل كون تسكنه كائنات عاقلة؟

هل سيستطيع الثور والحمل موازنة الشهوة والكراهية؟

تكتب وتكتب.. سيلومك الجميع في كل الأحوال. ينقصف القلم تحت وطئة هلعك، تمد يدك في حقيبتك تخرج قلما آخر. وريقة مطوية لم ترها من قبل، على ظهرها مكتوب بلغة لا تعرفها، وعلى وجهها رسم للماندالا.

مارش جالس جوارك يدير عجلاته بكفه ويراقبك. للحظة تلمح الكاميرا على كتفه تضيء، انعكاس النار على عدستها يعطيك الإحساس بأن هناك من يتحرك دوما داخلها.

ـ كيف سأنقل الخمسة آلاف شخص وأنا هنا وهم على الجانب الآخر من البحر؟
ـ لا تحمل هما.
ـ وكيف سينتقلون دون أن يكونوا موهوبين؟
ـ من قال إنهم غير موهوبين؟ العاشر كان يخفي الموهوبين في قارة التراب طوال الوقت، ويرسل للآرينا غير القادرين على الانتقال.
ـ ولِمَ كان يضحي بهم؟
ـ انتشالهم من حفرة الروث التي كانوا يعيشون وسيموتون فيها، أكبر جميل صنعه أبوك لهم.
ـ وهل سنتركهم خلفنا أولئك معدومي الموهبة؟
ـ لو كانت لهم فائدة لنقلناهم.. لو كانت لديهم موهبة لفعلنا.
ـ قيل لي إن كل المخلوقات في كوننا قادرة على الانتقال بنسب متفاوتة.
ـ كذبوا عليك.

لا تدري من الكاذب ومن الصادق. تكتب، لم تر نور الصباح منذ وضعوك في بيت أوكتافيا النتن. أوكتافيا تراقب جونو وكلما شردت صفعتها لتعود للواقع.
في يوم الإرسال، أيقظك مارش وأمرك أن تساعدهم في إزاحة الأثاث إلى جوانب البيت. تمسك عودا خشبا وترسم الماندالا على التراب.
يدخل تباعا عشرات الأشخاص الطالبين للانتقال. يقفون حول الدائرة ويمسكون أيدهم في أيدي بعضهم. تقف معهم أوكتافيا وتسلم جونو لمارش.

ـ كيف سأنقلهم؟ لا أعرف كيف أفعلها.. اتركوني أرحل وجونو.



ـ دعهم يلمسوك وانتقل أنت.. لا بد أن نجرب كل شيء.

تجيل نظرك في الواقفين، في الظل يقف ذات الرجل الذي كان يصنع السفينة والذي رأيته محمولا في السيارة مع الأسرى.

ـ لحظة واحدة.. هذا الرجل كان أسيرا في السفينة القادمة من قارة التراب. كيف هرب من سجنه؟

ـ كنا نعلم أن العاشر قد تم التحفظ عليه، وكانت السفينة محملة بخطتنا. لقد استولينا على الجزيرة وعلى النظام وحررنا السجناء، لكننا ما زلنا عاجزين بعد عن تشغيل الماندالا في مبنى العقد، لا توجد طاقة كافية. ركز يا يَانُوس. حين تنتهي من نقل الجميع سأنتقل معك وجونو.

تضع كل تركيزك على الانتقال. تشعر بهم جميعا في نخاعك. همساتهم، دقات قلوبهم. الرائحة العطنة المميزة للقارة.

أنت هنا وهناك.. هم هنا، وهناك.. كل وجد ضالته في شخصية ما..

هناك لعبة..

أنت مشارك في اللعبة..

لا يمكنك أن تكسب..

يمكنك فقط أن تخسر..

لا يمكنك الخروج من اللعبة..

يدخل من الباب السابع ومعه الضواري. يضغط مارش زر إغلاق الكاميرا الدقيقة على كتفه. يسلمها للسابع وينضم لمن وقفوا خلفه.

ـ نشكرك لتعاونك يا مارش، لك ما تريد. سننقل كل من يهك أمرهم. لقد فعلتها يا يَانُوس، المرة تلو المرة تفعلها.. استطعت أن تنقل الفئة بيتا دون ماندالا.. أنت معجزة يا يَانُوس!

* * *



الإضاءات خافتة وجميع الأجهزة مغلقة. الشوارع شبه مظلمة والهدوء يغلف كل شيء. أضواء عجيبة في السماء أقرب للبرق لكنها ليست كذلك..

تتساءل، ماذا لو كانت الذكريات المزروعة في عقل جونو زائفة؟ ماذا لو لم يكن أباها ولم يكن فبرواريوس خائنا ولم يكن العاشر بطلا؟

كيف بدأ كل هذا وأي شيطان يتلاعب بك؟

كانت اللعبة هي التطور الثاني للواجب كما حكى لك السابع في مبنى العقد المظلم.. أن تستفز قدرات اللاعب حتى الثمالة لتجعله يصل إلى أرقى مستوى من الانتقال.

ـ لقد انتهى بك عقد الأطراف المقطوعة والاختطاف القسري من قارة التراب. اللعبة ستكشف وتطور مواهب الموهوبين، فقط لو استطعنا أن نلج إلى أعماق عقل اللاعب الباطن، مخاوفه، نقاط ضعفه. قلت لي ذات مرة يا يَانُوس أن لا بد لبطل الروايات من أحداث تضغط على نقطة ضعفه، تقسو عليه لتكشف معدنه الأصلي. إنها فكرتك حتى وإن لم تقصد.

ـ أين جونو.. هل هي ابنتي حقا؟

ـ لقد عاملتها كابنتك طيلة أعوام عمرك.

ـ وهل أتوقع أن أجد إجابة عند أمثالكم؟

تبصق على وجه السابع فيمسح وجهه بغطاء كفه. لا تستطيع أن تثق في ذكرياتك، لا تستطيع أن تثق في حواسك. لا توجد أرض صلبة تقف عليها ولا تعرف أي شيء ستصيب سهامك لو أطلقتها.

ـ جونو معنا..

ـ لن نكرر الحديث المقيت مرة أخرى..ما المطلوب مني لمرة أخيرة..

ـ كون نوفو غير مستقر..لا يوجد زمان موحد لكل الشخصيات. ربما كان عيبا في روايتك أو طبيعة للكون نفسه. جد طريقة لتنبيه شخصياتك إلى الهدف من وجودها في كون نوفو. جونو استطاعت أن تنقل نفسها هناك دون مساعدة مطلقا مثلك يا يَانُوس. جيناتك لعبت دورا مهما في



ذلك، فأنت أبوها قبل كل شيء. جونو تستطيع التلاعب بالزمن، فربما استطاعت أن تضبط الزمكان هناك. هناك شخصية من شخصياتك التي بلا لاعبين تهدم كل ما تفعله.. إنتروبي.

ـ لا توجد شخصية هناك بلا دور..

ـ تخلص من الشخصيات الزائدة يا يَانُوس، راجع المخططات وتعرف عليها جيدا. لا وقت لدينا.. هناك قصور شديد في مستويات الطاقة واستمرار تدفقها. ستنقل سكان الآرينا إلى الخمسة آلاف شخصية التي صممتها، وستصنع ماندالا في كون نوفو في حالة عدم استقراره واحتياجنا أن نهرب منه إلى كون آخر.

ـ وماذا عمن انتقلوا من الفئة بيتا.. أولئك العابرين من قارة التراب؟

ـ نتخلص منهم هناك.. دع هذا لنا.

ـ تتخلصون منهم؟ وأين آفريل؟

ـ آفريل مفقود.. لن يعود مرة أخرى.

* * *

... بل إن هناك عدوانا ما يسري بين الناس. الوقاحة أصابت الجميع وبحلول العصر ستتكوم جثث صرعى الصدق على مذبحي.

* * *

يونيو، الصغيرة التي أثقل رأسها حمل المعرفة. تطلب منك أن تحملها. تجلس جوارها وهي تصنع تماثيل الطين وتهمس بعينين غائمتين بالدمع:

ـ خالي.. أنا هنا في أمان، وجدت طريقي وسأظل فيه. لقد رأيت من خلال حكاياتك كل الأكوان التي لم أزرها، رأيت أن الواقع أكبر بكثير منك ومني. لا يموت أبدا من يترك جزءا من نفسه في الآخرين. لا تهتم لما يعانيه جسدي في كوننا فأنا هنا وهناك وفي كل مكان. أستطيع أن أنقذ كون نوفو، أو أموت وأنا أحاول.

ـ لا أفهم شيئا مما تقولينه يا صغيرتي.



- كلامي مفهوم لكنك هنا تنسى ما جئت لأجله. عد يا يناير إلى يَانُوس وجد طريقك. أبصره دون عينين، لا تثق في ذكرياتك، لا تثق في الواقع.. أنت الحمل، وأنت الثور..

* * *

أنت الآن في الوضع الأقوى. دائما ما يلوون ذراعك بجونو.. ماذا لو أنهم يحتاجونها أكثر منك؟ أنتما الورقتان الرابحتان بالنسبة لهما في تلك اللعبة.

تفرغ محتويات حقيبتك القماشية. رسائل وتخطيطات وصلوات بكل اللغات. همسات واستغاثات.

ماذا تريد حقا؟ ما هو عبئك الحقيقي؟ تحاول أن تنسى جونو، تحاول أن تفكر بشكل أكبر، تبحث عن الطريق.

يأتي فبرواريوس إليك في الشرفة المطلة على السحاب. يجلس أمامك ويجيل نظره في محتويات حقيبتك المفرودة على الطاولة.

- رسائل إلى يناير.. هل قرأتها؟.. لا تريد الحديث معي، لك الحق.. آفريل هو من وضع لك الرسائل في حقيبتك ليذكرك، أو يذكر يناير بالطريق. لطالما كان يملك روح ذئب جوال. كان يعرف أنه سيضيع بين الأكوان لو ظل في شغفه للمعرفة. كلما تنقل فقد من ذاته أكثر. لكن دوما في مقابل الفقد، الاكتساب. في كل كون زاره ترك جزءا من روحه، من معرفته.. هكذا نتكامل، هكذا نخلد.

تجمع رسائلك وأقلامك وأوراقك. تلمح زجاجة عطر أمك القديمة وسط الحطام فتغلق زمام الحقيبة في حزم.

- هل تستطيع قول الحقيقة أبدا يا فبرواريوس؟ أم أنك جبلت على الكذب مثل الجميع؟

- لم نكذب عليك يا فتى، فقط حكى لك كل منا جانبا من الحقيقة. هكذا الواقع.. كل يراه كما يريد. الكذب والصدق وجهان لعملة واحدة؛ لا تستطيع أن ترى كلا الوجهين في نفس الوقت.

يمد فبروايروس يده إليك، فتقوم معه دون أن تلمسه. تهبطان الدرج حتى تصلا إلى حجرة الإرسال. غارقة في الظلام، فقط الأضواء في السماء تنير جنباتها للحظات.

يقف فبرواريوس أمام أحد التوابيت التي تحمل رؤوس اللاعبين. يدعونك لتقترب، تتصاعد دقات قلبك. وجهك يكاد يلتصق بزجاج التابوت. تضيء السماء لثوان لترى الوجه الشاحب مضفور الشعر يرمقك في خواء.

ـ العاشر.. ديسمبر، والدك يا يناير، وزوج ابنتي، أمك.. ماي..

ـ أنت؟ جدي؟

ـ نعم.. ماي، أمك.. معنا في اللعبة رغم حالتها، آفريل ساعدها في العبور إلى كون نوفو. لم يكن هناك شخصيات زائدة في روايتك يا يَانُوس. أنا كنت مشاركا في اللعبة دون أن يعلم أحد، بمساعدة آفريل أيضا، والدتك رغم حالتها استطاعت أن تحضر، مايو، لا يموت أحد في الذكريات، ولا يموت أحد في الخيال.

كان فبرواريوس ممن وضعوا قواعد الواجب، وأقسم هو ورجال العقد أن ينضموا للواجب كحراس لعقيدته. هم من الفئة بيتا، لا ينتقلون إلى الأكوان وحدهم، لكنهم وهبوا أنفسهم لإيجاد السبل للانتقال لأنصاف الموهوبين مثلهم، فكانت دائرة الماندالا التي تحتاج لوسيط قوي، فكان آفريل، فاتح أبواب السماوات، هو من ينقل كل الفئات إلى الأكوان الموجودة فعليا.

ـ نعود للماضي قليلا.. تزوجت ماي ابنتي بالعاشر من رجال العقد من الفئة جاما. في عمر الثامنة عشر كان قد أنجب أختك وبدأ في الخضوع للواجب. تم قطع ذراعيه لكنه لم يكن مطمئنا إلى تلك الفكرة.

بعد ولادتك، قرر السابع أنك حجر العقد، وأنك المنتظر. في عمر الرابعة، تم استنساخ جنين يحمل جيناتك وتمت زراعته في رحم أختك، ماي الصغيرة.

كذلك تم تهجين حمل من جيناتك. لم تكن المرة الأولى، فقت تم استنساخ



ذئب من جينات أبو آفريل.. وتم استنساخ ثور أحمر من جيناتكما معا. أنتم إخوة بشكل ما.. كانت تجارب شنيعة يبررها فقط البحث العلمي. كيف ننقل حيوانات ليس لديها القدرة على الانتقال؟

المهم.. لم يحتمل أبوك كل هذا، وكنت أجاهد كي أقمع ثورته وغضبه. لم أستطع أن أرى معاناه العاشر الذي اعتبرته ابني الوحيد، وأولاده.

قرر أبوك أن يهرب بزوجته وأولاده فجلسنا ندبر ونحكم الخطة.

* * *

تتظاهر بالنوم حين تحب أن تتلصص على الكبار. أبوك وفبراريوس يتهامسان في حجرة الأول.

ـ ستقدم ذلك المشروع لرجال العقد غدا.

ـ لن أتعامل معهم ثانية.. ما الجدوى من كل ما يحدث؟ كل أولئك المعذبين من أجل وهم تفجير كون جديد؟ كيف سيحدث هذا؟ ما الخطة؟ لا خطة.. رجال العقد يخططون للهرب إلى أي كون آخر. لا تصدق ما يقولون يا فبراريوس.

ـ هل تريد الهرب أم لا؟ أنصت كي أستطيع مساعدتك.. هذا المشروع الجديد من تصميمي.. أسميه اللعبة. من الملاحظ من بداية مشروع الواجب أن المتدربين تحت ضغط نفسي، تزداد قدراتهم على الانتقال بشكل أفضل من حرمانهم من أعضاء جسدهم الحسية تدريجيا. مشروع اللعبة هو وضع الجميع تحت ضغط نفسي كبير لتوليد أقصى قدرة على الانتقال لديهم، ومن ثم انتقاء من لديهم قدرات دون التعرض لأي إيذاء جسدي.

ـ ما علاقة هذا بفرارنا؟

ـ سنكسب فراركم صبغة شرعية.. سأعرض مشروع اللعبة وسأقنعهم به، لا تقلق.. اليوم الذي تقرر فيه الهرب، سترحل ماي والطفلان وأنا معهما. ستخبرهم هنا بفرار زوجتك وأنني ذهبت كي أكمل تجاربنا في قارة التراب، وكي أضع الطفلين تحت الاختبار حتى يصلا سن الثامنة عشرة، ونبدأ في تطبيق اللعبة عليهما. هكذا ستسهل على الثلاثة الهرب وتظل أنت هنا خارج دائرة الشبهات.

ـ وهل سيتركونهم ليهربوا؟
ـ هذا يعتمد على قوة إقناعنا لهم بمشروع اللعبة. كما قلت لك، لدي نتائج التجارب السابقة تحت الضغط، ما يؤكد صحة كلامي. في نفس الوقت، لن أتخلى أنا عن قسمي وسنصحح مسار الواجب باللعبة. سنكمل طريقنا في تجارب الانتقال الكمي لكن بطريقة أقل ألما.
ـ وذلك الجنين في بطن ماي الصغيرة؟
ـ ماذا عنه؟ بني، لا تنس لِمَ خلقنا.. نحن حراس الأكوان، ولو كان يَانُوس أو أخته أو ابنتهما قادرين على إنقاذ كوننا، فلا بد من إخضاعهم للعبة.. لا نقاش هنا.. لكننا لن نؤذيهم.
ـ والثور.. والحمل! كيف تتحملون رؤية وجوهكم في المرايا؟

يقوم والدك غاضبا ويطوح ذراعه المعدن فتكسر النافذة. تنتفض فيلاحظ أبوك أنك مستيقظ. ينظر لك فبرواريوس ويهمس لأبيك.

ـ انظر ماذا فعلت؟
ـ انتظر ماذا سأفعل.

* * *

يخبرك فبرواريوس أن أباك أصبح صموتا أكثر من اللازم. كان مقنعا إلى حد مخيف في عرضه لمشروع اللعبة أمام رجال ونساء العقد.

ـ كان هو من أخبر رجال العقد بعدها بشهور عن اعتزام زوجته أن تهرب بأولادهما. وهو من اقترح عليهم أن أذهب أنا معهم كرقيب عليهما، وطلب أن يرسل معي ثورا وحملا معدلين جينيا لاختبار اللعبة على الحيوانات أيضا. لم أر حينها الغرض من إرسال الحيوانين معنا، لكنني خفت أن أعترض فأفسد كل شيء. وقد كان الثور والحمل لعنتين أرقتا مضجعي طيلة الأربعة عشر عاما. ذنب فوق ذنب يتراكم في روحي.
يوم فراركم كانت هناك مطاردة من الضواري استلزمتنا أن نسلك



المجارير طرقا. وهنا رأيت لأول مرة قدرة أختك ماي على إيقاف الزمن وإبطائه. اللعبة تؤكد فاعليتها.

طيلة ثلاثة أعوام، لاحظت أن الأفراد من الفئة جاما في تزايد من حولي في قارة التراب، بينما يتم تحميل شباب سنويا بلا أي مواهب. لقد كان والدك يكسب ثقة رجال العقد ويخلخل بنيانهم من الداخل. يسرب الموهوبين إلى قارة التراب وينقل معدومي القدرات إلى الجزيرة.

وقد اضطررت كي أحمي ابنتي وأحميك وأختك، أن أخبر رجال العقد بمخططات أبيك وإقناعهم بالعفو عنه.

حتى ولدت ماي الصغيرة جونو.

* * *

كان الجو حارا، أمك تهوي بورقة مقواه على وجه أختك. آلام المخاض تفوق قدرتك على تحمل صرخاتها.

منذ دقائق، رأيت من يشبه والدك، كأنك كنت تحلم به. الآن تراه بشحمه ولحمه يسير على حافة ترعة الري. تدخل لتنبه أمك إلى أن أباك هنا.

تخرج وتسحبه للداخل في ذعر. جونو تنزلق إلى الحياة فتتلقاها على كفيك.

ـ يجب أن تموت المولودة.

ـ ارحمها أيها العاشر.. ما ذنبها؟

ـ ما ذنب ابنتنا وابننا؟ لن نكون فئران تجارب مرة أخرى. فلتذهب الأكوان جميعها إلى الجحيم.

ـ تذكر لمَ خلقت أيها العاشر.

يبعد أمك فتسقط على وجهها في التراب.

تذكر وجهه في الظلام وأختك قد فارقت الحياة جوارك. دون سلام،

دون أن يلقي حتى نظرة وداع على ابنته، يلف كفه المعدن على عنق الوليدة ويضغط. تتعلق برقبته، تركله. ترجوه أن يتركها ولك منه وعد ألا يراكما للأبد. تغرس أسنانك في لحم ذراعه فيدفعك أرضا. تسقط جونو بلا حراك على الأرض. نظرة مظلمة أخيرة منه عليكما ثم ينصرف.

* * *

تربط مقال فبرواريوس بشظايا ذكرياتك. كان لا بد أن يكون في حياتك من يقوم بدور الشرير، وقد كان.

- وأين أمي؟
- فقدت ترابطها بكوننا بعد موت أختك. موجودة في مبنى العقد، وعيها يجوب الأكوان وجسدها في المعبد.

وشى فبرواريوس بالعاشر لرجال المعبد لما فعله بمشروع اللعبة الثمين. لم تمت جونو، لكنها فقدت بصرها للأبد.

- كنت أحبه، وكان لا بد لي من الاختيار.. مشاعري أم ما خلقنا من أجله؟
- أنتم من قتلتم أختي وأرسلتم أمي لتهيم بين الأكوان.
- لا بد من تضحيات يا بني، وأقسم لك إن موت أختك لم يكن مخططا له من الأساس. كيف لنا أن نتنبأ بأن حملها سيدوم أربعة أعوام حتى يمتص جسدها كله؟
- وهل ما تفعلونه من البداية يخضع لأية قيم؟
- إنقاذ توازن الأكوان هو القيمة الحقيقية هنا.
- كيف تسربتَ إلى كون نوفو؟ لطالما ظننت أن شخصية فبراير بلا لاعب.
- آفريل.. قلت إن آفريل هو من نقلني. كان لا بد أن أكون جوارك يا يَانُوس هناك. أنتِ حفيدي والباقي لي من أمك. كان لا بد أن أتسلل إلى اللعبة دون معرفة رجال العقد كي أحميك.



ـ كان لا بد لك من الانتقال كي تهرب من كون يتداعى تركوك فيه وهربوا. لا تحملني تضحياتك الكاذبة.

كان ذنب رجال العقد، الواجب. وكان ذنب فبرواريوس اللعبة.
كل الاحتمالات سواء عندك. كل الروايات عن ماضيك صادقة وكاذبة. جونو وأمك وأنت نفسك هنا وهناك. أين الواقع وأين الخيال؟

ـ يَانُوس.. لو احترت في اختيار طريق، تذكر أولا إلى أين تريد الذهاب.

* * *

تجلس على الشاطئ، البحر يقذف الأخشاب طافية إلى ما تحت قدميك. ربما تصنع سفينة تهرب بها من كل ذلك.
يأتي أبريل الصغير أخضر الشعر ويجلس جانبك. تنغرس قدماه الدقيقتان في الرمال.

ـ هل كل هذا وهما؟ خيالك متقن جدا يا يَانُوس.
ـ ربما كانت حياتنا السابقة وهما وهنا الحقيقة.. لم أعد أعرف شيئا.
ـ ورسائلك التي تصلك من كل الأكوان.. كل تلك الاستغاثات، هل ستتركها وترحل؟
ـ إلى متى سأحمل اللوم على عاتقي؟
ـ يناير، يانوس.. لا بد أن تذكر الناس هنا بدورهم.
ـ هم لا يريدون ذلك.. لا أحد يريد تذكر عبئه.. القليل فقط من وجدوا الطريق، البعض لا يتعرفونه حين يجدونه، والبعض لا يريد أن يتعرفه..
ـ أنقذهم من الضلال إذن؟
ـ كيف للضال أن يهتدي؟
ـ ماذا ستفعل إذن؟

- ساكتب، وسأرد على كل الرسائل التي وصلتني من كل الأكوان. بتضحيتك يا آفريل، تذكرت لمَ أنا هنا.
- لكنك هناك لم تعرف طريقك بعد.
- كل ما تحتاجه هو أن يعرف جزء منك الحقيقة لا أكثر. أنا نفسي ماندالا مصغرة. كون يؤثر فيه قلبه على عقله، وعقله على ضميره، وعيه على نومه وواقعه على خياله.
- ألا تريد أن تعرف الحقيقة عن ماضيك؟ جونو يمكنها أن تساعدك.
- جونو لديها طريقها كي تمشيه.
- يمكنني أن أساعدك يا يَانُوس.

* * *

يحضر لك فبراريوس جونو، تمسك يديها، تعرف جيدا ما تريد قوله.
- لا تثق في ذكرياتك.. لا تثق في حواسك.. لطالما كانت ذاكرتي بخير ولطالما صدقت أنت أن ما لا تذكره لم يحدث.
- تعلمت الدرس يا صغيرتي.
- سأراك هناك يا أبي، حتى وإن لم تكن أبي، لا أب لي سواك.
- سأراكِ هناك وفي كل مكان قدر له أن يكون.

الطاقة تنسحب من كونك. آخر اللاعبين يتم نقلهم إلى كون نوفو من دون ماندالا. الخمسة آلاف وستمئة وأربعة وخمسون شخصا من أبناء الآرينا هناك، بعد أن تخلصوا من أبناء الخميس الفارين.

يهتز العالم من حولك، كل تلك الجزئيات المنقولة تخل بعالم يحتضر وتعجل بموته.

عاصفة ترابية تكاد تخلع جذورك وأنت تسير وحيدا نحو المرسى. تركب قاربا وتجدف نحو قارة التراب، حيث الملايين من أطفال وشباب وشيوخ يوم الخميس، الملايين من من مولوا اللعبة بدمهم وأعمارهم ينظرون نحو السماء في هلع. ماذا فعلوا ليحل عليهم العذاب؟ ماذا فعلوا ليحل عليهم العقاب؟



غارقا في التراب والماء تصل إلى البر. في يوم الخميس الأخير في ذلك العالم.

ينظر إليك الجميع ذاهلين. تمد يدك لأولهم، تلتحم أصابعكما في استغاثة صامتة. تتوالى الأيادي تمسك بالأعضاد والأكتاف. الكلاب والقطط والأبقار تخور وتتشابك مع الجموع. طفل يتمسك بدمية قماش بلا رأس. ماندالا بشرية حيوانية ممتدة على طول وعرض قارة التراب، متشعبة في خرائبها وحواريها.

كل شيء يزول في خليط ترابي باهت. تتفكك السماء فوقكم، تتحلل المباني والبحار.

يهمس لك أولهم، أسمر اللون أخضر الشعر، تقف جواره أنثى ذئب ذهبية الفراء:

ـ هيا بنا.

ـ هيا، لنختر طريقنا.

* * *



(٤)
تعقيب



من العدم ينطلق الوجود، ومن الوجود يشق الطريق والغاية.

انفجار عظيم يولد منه زمان ومكان وجاذبية.

كون آخر من بين الأكوان يحمل عبء الاختيار والاختبار. سيظل الزمان شاهدا ومذكرا على الغاية من الوجود. سيظل المكان يربطنا بأنفسنا وذوينا سواء في حلم أو حقيقة، في ذكرى أو مستقبل. ستظل جاذبية وجودنا أكبر من كل القوانين.

سننسى ونذكر، سنخطئ ونصيب، لن نموت إلا إذا اخترنا طريق الفناء.

البداية

مكان ما

زمان ما

تحت تأثير جاذبيتنا

شيرين هنائي

٢٠١٦



شكر خاص

الأستاذة العزيزة: وردة عماد.
نادي هواة الفلك بالدلتا.

وجودكم وتفانيكم في تبسيط أعقد النظريات العلمية مصدر إلهام للكثيرين. الشكر لن يوفيكم حقكم أبدا.



مراجع

- البحث عن قطة شرودنجر «جون جريبين»
- العوالم الأخرى «باول ديفيس»
- الفيزياء والفلسفة «فيرنر هايزنبرج»
- معنى النسبية «ألبرت آينشتاين»
- ٥٠ فكرة يجب أن تعرفها عن الفيزياء «جوان بيكر»
- الكون في قشرة جوز «ستيفن هوكينج»
- تاريخ الأديان الرومانية.

- the mandala "chris Bell"
- a brief history of time "Stephen Hawking"
- black holes and baby universes "Stephen Hawking"
- Newtonian physics "Benjamin Crowel"
- The fabric of cosmos "Brian Green"



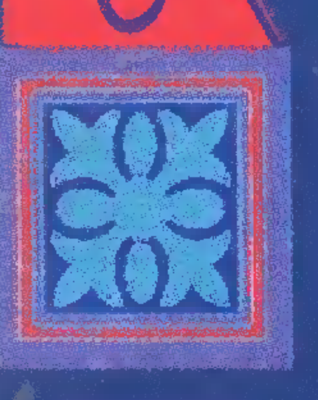
أسفار النهايات

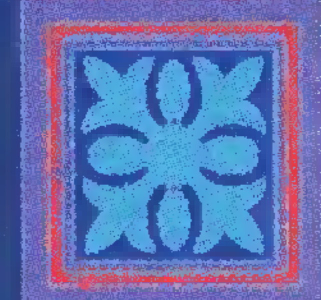
لم يكن "بحر"، مدرس الفيزياء المتقاعد، هو الوحيد الذي لاحظ تحطّم واحد من أقوى قوانين الطبيعة؛ الجاذبية، لكنّه الوحيد المسئول عما حدث وسيحدث لعالمه وللعوالم الأخرى.

وحين تلقى "يناير" منه رسالة استغاثة؛ لم يجد حلًا سوى محاولاته التي لا تُجدي لتوحيد قومه على زمن وأحداث واحدة، ليُجيب على تساؤله: من أين جئنا ولأي غرض؟ تكمن الإجابة والسر فيَ رواية "يَانوس" الكونية، التي يتوقف على نجاحها إنقاذ كونه كله، وبالتالي إجابة تساؤل "يناير"، وإغاثة "بحر"، ووصول رواية "أسفار النهايات" إلى يديك الآن.



شيرين أحمد هنائي، كاتبة مصرية من مواليد القاهرة عام ١٩٨٢، تخرجت في كلية الفنون الجميلة عام ٢٠٠٤ قسم الجرافيك والرسوم المتحركة، تعمل مخرجة رسوم متحركة وكاتبة سيناريو ومصممة إعلانات ومترجمة. نشرت روايتها الأولى "نيكروفيليا" عام ٢٠١١، ثم "صندوق الدمى" عام ٢٠١٢، و"طغراء" و"ذئاب يلوستون" عام ٢٠١٤، وتُعتبر "أسفار النهايات" روايتها الخامسة.







الرواق للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

